يصدرها
حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

رجال ونساء

أروع مجموعة من القصص كتبها أديب روسيا الخالد

مكسيم جوركي

١٠ قروش



مكسيم جوركي

رجال.. ونساء



ЙЗБРАННЫЕ
РАССКАЗЫ

BY : MAXIM GORKY

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب التاسع عشر

رجال .. ونساء

تأليف : مكسيم جوركى

ترجمة: وديع سعيد
محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة ((كتابى))
(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن ستة وخمسون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواء الجديدة . أحدب نوتردام . جريمة حب . عشيقة نابليون . مذكرات كيوبيد . صنم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الارض . ليدى هاملتون . الارملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بتهوفن . حياة موسولينى . كوخ العم توم . الزوج والعشيق . البوهيمية . فتاة لها ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق . أميرة مصر . الامطار . أفروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . الاعداد : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه ٢٠ قرشا . والاعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا: قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان)، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، وثمن كل من الاول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل)

نحن شعب لم تكن تنقصه غير القيادة الرشيدة !

سر المعجزة !

◆ لله درك يامصر ! .. ان أقوى الناس ايمانا بصلابة شعب مصر لم يكن يستطيع أن يرقى بخياله الى هذا المستوى الذى ارتفعت اليه ـ فى الاسبوعين الماضيين ـ روح هذا الشعب العظيم ! .. فان الشعب المسالم ، الهادىء ، الوادع ، الذى بث فيه أعوان الاستعمار وعملاؤه ـ طيلة سنوات الاحتلال ـ سموم الاستكانة ، والتخاذل ، واليأس ، وفقدان الثقة بالنفس ، حتى لقد وقر فى ضمير أبنائه على مر الاعوام ذلك الوهم المشئوم بأنهم ـ حقيقة ـ قوم ضعاف العزائم ، خائروالنفوس ، يؤثرون التسليم بحقهم على الوقوف دونه فى معترك الكفاح !

أقول ، ان هذا الشعب الذى لم يألف الحروب والمعارك ـ فى تاريخه الحديث ـ والذى كان الظن فيه أن يتقاعس عن نبذ الدعة والأمن جانبا كى يمتشق السلاح ويخوض المعارك .. قد حطم فجأة ، بين يوم وليلة ، كافة مقاييس الشجاعة والصلابة المتعارف عليها بين الأمم ، وضرب فى هذا المجال أمثلة لم يكن يحلم بها أكثر الناس تفاؤلا وحسن ظن !

فما هو السر ؟

ما سر هذا التحول المفاجىء فى مسلك شعب مصر ، من شعب كان مظهره يوحى بأنه شعب هازل لايعرف الجد ، وادع لايعرف البأس ، رخو لايقوى على ضراوة القتال .. الى شعب يصمد هذا الصمود العجيب لقتال امبراطوريتين ضخمتين باغيتين ، وصنيعة لهما ماكرة مكر الثعلب ، غادرة غدر اللئام ؟

نعم ، ماسر هذا التحول المذهل فى مسلك شعب مصر ، من شعب بدا للعالم فى ربع القرن الماضى سريع الهياج سريع اليأس ، تقيمه كلمة وتقعده كلمة ، وتنحصر أسلحته لمحاربة أعدائه فى « الكلام » ، والنكات ، والمظاهرات الحزبية ! .. الى شعب نظامى « جاد » ، يثير ذهول العالم وينتزع اعجابه : برصانته ، وضبطه لأعصابه ، وتصميمه الصارم الجبار على صيانة استقلاله وسيادته بأى ثمن .. ولو بالسيف والمدفع ، والحديد والنار ، والدم والعرق !

فما سر هذا التطور الهائل فى نفسية الشعب .. التطور الذى قلب خطط الاعداء رأسا على عقب ، وأحبط كل مؤامراتهم ؟

ما سر هذه الوقفة الخالدة التى وقفتها مصر كلها بوجه عام ، وبور سعيد الباسلة بوجه خاص ، فى وجه القوات الجرارة التى شنها عليها زبانية الشر والبغى والعدوان ؟

ما سر هذه « المعجزة » المذهلة ، التى جعلت من البلد الوادع المستكين ، عملاقا محاربا شديد الضراوة والبأس ، يكتب بقتاله العنيد المرير صفحات رائعة تأخذ مكانها فى سجل الخلود الى جانب الصفحات التى خطتها بلاد عريقة فى القتال ، كيوغسلافيا ، واليونان ، والجزائر ، والهند الصينية ؟

أتعرفون ما السر ؟

السر أمر غاية فى البساطة ، وان طالما بدا غاية فى التعقيد! .. السر يكمن فى هذه العبارة الصادقة المخلصة التى جاءت عفوا على لسان الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه الأخير بالأزهر يوم ٩ نوفمبر الحالى ، غداة وقف القتال : **« اننى أيها الاخوة حينما كنت أرفض باسمكم وباسم عزتكم كل مايمس سيادة مصر ، كنت أومن بهذا الشعب وبقوة هذا الشعب . كانوا يقولون فى الخارج ان مصر لن تقاتل ، لن تستطيع أن تقاوم أو تقاتل ، فكنت أقول اننى من هذا الشعب وأعرف عنصر هذا الشعب .. »**

بهذه البساطة البليغة المؤثرة ، التى هزتنى هزا – كما هزت كل من سمعها – كشف القائد الباسل النقاب عن السر الهائل : سر المعجزة التى حققتها مصر ! .. سر الشعب الوادع الصغير الذى أحالته عشرة أيام خالدة الى مارد جبار ينتزع اعجاب العالم بأسره ، ويفرض عليه احترامه ! .. **وما السر الا فى هذا الايمان العجيب الذى كان ومايزال يعمر قلب «جمال عبد الناصر» .. الايمان بشعب مصر ، وبطيب عنصر هذا الشعب ، وبزيف كل ماكان يوجه اليه من تهم ومطاعن ، وبصدق القول بأنه شعب من معدن أصيل ، لم تكن تنقصه غير القيادة الرشيدة ، الواعية ، التى تعرف طاقته وتحسن توجيهه واستغلال مكنوناته لانتشاله واسعاده !**

هذا الايمان الوطيد ، العميق الجذور ، الذى تجاهل مآسى ربع القرن الأخير وغاص عبر السنين الى الماضى البعيد ، الطافح بأمثلة الكفاح العنيد المشرف .. هو الذى أمد « جمال عبد الناصر » بالقوة والصبر على السعى الحثيث المحفوف بالمخاطر ، طيلة أكثر من عشرة أعوام ، لانقاذ هذا الشعب من براثن الفساد والاحتلال !

وهذا الايمان المتأصل الصابر هو الذى زود « جمال عبد الناصر » – فى أحلك الساعات – بتلك الطاقة المعنوية الهائلة من الأمل والرجاء فى تحقيق مستقبل أفضل لشعب مصر !.. ولم لا أقول انه لولا ذخيرة هذا الايمان ، لما صبر القائد المتفانى على احتمال المكاره والعراقيل التى بثت فى طريقه – كالألغام! – فى كل معركة خاضها ، سواء فى الداخل أو الخارج ، منذ قام بثورته المباركة ! ؟

هذا الايمان اذن هو الذى صنع العجائب ! .. وهذه القيادة الرشيدة ، القوية ، الواعية ، للشعب الأصيل ، هى التى منحته القوة والفرصة لاظهار معدنه الحقيقى ومكنوناته .. فحقق المعجزة !

لقد آمن القائد بشعبه ، فارتفع الشعب الى مستوى قائده .. وبقى أن نرتفع ، كأفراد ، الى مستوى الشعب ، ومستوى القائد .. كل فى ميدانه .. وبكل طاقته !

نعم ، بقى أن يصنع كل فرد من أبناء مصر معجزة ، فى ميدان العمل والانتاج والبناء ، كى نحول المعجزة الواحدة .. الى ٢٣ مليون معجزة !

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

مكسيم جوركى

أقرب الكتاب الروس الى أذهان غير الروس !



• **لعل** « جوركى » هـو أقرب الكتاب الروس الى عقل القارىء غير الروسى . فأنت قد تضحك مع كاتب مثل « جوجول »، ولكنك تحس فى قرارة نفسك بشىء من الارتياب فى مدى فهمك للب فكاهاته .. وأنت قد تقرأ قصص « دوستويفسكى » باستمراء ونشوة ، وتهيم معه فى اتجاهاته الخاصة بأحداث تلك القصص وشخصياتها ، ولكنك تظل ـ رغم نشوتك ـ متحيرا ازاء الاسباب التى دعته الى أن يهيم فى تلك الاتجاهات .. وأنت قد تستجلى غوامض ماصوره « تيرجنيف » من رؤى توصل اليها ببعد نظره وبصيرته ، وقد تعجب بسخرية « تشيكوف » ، ولكنك لا تطمئن قط الى أن هذا الاعجاب وذلك الاستجلاء قائمان على أسس من المنطق والأسباب المعقولة ..

أما مع « مكسيم جوركى » فالأمر يختلف ، رغم أنه أحدث كتاب روسيا الذين أفلحوا فى تخليد أسمائهم فى تاريخ الادب ، اذ ولد فى سنة ١٨٦٨ . ويرجع اختلاف « جوركى » عن زملائه من أقطاب الأدب الروسى ، وبالتالى يرجع قربه من أذهان القراء غير الروسيين ، الى أنه ينقل صورا حقيقية صادقة لحياة وشخصيات قد لا نعدم أن نرى لها شبيهات فى البلاد

الأخرى ، وخاصة فى البلاد الشرقية .. أو بالأحرى ، اننا ربما رأينا شبيهات لها فى بعض مراحل تطورنا الاجتماعى !

والواقع أن مؤلفات « جوركى » تعتبر سجلا صحيحا للتاريخ الروسى الحديث .. ولتاريخ الطبقات الفقيرة والعاملة ـ بوجه خاص ـ قبل وقوع الانقلاب البلشفى . ويرجع ذلك الى أن جوركى قد عاش منذ حداثته حياة حافلة بالحرمان والعناء والكد ، اذ مات أبواه وهو طفل ، فكفله أحد أقاربه على كره ، ومن ثم كانت معاملته لجوركى الطفل خالية من العطف والاحاسيس الدافئة ! .. وكان من الطبيعى ازاء هذا أن لا يحظى الصغير بقسط وافر من التعليم المدرسى .. بل لقد اضطر للعمل على ظهر احدى السفن التى كانت تمخر عباب نهر (الفولجا) . على انه استطاع فيما بعد أن يعوض ما فاته من الدراسة بالاطلاع

والمهم أن هذا الاضطرار الى العمل وكسب القوت فى سن جد مبكرة ، نبه فى الصبى ـ الذى ورث عن أبيه ، وكان من أصحاب الحرف اليدوية ، وعن أمه الفلاحة الذكية ، ماكان لهما من مواهب ذهنية مرهفة ـ الشعور بالحاجة الى العدالة الاجتماعية ، مما حفزه على المساهمة مع أولئك الذين تصدوا للجهاد من أجل قضية الطبقات الدنيا من الشعب الروسى !

* * *

• **كذلك** تعتبر سيرة جوركى الشخصية خير مرآة تبين مدى النمو الفكرى لطبقة العمال بأسرها فى وطنه .. عمال المزارع ، وعمال المصانع على السواء . وكان جوركى نفسه مثالا للنابهين من أبناء هذه الطبقة . فقد نشأ ـ رغم فقره وكدحه فى طلب القوت ـ متعطشا الى العلم والمعرفة . ومن المحتمل أنه ما كان ليجرؤ على أن يروى هذا العطش ـ فى غمرة حاجته التى كانت تضطره الى التشبث بالعمل على سفن نهر الفولجا

ـ لو لم يعطف عليه الطاهى الثانى لسفينة التحق بالعمل عليها، فراح يشجعه ويستحثه . ومن ثم لم يلبث الفتى ـ حين بلغ السادسة عشرة من عمره ـ أن حقد على صاحب السفينة الذى كان يسومه الخسف ، فترك العمل ، وانطلق فى سنة ١٨٨٤ الى مدينة (قازان) ، يحدوه الامل فى أن يجد فيها عملا يمكنه من الانتساب الى جامعتها ليعوض ما فاته من علم ومعرفة .

ولكن القدر كان يعده لحياةمن لون آخر ، فساقه فى (قازان) الى « جامعات » أخرى غير الجامعة الدراسية المنتظمة . **اذ كتب له أن يمارس فى (قازان) حياة التعطل ، وحياة سكان الأحياء الدنيا ، وحياة العمال فى مخبز « سيميونوف » بالطابق الأرضى القذر ، كما صورها أروع تصوير فى قصة « كونوفالوف » .. كذلك قدر له أن يتعلم فى « جامعة سياسية » تمثلت فى ندوة ثورية كانت تعقدها جماعة من أهل الفكر . وفى هذه الندوة ، عرف « جوركى » المبادىء الأساسية للنظرية الماركسية ، وقرأ كتب الفلسفة والاقتصاد السياسى** . وهكذا كانت الفترة التى قضاها فى (قازان) موردا أمده بمادة وفيرة للمؤلفات التى وضعها فيما بعد .

وفى سنة ١٨٩١ ، شرع « جوركى » يجوس خلال بلاده ، فطاف بأوكرانيا وبيسارابيا والقرم ، ثم انحدر مع ساحل البحر الى بلاد القوقاز . وكان يتكسب عيشه خلال هذا التجوال من العمل غير المنتظم الذى كان يصادفه ، حتى انتهى به المطاف الى (تيفليس) ، حيث التحق بالعمل فى احدى (ورش) السكك الحديدية .. وحيث التحق أيضا بجماعة ثورية للعمال،واتصل عن كثب بأنصار تعاليم ماركس ومذهبه . وكان هذا الاتصال هو العامل الذى حدد اتجاهاته الفكرية منذ تلك الفترة . كذلك التقى فى هذا الوسط بأحد المدافعين

عن قضية الشعب ـ وكان يدعى « ا . م . كالوشنى » ـ فشجعه هذا الرجل على أن يسجل بالقلم مشاهداته وتجاربه. ومن ثم انتج أولى قصصه القصيرة ، وهى « مقار شودرا » . وقد نشرت هذه القصة فى سبتمبر سنة ١٨٩٢ فى صحيفة « قافقاس » التى كانت تصدر فى (تيفليس) . على انه لم يوقعها باسمه الحقيقى ـ « اليكسى بيشكوف » ـ وانما وقعها باسم « مكسيم جوركى » الذى عرف به بعد ذلك مدى حياته .

***

• **هكذا** كانت بداية الحياة الأدبية لمكسيم جوركى. وعندما غادر (تيفليس) عائدا الى (نيجنى نوفجورود) ،حظى بالتتلمذ على كاتب روسى من زعماء التقدميين يدعى « كورولنكو » ، اذ قرأ الكاتب قصص « جوركى » قراءة الناقد القاسى ، وأزجى اليه نصائح قيمة . وبمعونة « كورولنكو » ، استطاع جوركى أن يضع قصة«تشيلكاش» ، كما شرع ـ فى تلك الفترة ـ يوافى صحف وادى نهر (الفولجا) الكبرى بالقصص القصيرة ، والمقالات ، والقطع الأدبية المليئة بالسخرية اللاذعة

وكانت سنة ١٨٩٨ من السنين البارزة فى حياة جوركى ، اذ نشر فيها أول كتاب ضم طائفة من قصصه القصيرة ومقالاته ، فبدأ اسمه يشتهر ويلمع !

ولقد حرص « جوركى » ـ فى قصصه الأولى ـ على أن يرسم صورا واسعة الآفاق ، متعددة الجوانب ، للحياة الروسية فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر . **على انه لم يكن يقتصر على مجرد السرد والرواية ، وانما كان يغوص فى أعماق الكيان الانسانى ، ويوغل وراء معانى قوانين التطور البشرى ، غير مكتف بمحاولة ادراك حقائق الحياة وتبيانها ، وانما كان يسعى أيضا الى أن يعبر أكمل تعبير عن الآراء**

المتعلقة بالحرية ، والى أن يقربها الى أذهان « الفقراء والمستضعفين » ! .. وهداه بحثه واجتهاده الى أن خير اطار يقدم فيه هذه الآراء ، هو القصة القصيرة ، التى تكتب بأسلوب خيالى روائى !

***

• **ولقد** انبثقت قصص جوركى الخيالية من نفس المنبع الذى فاضت منه قصصه الواقعية ، غير أنه عجز فى القصص الواقعية عن أن يعبر تمام التعبير عن آرائه ، فى حين انه وجد مجالا واسعا طليقا فى القصص الخيالية والأساطير ، للتعبير عن أحلامه الخاصة بالمستقبل .. فقد كان خيال جوركى الروائى يستمد الالهام من احلامه التى كانت تتجاوز نطاق واقعية اليوم ، لتصل الى واقعية الغد .. على عكس خيال الروائيين الرمزيين الرجعيين الذى كان يهرب من الواقعية الى دنيا الاوهام والرؤى !

ولقد كانت أولى قصص البطولة الخيالية التى كتبها جوركى ، تعبيرا عن انعكاسات لنهضة الحركة الثورية فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وكانت مفعمة بايمان وطيد فى فوز قريب **.. فكان الحافز والطابع اللذان يتجليان فى هذه القصص يتمثلان فى عبارة : « انما نتغنى بجنون البسالة » ! .. تلك العبارة التى وردت فى قصة « أغنية الصقر » ، والتى دوت كأنها صيحة تنبه المستضعفين الى الثورة .. و « تدعو باعتزاز الى الجهاد من أجل الحرية والنور » ! ..** ولعل جوركى أراد أن يرمز بالصقر الى الثائر الذى يقيم صرح جهاده لتحسين حال الناس ، على أسس من مطالب العدالة الرفيعة السامية !

ونهج جوركى فى جهاده من أجل الحرية والدفاع عن قضية المستضعفين نهج من سبقوه من أدباء روسيا الذين جعلوا المبادىء الانسانية شعار الادب القديم هناك . وكان يزهو

بانه يقفو أثر تولستوى وتشيكوف وكورولينكو ، ويدعو الكتاب الى أن يتعلموا من الآثار الادبية الكلاسيكية ، ليتخذوا من الادب سلاحا فى الصراع لتحقيق العدالة الاجتماعية . وقد بلغ من قوة قصص جوركى فى اثارة الحماسة فى القلوب ، ان شهد كثيرون من معاصريه بأنها أذكت جذوة الثورة الاشتراكية والاجتماعية فى نفوسهم !

* * *

• **وكان** من نتائج الرحلات الطويلة التى تنقل جوركى خلالها بين أرجاء روسيا ، ان وفق الى دراسة الحياة فى الأقاليم الروسية والريف الروسى دراسة دقيقة شاملة . وهو يكشف عن فساد هذه الحياة ، وعن ضيق عقول ابناء الطبقات الوسطى وخواء نفوسهم نتيجة الفقر الروحى ، وعن قسوتهم واستهتارهم ،فى القصص التى كتبها فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر . . **فقد ردد فى تلك القصص ما كان يأخذه على أصحاب المهن من القوم ــ كالمدرسين والأدباء ــ من ضعف خلقى ومعنوى كان يحول بينهم وبين المساهمة فى العمل على تحسين حياة مواطنيهم ، بل ويفضى بهم الى الاهمال فى اداء واجباتهم كأعضاء فى المجتمع** . وكان جوركى يستهجن ــ فى الوقت ذاته ــ أولئك الذين نأوا بأنفسهم بعيدا عن عامة الشعب ليعيشوا فى الحدود الضيقة التى تفرضها أنانية أصحاب المصالح من أبناء الطبقات الوسطى . كما حرص الكاتب على أن يرينا ــ فى تلك القصص ــ صورا للعواطف التى كانت تحتدم فى قلوب أولئك الذين أوتوا قسطا من العلم مكنهم من الاطلاع وتغذية عقولهم ، فاذا المعرفة تفتح اعينهم على ما كان فى الحياة من أمور تدعو الى التذمر والسخط . .

وهذا الربط بين المثقفين وبين طبقات الشعب العامة ، يبدو جليا فى قصص جوركى على تباين أنواعها تقريبا . . حتى

فى القصص الواقعية التى كتبها فى باكورة انتاجه . بل اننا لنرى فى قصصه كلها سجلا لنهضة الشعب الروسى وتكتله للكفاح .. وما أكثر الصور التى أوردها فى هذا الصدد فى قصصه ، كما سنرى حين نقرأ « شيلكاش » و « كونوفالوف »!

.. فهو فى هاتين القصتين يبين نقمة المستضعفين من أبناء أحط الطبقات الفقيرة ، ويوضح السر فى اتجاهاتهم الفوضوية وفى كراهيتهم لحياة الشقاء والعمل المرهق.. **اذ يعرض جوركى فى براعة كيف أن نقمة هؤلاء على الطبقة « البرجوازية » ــ وعلى أبناء الطبقة المتوسطة الذين أصابوا ثراء وامتلكوا الأراضى واستأثروا بموارد الدخل ــ تحولت فى فوضى تفكيرهم الى كراهية لكافة أشكال النظام الاجتماعى** .. كما أن حقدهم على الغنى والاثراء أنقلب الى سخط على العمل وحياة العامل ! .. وكأن جوركى بهذا يحمل التراخى فى تحقيق العدالة الاجتماعية تبعة الانقلاب الشيوعى فى روسيا !

***

• **وتمتاز** معظم الشخصيات التى ابتدعها جوركى فى قصصه ، بحب الحرية والطبيعة ، وبالتنقل والتجوال وعدم الاستقرار ، وبفضول يدفع دائما الى البحث عن معنى الحياة . وان شخصية رجل مثل كونوفالوف لتعتبر مثالا لما كانت عليه نفوس أولئك الأفراد .. فعلى الرغم من أن كونوفالوف كان عاملا ماهرا ، موهوبا ، أوتى أنبل المشاعر والحوافز ، الا أنه كان يعيش حزينا لأنه لا يجد فى البيئة المحيطة به عونا ، ولأنه لا يرى مجالا لاستغلال الطاقة والنشاط الكامنين فى نفسه ، مما جعله يدرك ان نوازعه النبيلة صائرة الى خمود وعدم اذا لم ترتبط بعمل ذى هدف وغاية !

ولعل اقتناع جوركى بأن المستقبل للطبقة العاملة ، لم يستقر فى نفسه الا أثناء عمله فى « ورشة » السكك الحديدية فى (تيفليس) . وهذا الاقتناع هو الذى حدا به ــ فى الغالب ــ

الى أن يختار معظم أبطال قصصه من هذه الطبقة . ولقد حاول فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر ـ وهى أكثر السنوات فى حياته ازدحاما بالانتاج والنشاط ـ أن يوقظ وعى العمال ، مما أثار جدلا محتدما ، واسع النطاق ، بينه وبين الكتاب الذين كانوا يتشبثون بالمذاهب والمبادىء القديمة . وراح جوركى ينكر على أولئك الكتاب أنهم كانوا يغمضون أعينهم عن المشكلات الاجتماعية ، أو يمسونها فى غير اعتناء ، ولا ينظرون الى جموع عامة الشعب الا كمخلوقات لا تثير فى النفس الهاما ما .. اللهم الا الاشفاق والرثاء ! .. بل ان حملة جوركى لم تقتصر على الكتاب وحدهم ، وانما شملت الشعراء أيضا ـ كما فى قصة « الشاعر » ـ والفنانين الذين كانوا يتمسكون بـ « الفن المحض » ، فلا يتجاوبون مع الناس ولا يسخرون أدبهم أو شعرهم أو فنهم لخدمتهم . **وكان يرى ان غاية الادب هى مساعدة الانسان على أن يفهم نفسه ، وتعزيز ايمانه بهذه النفس ، وتعضيده فى كفاحه للوصول الى الحقيقة ، والكشف عن النواحى الطيبة فى الناس ، واجتثاث النواحى الخبيثة ، واذكاء الحياء والاقدام والشجاعة فى القلوب !**

* * *

• **ولقد** أثار جوركى فى قصصه الأولى كثيرا من المشكلات التى قدر لها أن تضنيه طيلة عمره ، حتى اننا لنستطيع أن نجد فى شخصيات بعض القصص التى كتبها فى كبره ، استئنافا واستطرادا لشخصيات تناولها فى قصصه الأولى . فاذا انتقلنا الى القصص التى كتبها فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، استطعنا أن نجد بوادر المدرسة الجديدة التى قدر له أن يبتدعها فى الأدب الحديث .. مدرسة الواقعية الاشتراكية ، وتصوير الحياة تصويرا صحيحا صادقا .. المدرسة التى سخرت الادب لعلاج المشكلات الاجتماعية للطبقات الفقيرة ، ولخدمة الأهداف السامية لا السعى الي المجد والشهرة !

ذات العينين الزرقاوين



THE WOMAN WITH THE BLUE EYES

(١)

• **كان** معاون البوليس « بودشيبلو » ـ وهو أوكرانى بدين ، كئيب الطلعة ـ يجلس فى مكتبه ، وقد راح يفتل شاربيه ، ويرسل الى فناء مركز البوليس ، خلال النافذة ، نظرات مفعمة غيظا وحنقا .. فقد كان المكتب معتما رطبا ، يخيم عليه سكون شامل لا تعكره سوى « تكتكة » بندول الساعة وهو يتحرك محصيا الدقائق ، فى تمهل ممل يثير السأم والضجر فى النفس . أما فى الخارج ، فان الجو كان مشرقا ، يملأ القلب بهجة وسرورا . وكانت شجرات «البتولا» الثلاث القائمة فى وسط الفناء ، تبسط ظلها وارفا ، وقد نام الشرطى « كوخارين » ـ الذى كان قد انتهى من نوبته توا ـ تحت هذا الظل ، على كومة من « الدريس » المعد لخيول مركبة اطفاء الحريق

وكان هذا هو المنظر الذى أثار غضب معاون البوليس « بودشيبلو » . اذ كيف يستطيع مرؤوسه أن ينام ، فى حين يضطر هو ـ الرئيس التعس ! ـ الى ملازمة هذا الجحر ، والى استنشاق الأبخرة الكريهة التى كانت تتصاعد من الجدران الحجرية الاربعة !.. وأخذ يتخيل المتعة التى كان حريا أن ينعم بها ، لو أنه نام على هذا « الدريس » الطرى فى ظل شجرات « البتولا » .. لو أن وقته ومركزه كانا يسمحان بذلك!

.. وجعلته هذه الفكرة يتمطى ويتثاءب ويزداد عن ذى قبل غيظا ، ثم تملكته رغبة ملحة فى أن يوقظ « كوخارين » هذا ، ومن ثم صرخ بصوت مدو : « انت ! .. انت أيها الخنزير ! كوخارين ! »

وفتح باب الحجرة وراءه ، ودلف شخص الى المكتب . ولكن « بودشيبلو » لم يحفل به ، بل ظل يتطلع خلال النافذة دون أن يدير رأسه أو يساوره شيء من الفضول لمعرفة الشخص الذي أقبل ووقف عند مدخل الغرفة فجعل خشب الارضية

يئن من ثقله ! .. وفى الوقت ذاته ، لم يحرك « كوخارين » ساكنا ، أو يستجب لصراخ « بودشيبلو » . اذ كان مستغرقا فى النوم ، واضعا يديه تحت رأسه ، وقد اتجهت لحيته نحو السماء . **وخيل الى معاون البوليس أنه يسمع غطيط مرؤوسه يرتفع عاليا فى تحد وسخرية ضاعفا من شوقه الى النعـاس ، وزادا من حنقه لانه لم يكن يملك أن يغفو قليلا . وشعر برغبة فى أن يهبط الى الفناء فيوجه ركلة قوية الى كرش «كوخارين»، ويجره من لحيته من الظل الى أشعة الشمس الحامية !**

وعاد يصيح مهدرا : « انت يا من تنام هناك .. أتسمعنى؟»

و رد عليه صوت رقيق انبعث من خلفه قائلا : « أنا الموكل بالنوبة يا صاحب الفخامة ! » . فالتفت « بودشيبلو » محملقا فى الشرطى الذى كان يتطلع اليه بعينين جاحظتين ، باهتتين ، مرتقبا الأوامر التى قد تدفع به الى الخارج مسرعا . وما لبث بودشيبلو أن سأله : « هل استدعيتك ؟ »

ـ كلا يا سيدى

فرفع بودشيبلو صوته ، وهو يستدير فى مقعده صائحا : « وهل ترانى ســألت عنـك ؟ » .. فأجاب الشرطى : « لا يا سيدى »

ـ اذن ، فاذهب الى الجحيم قبل ان أرمى رأسك بشىء يحطمه !

وراحت يسراه تتحسس بالفعل شيئا على المكتب ، بينمـا تشبثت يمناه بظهر مقعده .. الا أن الشرطى كان قد اندفع كالسهم الى خارج الغرفة ، وما لبث أن اختفى من أمامه .. ولم يرق لمعاون البوليس أن يخرج الشرطى على هذه الصورة ، فقد رأى فى مسلكه ضربا من عدم الاحترام .. فضلا عن أنه كان يريد أن يصب على رأس أى انسان ، ذلك الغضب الذى ضاق به صدره ، والذى نجم عن الكآبة والعمل وانشغال البال بالمعرض الذى اقترب موعده ، وكثير من الاسباب الاخرى التى

تبعث فى النفس الضيق ، والتى كانت تتسلل الى ذهنه على غير ارادته . لذلك صاح فى الشرطى ، خلال الباب : « عـد الى هنـا ! »

فعاد الشرطى ووقف منتصب القامة على عتبة الباب ، وقد علت وجهه نظرات الرعب والفـزع . وزمجر بودشـيبلو قائلا : « أيها الغبى ، اذهب الى الفناء وايقظ هذا الحمـار كوخارين ، وقل له ان فناء المركز ليس معـدا للغطيط .. اسرع ! »

— سمعا وطاعة يا سيدى ، ولكن ثمة امرأة تطلب ...

— ماذا تقول ؟

— امرأة ...

— أى طراز من النساء ؟

— سيدة طويلة ..

— يا لك من غبى .. وماذا تراها تريد ؟

— انها تريد مقابلتك ..

— سلها لماذا . واغرب عن وجهى !

— لقد سألتها فلم تشأ أن تخبرنى ، وانما قالت انها تريد محادثتك شخصيا

— لعنة الله على هاته النسوة ! .. دعها تصعد لمقـابلتى .. أهى شابة ؟

— أجل يا سيدى !

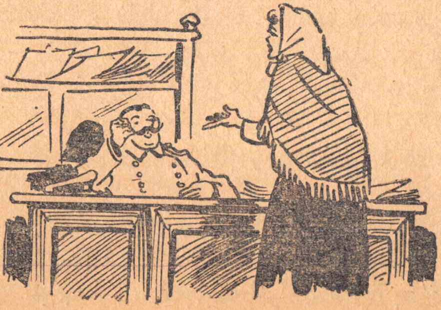
واذ ذاك رقت لهجة بودشيبلو فبدت أكثر خفة ونعومة ، وهو يقول : « حســنا ، دعها تأتى الى ، ولا تبطىء ! » .. واستقام فى جلسته ، وأخذ يقلب بعض الأوراق التى عـلى مكتبه ، وقد اتخذت قسمات وجهه الكئيبة مسحة رسـمية صارمة ..

***

• وسمع من خلفه حفيف ثوب امرأة ، فقال : « أى خدمة أستطيع اداءها لك ؟ » .. وتحول فى نصف التفاتة الى زائرته، فرمقها بعين الفاحص المدقق . وأحنت السيدة رأسها دون أن تنبس ببنت شفة ، واتجهت فى خطى وئيدة الى المكتب وهى تحملق فى الضابط بعينين زرقاوين حزينتين ، يعلوهما حاجبان مقطبان . وكانت ملابسها بسيطة من النوع الرخيص، وقد لفت رأسها بوشاح ، ووضعت على كتفيها دثارا باليا ظلت تلوى أطرافه بين أصابعها الرقيقة التى زانت يديها الصغيرتين .. **وكانت فارعة الطول ، ممتلئة الجسم ، ناهدة الصدر ، بارزة الجبين ، أكثر جدا وصرامة من معظم النساء . وبدا أنها فى نحو السابعة والعشرين .. وكانت تسير فى خطى بطيئة ، وقد استغرقت فى التفكير ، وراحت تردد ، وكأنها تحدث نفسها : « ربما كان من المستحسن أن أعود ادراجى !»**

وما أن رآها بودشيبلو حتى هتف يقول لنفسه : « يا للنموذج الجميل ! .. يا لسمكة البياض البديعة ! انها ولا شك احدى مثيرات المتاعب لك ! »

وبدأت السيدة حديثها قائلة فى صوت عميق ، غنى النبرات: «بودى أن أعرف .. » ، ثم سكتت ، واستقرت عيناها



الزرقاوان على وجه الضابط الملتحى فى نظرات حائرة يشيع فيها الشك والارتياب . فقال لها : « تفضلى بالجلوس ، ما الذى تودين أن تعرفيه ؟ » .. ومع أن بودشيبلو وجه هذا السؤال فى لهجة رسمية ، الا أنه راح يقول فيما بينه وبين نفسه : « انها لفاتنة ، غضة الاهاب ! »

وأجابته قائلة : « جئت بشأن تلك البطاقات »

ـ بطاقات الاقامة ؟

ـ كلا ، ليست تلك البطاقات !

ـ اذن فأى بطاقات تعنين ؟

فقالت متلعثمة فى ارتباك ، وقد اصطبغ وجهها باللون القرمزى : « تلك البطاقات .. التى تعطى لـ .. للنساء ! »

وسألها بودشيبلو وهو يرفع حاجبيه ويبتسم مداعبا : « أية بطاقات تلك ؟ وأى نوع من النساء أولئك ؟ »

ـ مختلف الانواع .. اللواتى يذرعن الشوارع .. ليلا !

وقال بودشيبلو مبتسما : « صه!صه ! أتعنين العاهرات؟» . فقالت المرأة : « أجل ، هذا ما أعنى ! » . وتنفست الصعداء ثم افتر ثغرها عن ابتسامة وكأنما أزيح عن صدرها حمل ثقيل ، بعد أن نطقت بهذه العبارة . واذ ذاك قال بودشيبلو : « ما أراك تعنين ذلك ! .. حسنا ! » ، ثم أمسك متوقعا أن يسمع جوابا مثيرا . فقالت المرأة : « انما جئت من أجل تلك البطاقات ! . وارتمت على مقعد وهى تتنهد ، وألقت برأسها الى الوراء بطريقة غريبة ، وكأن شخصا ما قد ضربها . فقال : « فهمت .. اذن فأنت تفكرين فى ادارة منزل للدعارة » . فأجابت : « كلا .. بل أريد البطاقة لنفسى ! » . وأطرقت برأسها كثيرا !

وسألها بودشيبلو : « وأين بطاقتك القديمة ؟ » .. ثم أخذ يقترب بمقعده منها ، وقد مد احدى يديه ليطوق خصرها ، وعينه ترقب الباب ! .. فأجابت المرأة : « اية بطاقة قديمة ؟

.. اننى لا أحمل بطاقة البتة » . ورمقته بنظرة سريعة،ولكنها لم تفعل شيئا لتدرأ يده عن خصرها . فقال بودشيبلو مشجعا، وقد ازدادت نظراته جرأة : « اذن فقد كنت تعملين سرا دون ان تسجلى اسمك ! .. البعض يفعل هذا . على انك تريدين الآن أن تسجلى اسمك .. أليس كذلك ؟ انك على حق ، فهذا أدعى للأمن والسلامة ! »

وتلعثمت المرأة وهى تقول : « لم أفعل هذا من قبل ! » ، ونكست بصرها الى الأرض . فقال بودشيبلو وهو يهز كتفيه : « حقا ؟ كيف هذا ؟ اننى لا أكاد أفهم ! » . واذ ذاك أخذت المرأة تعلل البواعث فى لهجة رقيقة ناعمة ، دون أن ترفع عينيها عن الارض . وقالت : « انما أفكر فى الأمر ، فهذه أول مرة آتى فيها لمشاهدة المعرض » . فقال بودشيبلو : « اذن فهذا هو السبب » . ورفع يده عن خصرها ، وابتعد بمقعده عنها ، واستلقى الى الخلف ، دون ما حرج ..

وسادهما الصمت لحظة ، ثم قال بودشيبلو : « اذن فالأمر على هذا النحو ؟ ! .. آه ، انك تريدين .. آه ! .. انه اتجاه خاطىء .. وصعب .. وانت لا شك تعرفين .. ولكن كل هذا غريب جدا ، والحق اننى لا أرى كيف تحملين نفسك على سلوك هذا المسلك .. هذا اذا كان ما تقولينه صحيحا »

***

• **وكان** ـ وهو ضابط البوليس المدرب ـ يرى انها كانت صادقة . فقد بدت أكثر حشمة وتعففا من أن تكون عضوا فى تلك المهنة المعروفة .. ولم يكن يبدو على وجهها شىء من امارات المهنة التى تدمغ وجه العاهرة وأخلاقها ، مهما تكن غرة ، حديثة العهد ! .. وما لبثت أن قالت وهى تميل نحوه فى نوبة من الثقة والاطمئنان : « أقسم لك بشرفى ان ما قلته صحيح . وهل كنت أحفل بالكذب ما دمت قد قررت أن أسلك

هذا الطريق الشائن التعس ؟ .. طبعا لا ! ولكنى بحاجة الى المال ، اذ اننى ارملة .. فقد كان زوجى ربان باخرة ، وغرق عندما ذاب الثلج فى أبريل الماضى . و لى طفلان : أحدهما صبى فى التاسعة ، والثانى طفلة فى السابعة . ولست أملك شيئا من المال ، وليس لى أحد من الاقارب ، فقد كنت يتيمة عندما تزوجت . كما ان أقارب زوجى يقيمون بعيدا .. على أنهم لم يحبونى اطلاقا ، اذ أنهم موسرون وينظرون الى كأننى سائلة أستجدى . فلمن الجأ ؟ .. ان بوسعى ـ بطبيعة الحال ـ أن أعمل ، بيد أننى أحتاج الى مال أكثر مما أستطيع أن أربحه طوال عمرى بالعمل ، فان ابنى يتعلم فى معهد للتربية البدنية .. ان بوسعى ـ على ما أعتقد ـ ان أتقدم بطلب لاعفائه من نفقات الدراسة ، ولكن من الذى يلقى بالا الى مثل هذا الطلب ، وهو صادر منى .. من امرأة لاسند لها فى العالم ؟ .. ان ابنى صبى لامع الذكاء ، وكم يكون من المؤسف اخراجه من المدرسة. ثم ان ابنتى الصغيرة تحتاج أيضا الى اشياء كثيرة . أما الاعمال الشريفة ، فلا يوجد منها الكثير .. وحتى اذا وفقت لوظيفة منها ، فكم ترانى أكسب ؟ .. ولأى الأعمال أصلح ؟.. أأكون طاهية ؟ .. لو اننى أصبحت طاهية لما زاد أجرى عن خمسة روبلات فى الشهر ، وهى لا تكفينى .. أما فى تلك المهنة التى اخترتها لنفسى ، فان المرأة تستطيع ـ اذا حالفها الحظ ـ أن تكسب فى المرة الواحدة ما يكفى لاطعام أسرتها عاما بأسره ! بل لقد جنت احدى نساء بلدتنا أكثر من أربعمائة روبل فى المعرض الأخير ، واستطاعت بهذه الثروة الصغيرة أن تتزوج حارس الغابة ، وهى الآن تحيا حياة السيدات المحترمات .. انها تمضى فى الحياة هانئة ، لايعكر صفوها سوى الخزى .. عار ماضيها. ولكنى ادع لك الحكم !.. انه القدر فيما أعتقد.. هو القدر دائما ! واذا كانت هذه الفكرة قد رسخت فى ذهنى ، فلا بد أن يكون القدر أراد لى أن أسلك هذا الطريق . ان القدر

يدفعنى اليه ، فاذا أنا أصبت شيئا من المال فأنعم به وأكرم ، واذا أنا لم أخرج الا بالخزى والعار فهذا حكم القدر .. هكذا يبدو لى الامر ! »

وكان بودشيبلو يستوعب كل كلمة خرجت من شفتيها ، اذ كانت كل ملامح وجهها تتحدث اليه .. وكانت تعلو قسماتها فى أول الامر لمحات الخوف والاضطراب ،ولكنها أخذت تنقشع شيئا فشيئا ليحل محلها عزم واصرار صارمان !

وشعر معاون البوليس بكثير من الحرج ، بل وبشىء من الانفعال أيضا ، فأخذ يحدث نفسه قائلا : « لو أن امرأة كهذه وقعت على أبله لجعلته جلدا على عظم ، بل لسلخت جلده حيا ! » .. هكذا تراءت له . فما أن انتهت من حديثها ، حتى قال لها بجفاء : « اننى لآسف ، ولكننى لا أملك لك شيئا ، فاذهبى الى مدير البوليس اذ أن الذى تطلبينه من اختصاصه واختصاص القومسيون الطبى ، ولا شأن لى بموضوعك ! »

وكان تواقا الى الخلاص منها . فما أن سمعت المرأة هذا منه ، حتى نهضت لتوها ، وانحنت له انحناءة صغيرة ، ثم اتجهت ببطء الى الباب . وراقبها بودشيبلو وهى تنصرف ، وقد زم شفتيه وضاقت عيناه .. وكان هذا هو كل مايستطيع أن يفعله ليتجنب البصق خلفها !

* * *

• **والتفتت** ــ بعد أن وصلت الى البــاب ــ وسألته : « اذن ، يجب أن أذهب الى مدير البوليس ؟ ! »

ورمقته بعينيها الزرقاوين بعزم هادىء ، وقد ظهر عبر جبينها خط عميق ، فبادر بودشيبلو يجيبها قائلا : « أجل » .. فانصرفت قائلة : « وداعا ، وشكرا ! »

ووضع معاون البوليس مرفقيه على مكتبه ، وأخذ يصفر لحنا لنفسه زهاء عشر دقائق ، ثم تمتم دون أن يرفع رأسه

عن المكتب : « يا للفاجرة ! .. أطفال حقا ! وما دخل الاطفال فى هذا ؟ هه ! يا للمومس ! » .. واخلد للصمت فترة طويلة ، ثم أخذ يناجى نفسه قائلا : **« ولكن الحياة تكون هكذا أحيانا .. اذا كان ما قالته هذه المرأة صدقا . اذ أن الحيـــاة تلف الشخص حول أصبعها الصغير .. انها قد تعنف فى قسوتها على المرء ! »**

وسكن برهة ، ثم جمع كل ما كان يعتمل فى ذهنه وعبر عنه بتنهدة عميقة ، وقرقعة من أصابعه ، وصيحة من أعمــاق نفســـه لم تلبث أن خرجت مدوية من بين شفتيه : « يا للفاجرة ! »

وسأله الشرطى الذى كانت عليه النوبة ، وقد جاء الى عتبة الباب ثانية : « هل أرسلت فى طلبى ؟ » .. فانتبه اليــه قائلا : « ماذا ؟ » .. فعاد الشرطى يقول : « هل أرسـلت فى طلبى يا صاحب الفخامة؟» . فصاح بودشيبلو فيه : « اخرج!» .. وأجاب الشرطى : « سمعا وطاعة يا سـيدى » ، فغمغم بودشيبلو : « غبى ! » ، وأخذ يتطلع من النـافذة .. وكان « كوخارين » لا يزال يغط فى نومه على «الدريس» .. والظاهر أن الشرطى صاحب النوبة قد نسى أن يوقظه .

ولكن حنق معاون البوليس كان قد تلاشى ، فلم يعد يأبه للشرطى النائم ، اذ سرى الى نفسه انزعاج أخذ يمضه .. فقد ظل طيف تلك المرأة ذات العينـين الزرقاوين الهادئتـين ماثلا أمامه .. وكانت العينان تنظران اليه فى عزم واصرار ، دون أن تتحولا عنه ، مما بعث فى نفسه هما وقلقا !

ونظر الى ساعته ، ثم احكم حزامه حول وسطه ، وغادر المكتب وهو يتمتم : « أعتقـــد اننى سأقابلها يوما ، لابد من ذلك ! »

(٢)

• **ولقد** قابلها فعلا .. وكان ذلك ذات مساء ، وهو يقف فى نوبته خارج المكتب الرئيسى ، اذ لمحها على بعد نحو خمس خطوات منه . وكانت تتجه صوب الميدان ، فى مشيتها البطيئة الوئيدة ، وعيناها الزرقاوان تنظران الى الامام فى خط مستقيم ، وقد أحاط بهاشىء من السحر والفتنة .. فقد كان طولها الفارع وقوامها الرشيق ، واهتزاز ردفيها ونهديها ، وما كان فى عينيها من استسلام .. كل هذا كان خليقا بأن يأسر أى شخص .. أما الخط الغائر فى جبينهـا ، والذى كان ينم عن خنوع بالغ للقدر ، فقد أصبح أكثر عمقا وأجلى معنى مما رآه بودشيبلو من قبل .. وأفسد ذلك وجهها الروسى المستدير ، اذ أضفى عليه صرامة بالغة !

وبرم بودشيبلو شاربيه وقد راودته خيالات فيها متعة وفيها لذة،فقرر أن لايدعها تغيب عن نظره .. وانطلق وراءها وهو يوشك أن يصرخ قائلا : ((انتظرى يا أنثى التمساح !)) .. وما ان انقضت دقائق خمس حتى كان يجلس بجوارها على أريكة فى الميدان



وسألها وقد افتر ثغره عن ابتسامة : « ألا تذكرينني؟ » .. فرفعت اليه عينيها ، ونظرت اليه فى هدوء ، ثم أجابته فى لهجة غلبت عليها الذلة :

« بل أذكرك ، كيف حالك ؟ » . ولم تمد اليه يدها .. فعاد يسألها : « كيف تسير أمورك؟ .. هل حصلت على بطاقة؟» .. قالت : « هاهى » . وأخذت تبحث عن البطاقة فى جيب ثوبها بنفس الروح الخانعة ، المستسلمة ، وكان هذا مدعاة لان تساوره الحيرة والارتباك ، فقال : « لاداعى لان تطلعينى عليها ، فاننى أصدقك . ثم انه ليس من حقى .. انما أردت ان أقول .. كيف تسير أمورك ؟ » . وما أن وجه اليها هذا السؤال حتى أخذ يحدث نفسه : « وماذا يعنينى من أمرها ؟ ولماذا أدور وألف معها ؟ هلم صارحها يابودشيبلو ! »

ولكنه عجز رغم ما كان يحث به نفسه من عبارات التشجيع عن « مصارحتها » .. فقد كان فيها شيء يحول بين المرء وبين أن يراودها فى أمر معين ! .. وعادت فى تلك الاثناء تقول : «كيف تسير أمورى ؟ لا بأس ، والفضل ... » ، ثم توقفت واحمر وجهها خجلا .. فقال الشرطى : « هذا عظيم ، واهنئك ! أعتقد أن الامر صعب الى أن تألفيه . أليس كذلك ؟ »

ومالت اليه بغتة ، وقد ابيض وجهها واختلج ، واستدار فمها ، وكأنها تريد البكاء . ولكنها تراجعت فجأة كما مالت .. تراجعت وتمالكت نفسها واتخذت موقفها السابق ، وقالت : « هذا صحيح ، فسأتعود على مر الايام » .. قالت هذا فى صوت واضح جلى هادىء رصين ، ثم أخرجت منديلها وتمخطت فى صوت عال

وكان لوجودها الى جوار بودشيبلو ولحركاتها ولعينيها الزرقاوين الهادئتين الثابتتين تأثير ممض فى نفسه ، فنهض فى غمرة من الغضب ومد اليها يده دون أن ينطق حرفا . فقالت

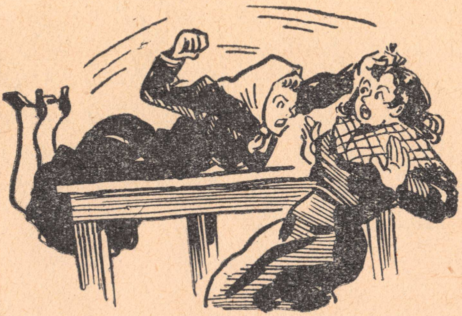
له بصوت رقيق : « الى اللقاء ! »

وأحنى رأسه ثم انصرف يوسع الخطى ، وهو يلعن نفسه لغباوته وبلاهته . وأخذ يتمتم : « انتظرى أيتها السيدة المتعالية ، سأريك يوما .. ما أن تذوقى مرة طرفا من رجولتى حتى تنزلى عن عرشك هذا المتعالى ! » .. بيد انه ادرك فى الوقت نفسه أنها لم ترتكب شيئا تستحق من أجله هذه السورة من الغضب .. وزاده هذا غيظا على غيظ !

(٣)

• **وحدث** فى أمسية من أمسيات الاسبوع التالى ، أن كان بودشيبلو يسير من حى « سراى القافلة » الى « رصيف سيبريا » ، حين طرقت أذنه أصوات سباب ، وصراخ نساء ، وأصوات أخرى قبيحة ، كانت تنبعث من نافذة حانة فى الطريق ، فتوقف منصتا .. وما عتم أن سمع صياح امرأة تستغيث « النجدة ! البوليس !» ، ووقع لكمات عنيفة ، وارتطام بعض الاجسام بقطع الاثاث ، وصوت رجل أجش طغى على كل ما عداه من الاصوات وهو يهتف : « سلمت يدك ! اضربيها مرة أخرى! فى وجهها تماما !» . فأسرع معاون البوليس يرقى الدرج ، حتى بلغ باب الحانة . وأخذ يشق طريقه الى الداخل بين جموع المحتشدين الذين تجمعوا حول الباب يشاهدون ما كان يجرى ، فوقع نظره على المنظر التالى : كانت صاحبته ذات العينين الزرقاوين منبطحة على مائدة وقد أمسكت بيسراها شعر امرأة أخرى فى حين أخذت تكيل لها بيمناها ضربات سريعة قاسية ، حتى تورم وجه تلك المرأة

وكانت عيناها الزرقاوان قد ضاقتا ، وانطبقت شفتاها لفرط ما كان يعتمل فى نفسها من قسوة وعنف ، وقد امتد خطان عميقان من ركنى فمها الى ذقنها ، وتغيرت ملامح وجهها .. وكان عهده به وجها رصينا هادئا الى حد يدعو للعجب ،



فاذا به قد أصبح حافلا بحنق الحيوان المتوحش الذى لايعرف رحمة ولا شفقة .. أصبح وجه امرأة تريد أن تعذب احدى بنات جنسها تعذيبا لا نهاية له ، وتجد اللذة والمتعة فيما تفعل !.. أما المرأة الاخرى التى كانت تتلقى الضربات ، فلم تكن تقوى على أكثر من التمتمة بصوت ضعيف ، وهى تحاول تخليص نفسها من قبضة الضاربة ، وتلوح بيديها فى الفضاء

وصعد الدم الى رأس بودشيبلو ، وتملكته رغبة جنونية فى ان ينتقم من شخص ما جزاء شىء ما ارتكبه ، فاندفع وأمسك بالمرأة التى أخرجها الغضب عن صوابها وجذبها من خصرها بعيدا .. وانقلبت المائدة ، وتهشمت الصحاف وهى تسقط على الارض ، فأرسل المتفرجون صراخا عاليا ، واختلطت صيحاتهم بالضحكات التى انطلقت من حناجرهم .

وبلغ الغضب ببودشيبلو مبلغه ، وهو يرى جموعا من الوجوه الحمراء المتجهمة تلوح أمام ناظريه ، فأمسك بالمرأة المناضلة بين ذراعيه وهمس محنقا فى أذنها : « اذن هو أنت ؟ وتثيرين عراكا وشغبا ؟ »

وكانت ضحية المرأة ذات العينين الزرقاوين قد افترشت الارض بين الصحاف المكسورة وهى تنتحب وتولول .. وتقدم

رجل صغير القامة ، خفيف الحركة ، يرتدى معطفا طويلا ، وأخذ يشرح لبودشيبلو ما حدث :

« لقد قالت تلك لهذه ياصاحب الفخامة : « أيتها العاهرة ، أيتها المومس القذرة »،فضربتها هذه بأطراف أصابعها ، فألقت عليها تلك كوبا من الشاى ، وما عتمت هذه أن أمسكت تلك من شعرها ولكمتها لكمة .. ثم كالت لها لكمات أخرى .. ان أى رجل ليحسدها على لكماتها هذه !.. ان هذه المرأة لمفتولة العضلات ! »

وزمجر بودشيبلو وهو يقول : « مفتولة العضلات .. أحقا ؟ » ، وأخذ يعصر المرأة عصرا بين ذراعيه وهو يحس برغبة عنيفة فى كبح جماح نفسه !.. وكان ثمة رجل ذو عنق أحمر وقفا عريض ـ أحناه بشكل يبعث على الضحك ـ قد أطل من النافذة وراح ينادى : « أزفوتشيك ! تعال هنا ! » .. فقال بودشيبلو للمرأتين : « هيا كلتاكما الى مركز البوليس ! كلتاكما ! انهضى أنت ! » .. ثم التفت الى الشرطى الذى أقبل اذ ذاك ، وقال : « لماذا تأخرت الى هذا الحد ؟ ألا تعرف واجبك أيها الغبى ؟ .. خذهما الى مركز البوليس وعجل ! .. خذهما معا ! »

وتقدم الشرطى « الشهم » فلكز احداهما فى ظهرها ، ثم لكز الاخرى ، وساقهما الى مركز البوليس .

وقال بودشيبلو لخادم الحانة : «كونياك وصودا..أسرع!» . وألقى بنفسه على مقعد بجانب النافذة ، وقد فاض به الشعور بالتعب وبالغضب من كل انسان وكل شىء !

* * *

• **ووقفت** أمامه المرأة فى صباح اليوم التالى هادئة رصينة، كما بدت له فى أول يوم وقع نظره عليها . وأخذت ترمقه بعينيها الزرقاوين وهى تنتظر أن يبدأها بالحديث .. وكان

بودشيبلو ثائر الاعصاب فى ذلك الصباح بوجه خاص ، اذ انه لم يكن قد نال قسطه الكافى من النوم ، فأخذ يلقى بالاوراق على مكتبه . ولكن هذا لم يساعده على أن يجد ما يقوله لها ، وأبت تلك التهم والعبارات الجارحة التى تعود أن يلقى بها فى مثل تلك المناسبة أن تخرج من فيه ، فقد كان يريد أن يقذف فى وجهها بعبارات أقوى ، تحمل فى طياتها قسوة وعنفا يؤلمان ..

ــ كيف بدأ العراك ؟ هلمى ، تكلمى !

فأجابت المرأة : « لقد أهانتنى » . فقال بودشيبلو بلهجة تنم عن السخرية : « تخيلى هذا ! يالها من جريمة ! »

ــ لم يكن هذا من حقها ، فلا وجه لمقارنتى بها !

ــ ياالهى ! ومن تظنين نفسك ؟

ــ ان الحاجة هى التى دفعتنى لسلوك هذا السبيل ، أما هى ...

ــ آه ، حقا .. انها تمارس مهنتها للمتعة واللهو .. أليس كذلك ؟

ــ هى ؟

ــ أجل ، هى ! ؟

ــ انها لا تعول أطفالا !

ــ كفى هراء أيتها السافلة ! لا تحسبى أن بوسعك أن تؤثرى على بقصة أطفالك هؤلاء . سأتركك هذه المرة .. أما اذا عدت فأثرت شغبا ، فسأمهلك أربعا وعشرين ساعة لتغادرى المدينة ، بعيدا عن المعرض . أتفهمين هذا ؟.. اطمئنى ، فاننى خبير بمن هن على شاكلتك ، وسأريك كيف تحافظين على النظام . أو تريدين أن تعبثى بالامن ؟ حسنا ، سألقنك درسا أيتها الفاجرة ! » .. وخرجت الكلمات من فيه تتتابع فى يسر وسهولة ؛ وكل منها أشد ايلاما من الاخرى ، فشحب وجه المرأة وضاقت

عيناها بالشكل الذى كانتا عليه فى الليلة السابقة ، أثناء الشجار فى الحانة

وصرخ بودشيبلو فيها يأمرها بالخروج ، وضرب المكتب – بقوة – بجماع يده . فردت عليه فى لهجة جافة تنطوى على التهديد: « فليحاسبك الله على ما تقول ! » . ثم عجلت بالخروج من المكتب . فصرخ بودشيبلو قائلا : « سأريك كيف يكون الحساب » . **فقد طاب له أن يهينها .. كان ذلك الوجه الرزين الهادىء ، والنظرات التى كانت تسددها اليه عيناها الزرقاوان الكبيرتان ، تدفعه الى الجنون .. من تراها كانت تحسب نفسها ؟.. أطفال ؟ هراء ! انها مجرد حجة تتذرع بها ، اذ ما دخل الاطفال فى الموضوع ؟.. انما هى عاهرة عادية تذرع الشوارع !.. هذه هى على حقيقتها ، جاءت الى المعرض فى طلب الثروة ، وهى تتعالى وتتعاظم فى غير ما يدعو الى التعالى والتعاظم !.. شهيدة على مذبح التضحية .. دفعت دفعا الى الطريق الذى تسلكه!.. من أجل الاطفال ؟! .. من الذى تحسب ان مثل هذا الهراء ينطلى عليه ؟ .. ان كل ما هنالك هو أنها لا تقوى على البوح بالحقيقة ، ولذلك حاولت أن تنحى باللائمة على الظروف .. تبا لها !**

(٤)

• **على أنه** كان ثمة طفلان فعلا : صبى صغير منبعج الرأس يغلبه الحياء ، يرتدى زيا رياضيا باليا ، ويربط منديلا أسود فوق أذنيه .. وفتاة صغيرة ترتدى معطفا مخططا أكبر من جسمها . وكانا يجلسان على بعض الالواح الخشبية عند رصيف ميناء (كاشين) يرتجفان من تأثير رياح الخريف ، ويتحدثان فى هدوء . وكانت أمهما تقف بجانبهما مستندة الى بعض بالات القطن ، ترنو اليهما بعينين زرقاوين تفيضان بكل معانى الحب ..

وكان الصبى الصغير يشبهها تماما .. فقد كانت عيناه هو الآخر زرقاوين ، وكثيرا ما كان يلف قبعته ـ التى انكسرت حافتها ـ حول رأسه ، ويرفع عينيه لامه ويقول لها شيئا . أما الفتاة الصغيرة فقد ترك الجدرى آثارا على وجهها . وكان لها أنف صغير مستقيم ، وعينان عسليتان واسعتان تفيضان حيوية وذكاء .. وكانت اللفافات والطرود تتناثر حول الطفلين على ألواح الخشب .

كان ذلك فى أواخر شهر سبتمبر .. وكان المطر قد ظل ينهمر طول اليوم ، فتحولت ضفة النهر الى أرض موحلة ، وأخذت الرياح الباردة الرطبة فى الهبوب ، وهاج نهر (الفولجا) فراحت أمواجه الصاخبة تتكسر على الشاطىء ،حتى شاع فى الجو ـ من تكسرها ـ هدير منتظم . وكان الناس من كافة الطبقات يغدون ويروحون ، وقد علا وجوههم القلق والاضطراب ، وأخذوا يسرعون فى طريقهم . وكانت هذه الجماعة الهادئة المؤلفة من الام وطفليها تستوقف النظر .. ولم يكن يسع المشاهد الا أن يقارن بين هذا الهدوء الذى خيم عليهم ، وبين ضجيج النهر الذى كانوا يقفون على شاطئه !

ولقد استوقف هذا المشهد نظر معاون البوليس بودشيبلو ، فبقى بعيدا عنهم ، يرقب ثلاثتهم مراقبة دقيقة ، وكأنه يحصى عليهم حركاتهم وسكناتهم .. وشعر بالخجل من موقفه دون أن يدرى لذلك سببا معينا !

وكان من المقرر أن تقلع باخرة (كاشين) من هذا الرصيف بعد نصف ساعة ، ميممة شطر أعالى النهر ، فأخذ الناس يروحون ويجيئون على الرصيف .. وانحنت ذات العينين الزرقاوين ، ثم استقامت وحملت فوق كتفيها وتحت ابطها الحقائب واللفافات ، وهبطت الدرج وراء طفليها اللذين سارا أمامها متشابكى الايدى ، وقد حملا على كتفيهما نصيبهما من اللفافات والطرود .

وجد بودشيبلو نفسه مكرها على النزول الى الرصيف هو الآخر . وكان بوده أن لا يفعل ، بيد أنه لم يقو على صد نفسه . وما لبث ان وجد نفسه على مسافة قريبة من شباك التذاكر ، فاذا المراة تشترى التذاكر لطفليها ، وقد أمسكت بكيس بنى ضخم انتفخت جوانبه ، وبرزت منه لفـــافة من أوراق نقدية ..

وسمعها تقول : « أريد .. أقصـد ، هاك الامر : أريد ان يسافر الطفلان فى الدرجة الثانية الى كوستروما ، وسأسافر أنا فى الدرجة الثالثة . ولكن هل يمكن أن يسافرا بتـذكرة واحدة من فضلك ؟ كلا ؟.. ستعاملهما معاملة استثنائية ؟.. شكرا جزيلا ، وليباركك الله ! »

وغادرت شباك التذاكر ووجهها مشرق ، فتدافع حولها الطفلان ، وهما يشدان ثوبها طالبين شيئا ما ، فأنصتت اليهما، والابتسامة لا تفارق شفتيها . وهتفت : « ياالهى !.. لقـد وعدتكما بأن أشتريه لكما .. ألم أعدكما بذلك ؟.. وهل أنكر عليكما شيئا ؟ سأشترى لكل منكما هديتين ؟ .. حسـنا ! انتظرانى هنا ! »

ثم توجهت الى أحد الحوانيت الخشبية المتنـاثرة على الرصيف ، حيث تباع الفاكهة والحلوى ، وما عتمت أن عادت الى طفليها قائلة : « اليك بعض الصابون الذكى الرائحة يافاريا، شميه ! .. واليك يا بتيا مبراة . هأنتذا ترى اننى لم أنس .. واليكما دستة كاملة من البرتقال . ولكن ، لا تأكلاه كله فورا!»

واقتربت الباخرة من الرصيف ، فاحتكت به وهزته ، فاختل توازن بعض الناس وانطرحوا أرضـا . ومدت المراة يديها فى لهفة تضم طفليها الى صدرها ، ثم أخذت تتطلع حولها فى جزع ، فلما لم تجد سببا لانزعاجها ، ضـحكت فضحك معها طفلاها . ومدت البـاخرة المعبرة الى الرصيف ، فأخذ الركاب يتدفقون اليها . واذ ذاك صرخ بودشيبلو فى الجمهور

قائلا : « تمهلوا ! لا تتدافعوا ! » .. ثم زجر نجارا كان يحمل مطارقه ومناشيره ومثاقبه وما اليها من أدوات ، قائلا : « انت أيها الغبى ! لعنة الله عليك ! افسح للسيدة وطفليها ! يالك من بليد ! »

ونطق بالعبارات الاخيرة فى لهجة أكثر رقة ، اذ رأى صاحبته ذات العينين الزرقاوين تبتسم له وهى مارة به ، وتنحنى محيية عندما وصلت الى الباخرة !

وأطلقت الباخرة صفيرها لثالث مرة . وأصدر القبطان امرا برفع المرساة ، فأخذت الباخرة تهتز ، ثم بدأت تتحرك .

وأجال بودشيبلو عينيه باحثا عن صاحبته بين الركاب الذين كانوا على ظهر الباخرة ، فلما وقع نظره عليها رفع قبعته وانحنى احتراما . فأجابته بانحناءة روسية صغيرة ورسمت اشارة الصليب ..

وهكذا عادت هى وطفلاها الى (كوستروما)

وما أن ودعهم بودشيبلو ــ معاون البوليس ــ حتى تنهد من أعماق نفسه ، وعاد الى مكتبه ، وقد غلبه الحزن والكآبة !

رجل ضائع !



KONOVALOV

• **بينما** كنت ارسل البصر خلال الصحيفة ، وقعت عيناى على اسم « كونو فالوف » ، فاذا به يستولى توا على انتباهى ، وهذا نص ما قرأت :

« حدث فى الليلة الماضية ، أن رجلا من (مروم) فى الاربعين من عمره ، يدعى «الكسندر ايفانوفيتش كونوفالوف» شنق نفسه فى الزنزانة رقم ٣ بالسجن المحلى ، بحبل تدلى من مقبض لولب المدخنة . وكان المنتحر قد اعتقل فى (بسكوف) ، حيث كان يهيم متشردا ، وأعيد الى هذه المدينة ـ موطنه الاصلى ـ وقد أكدت سلطات السجن انه كان هادئا ، وديعا ، مسالما ، دائم التفكير . ويعزى انتحاره ، وفقا لتقرير طبيب السجن ، الى مرض « الملانخوليا » .. أى « الاكتئاب السوداوى » !

وشعرت ـ وانا أقرأ هذا النبأ المقتضب ـ أن بوسعى أن ألقى مزيدا من الاضواء على الاسباب التى كانت خليقة بأن تغرى هذا الرجل الهادىء ، المفكر ، على أن يعجل بنهاية حياته! فقد كنت أعرفه .. ولعله كان واجبا على أن أفضى بما عندى ، اذ كان رجلا رائعا ، لا يلتقى المرء بكثيرين مثله فى هذه الدنيا !

***

• **كنت** فى الثامنة عشرة عندما تعرفت الى «كونو فالوف» . وكنت فى ذلك الوقت أعمل كمساعد للخباز فى أحد المخابز . وكان الخباز جنديا مسرحا من « كتيبة الموسيقى » ، بدينا ، سكيرا ، كثيرا ما أتلف العجين !.. وكان اذا ثمل عزف بشفتيه ألحانا ، أو وقعها بأصابعه على أى شىء يجده فى متناوله . فاذا ثار عليه صاحب المخبز لاتلافه الخبز أو عدم اعداده قبل الصباح ، هاج حنقه .. فكان يسب صاحب المخبز فى وجهه ،

ويحاول أن يجعله يتبين أنه انما يتحدث الى رجل فنـــان (موسيقى) ! وكان يصيح وشاربه الاحمر الطويل ينتصب فى الهواء وشفتاه الرطبتان السميكتان تصطفقان بصوت عال : « أتلفت العجين !.. أحرقت الخبز !.. لم انضجه جيدا !.. الى الجحيم أيها الضبع الاحول ! أو تظن أننى خلقت لمثل هذا العمل ؟.. الى الجحيم أنت وعملك ! اننى موسيقى ، وخليق بى أن اعرفك مقامى .. كنت اذا أسرف عازف « الفيـولا » (الكمان الاوسط) فى الشراب ، توليت العزف على « الفيولا » بدلا منه .. واذا ألقى القبض على عازف المزمار ، عزفت على المزمار .. واذا مرض عازف « الكورنيت » فمن تراه كان يحل محله ؟ .. أنا ! تم ـ تارا ـ تم ـ تم ! واه لك أيها التعس !.. اننى راحل عن مخبزك ! »

وكان صاحب المخبز رجلا منتفخ البطن ، مترهـلا ، ذا ساقين قصيرتين سمينتين ، ووجه نسوى ، وعينين متقلبتى اللون .. وكان يدق الارض بقدمه ، فيهتز بطنه ، وهو يصرخ: « أيها اللص ! .. أيها القاتل ! .. أيها الغادر .. يا يهوذا .. بائع المسيح ! » ، ثم يرفع يديه فوق رأســه وقد انفرجت أصابعهما الضخمة القصيرة ، ويمضى فى الصراخ بصوت أكثر ارتفاعا : « وماذا يكون من أمرك اذا أسلمتك الى الشرطة بوصفك متمردا ؟ » .. فيصرخ فيه الجندى السابق قائلا : « أتسلمنى للشرطة وأنا خادم القيصر والبلاد ؟ » .. ثم يتقدم نحو صاحب المخبز فى بطء ، وهو يضم قبضتيه ، فيتراجع صاحب المخبز ، ويروح يتجشأ ويبصق فى سورة الغضب .. وما كان يملك أن يفعل غير ذلك ، اذ أن الخبازين المهرة ما كانوا ليقيموا فى تلك المدينة من مدن حوض نهر (الفولجا) ، فى فصل الصيف .

وكانت أمثال هذه المشاجرات تحدث فى كل يوم تقريبا ، اذ كان الجندى يثمل ، ويتلف العجين ، ويعزف « المارشات »

العسكرية والالحان الراقصـــــة .. أو « النمر » ، كما كان يدعوها !.. وكان صاحب المخبز يصر على أسنانه ، بينما كنت أضطر ـ من ناحيتي ـ الى أن أقوم بعمل الاثنين !.. ولهـذا كنت جد مغتبط عندما وقع الشجار التالى بين صاحب المخبز والجندى . فقد قال الاول ـ وهو يدخل المخبز مشرق الوجه، تلوح فى عينيه نظرة الظفر : « حسنا أيها الجندى .. حسنـا أيها الجندى ، ضم شفتيك واعزف لنا لحنا عســـكريا ! » . فتساءل الجندى فى تحفز وهو مستلق على المعجن ، مخمورا كالعادة : «ماهذا ؟ » . فقال المخدوم منتشيا : **« استعد للقيام برحلة ! »**

وقال الجندى وهو يدلى ساقيه من فوق حافة مجلسه ، وقد اشتم وراء الامر شيئا : « الى أين ؟ »

ـ اينما تشاء !

فصرخ قائلا : « ماالذى تعنيه ؟ »

ـ اعنى أننى لن استبقيك بعد الآن .. خذ أجرك ، و.. الى الامام سر ! الى أركان الارض الاربعة !

واذا الجندى الذى اعتاد أن يتواقح على مخدومه ـ لانه كان واثقا من أنه لن يستغنى عنه ! ـ يفيق عند هذا القول .. فقد كان يدرك تمام الادراك أن من العسير على امرىء ليس له من المعرفة بالحرفة سوى القدر اليسير الذى أوتيه هو ، أن يجد عملا آخر .. ومن ثم قال فى قلق وهو يحاول أن يستوى على قدميه : « دعك من المزاح ! »

ـ هيا ، سر .. امش !

ـ أمشى ؟ !

ـ اخرج !

فقال الجندى وهو يهز راسه متحسرا : « انك استنفدت

حاجتك منى ، هه ؟.. امتصصت دمى .. جعلتنى حطاما ناشفا ، والآن تريد أن ترمينى ؟.. عيب عليك أيها العنكبوت!» .. فصاح صاحب المخبز مهتاجا : « أ أنا عنكبوت ؟ » .. فقال الجندى مؤكدا : « أجل .. انك عنكبوت مصاص للدماء .. هكذا أنت ! » .. وسار مترنحا الى الباب ، فأرسل صاحب المخبز ضحكة بغيضة وهو يرقبه أثناء انصرافه . وتبدى بريق مبتهج فى عينيه ، ثم قال فى أعقابه : « حاول أن تعثر على امرىء يستأجرك بعد اليوم !.. لن يقبلك أحد ، ولو بغير أجر ، بعد الذى قلته لهم عنك .. لا أحد سيقبلك ! »

* * *

• وسألته : « هل وجدت خبازا جديدا ؟ »

ــ انه خباز قديم ، وكان مساعدى يوما .. وياله من رجل !.. انه يساوى وزنه ذهبا .. ولكنه سكير هو الآخر ! على أنه لا يثمل الا فى أوقات ينتابه فيها الخبل .. فهو يعمل كالثور لثلاثة أشهر أو أربعة ، لايحفل بنوم أو براحة أو بأجر.. يكفيه أن يعمل وأن يغنى ، فاذا غنى نفذ غناؤه الى قلبك مباشرة .. واذا شبع من الغناء ، أقبل على الشراب !

وتنهد صاحب العمل ، ثم لوح بيده فى يأس ، وقال : **« ولن توقفه الخيول الجامحة اذا ما شرع فى احتساء الخمر ، فيظل يشرب حتى يسقط سقيما أو يتعرى من ثيابه .. واذ ذاك يتسلل هاربا ، كروح شريرة مسها عبير البخور ! ولعل السبب فى ذلك أنه يشعر بالخزى والاستحياء .. ولكن ، هاهو** ذا .. هل استقر رأيك على المجىء نهائيا ياساشا ؟ »

فانبعث عند المدخل صوت عميق ، غنى النبرات : « نهائيا ! »

وهناك ــ عند الباب ــ وقف رجل فى نحو الثلاثين من عمره ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، وقد اعتمد بكتفه الى

حافة الباب . وكانت ثيابه تدل على أنه جواب آفاق ، بينما كان وجهه ينم على أنه سلافى قح !.. وكان يرتدى قميصا أحمر رخيصا ، مهلهلا ، بلغ من الاتساخ درجة لا يتصورها العقل .. وسروالا - بنطلون - من تيل خشن . وكانت احدى قدميه فى بقايا خف من المطاط ، بينما كانت قدمه الاخرى فى حذاء جلدى ممزق . وكان شعره الاشقر مهوشا وقد علقت



به أعواد من القش ، كما علقت أعواد أخرى بلحيته الصفراء التى تدلت على صدره منتشرة كالمروحة!.. وفى وجهه الشاحب، الطويل نوعا ، الذى ارتسمت عليه معالم الكد والنصب ، كانت تومض عينان واسعتان زرقاوان بنظرات تفيض رقة ولطفا .. أما شفتاه - وكانتا رقيقتين مجردتين من أى لون - فقد راحتا تبتسمان ، تحت شاربين أصفرين .. وكانت ابتسامته تكاد تنطق فى اعتذار قائلة : « اننى كما ترانى ، فلا تقس فى الحكم على ! »

وقال صاحب المخبز : « ادخل ياساشا، هذاهو مساعدك »، وأخذ يفرك يديه وهو يتطلع فى اعجاب الى ما للخباز الجديد

من بنيان قوى ، بينما تقدم هذا دون أن ينبس ببنت شفة ، فبسط يدا ضخمة .. وتبادلنا التحيات ، ثم جلس على أريكة خشبية ومد ساقيه ، وحدق فى قدميه ، ثم قال لصاحب المخبز : « **اشتر لى قميصين يافاسيلى سيمونوفيتش ، وحذاءين ، وبعض القماش لاصنع طاقية !** »

ـ لسوف تنال كل شيء ، فلا تشغلن بالك . ان لدى طواقى ، كما أننى سأحضر لك أقمصة وسراويل فى هذا المساء. وعليك ـ فى الوقت ذاته ـ أن تشرع فى العمل ، وانى لاعرف أى رجل ماهر أنت ، كما أنك لن تجد منى مايدعو للشكوى . **ان أحدا لا يقوى على الاساءة الى كونوفالوف ، لان كونوفالوف لايسيء قط الى أحد . ولقد أوتيت فى صدرى قلبا رحيما ، رغم أننى مخدومك ، اذ كنت أنا الآخر أجيرا يوما ، وأنى لاعرف أن المعاملة الخشنة تستدر الدموع !..** حسنا ، تعاونا معا أيها الرجلين ، ولسوف أترككما الآن .

وغادرنا ، فجلس « كونوفالوف » فى مكانه صامتا ، يجيل البصر فيما حوله وعلى شفتيه ابتسامة . وكان المخبز يقع فى الطابق الاسفل من احدى البنايات ، ذا سقف مقوس ، وثلاث نوافذ منخفضة عن مستوى الطريق ، ومن ثم كان الضوء والهواء فيه قليلين ، كما كانت القذارة والرطوبة وغبار الدقيق موفورة ! .. وكان ثمة معاجن ثلاثة لصق الجدار ، أحدها فارغ، والآخر اشتمل على عجين حديث التجهيز . أما الثالث ، فكان به العجين المخمر . وكان ثمة شعاع من الضوء الباهت يتسرب من احدى النوافذ ويلقى طرفا منه على سطح كل معجن . وعلى الارض القذرة ، تراكمت أكياس الدقيق الى جوار موقد شغل حوالى ثلث المكان ، وقد أخذت كتل كبيرة من الخشب تتقد فيه بشدة ، فراح وهج ألسنة اللهب ينعكس على الجدران القاتمة ، موحيا الى المرء بأن الجدران الصماء كانت تتكلم بلغة صامتة !

وكان السقف المنحنى فوقنا يبعث الانقباض فى النفس ، كما كان امتزاج ما يصل الينا من نور النهار بوهج نار الموقد ينتج ضوءاً غريبا ، مائعا ، يتعب البصر . وخلال النوافذ ، كان الغبار وضجيج الطريق ينسابان الينا فى تيار لاينقطع !

* * *

. وما أن أحاط كونوفالوف بكل هذا المنظر ، حتى أرسل زفرة مثقلة ، ثم قال بصوت لا يعبر عن أى شعور معين : « هل عملت هنا طويلا ؟ » . فلما رددت ، عدنا الى الصمت ، وراح كل منا يحملق فى الآخر خلسة ..

وقال أخيرا : « ياله من سجن !.. هلا خرجنا لنجلس على الاريكة الخشبية المجاورة للباب ؟ » .. واذ خرجنا ، قال وكأنه يستأنف كلامه : « هنا يستطيع المرء أن يتنفس .. لسوف أحتاج الى وقت ريثما أتعود هذا الجحر ، فقد جئت لتوى من البحر ، كما تستطيع أن ترى .. كنت أعمل فى بحر قزوين ، فتصور شعورك لو كنت مثلى ووجدت نفسك فجأة تدفن فى جحر فى جوف الارض ! »

ورمانى بابتسامة سمجة ، وكف عن الكلام ، منصرفا الى التحديق فى المارة بين مشاة وراكبين ، وقد بدا فى عينيه الزرقاوين وميض حزين . ثم أقبل المساء ، فاشتد الضجيج والزحام والغبار فى الطريق ، وأخذت ظلال الدور تزحف مستطيلة . وظل كونوفالوف جالسا فى مكانه وقد ارتكن الى الحائط ، وعقد ذراعيه على صدره ، بينما امتدت أصابعه تعبث بلحيته الناعمة . واختلست نظرة الى الوجه البيضاوى ، الشاحب ، وقلت لنفسى : « ترى أى صنف من الرجال هو ؟ » .. بيد أننى لم أجسر على التحدث اليه لانه كان رئيسى ، ولانه أوحى الى ـ بتصرفاته ـ بان احترمه !

وكانت التجاعيد ترسم على جبينه ثلاثة خطوط افقية ، أخذت تتلاشى وتعود بين وقت وآخر ، فعجبت مما كان يساوره

من أفكار . وما لبث أن قال : « هيا ، لقـــد حان الوقت .. اخلط الدقيق للدفعة الثانية ، بينما أعد أنا الثالثة » .. وبعد أن فرغنا من وزن العجين ، ومن خلط الدقيق لدفعة أخرى ، جلسنا لنتناول كوبا من الشاى . واذ ذاك دس كونوفالوف يده فى قميصه ، وقال لى : « هل تستطيع القراءة ؟ .. هاك هذه فاقرأها على » . وقدم لى وريقة متسخة ، مجعدة ، فقرأت عليه ما كان بها :

« عزيزى ساشا : تحيات وقبلة بالبريد . اننى وحيدة ، وشقية ، وليس بوسعى أن أنتظر حتى يحين اليوم الذى أرحل فيه معك ، أو أبدأ فيه حياة جديدة معك . اننى مريضة ، وقد سئمت هذه الحياة التافهة ، رغم أننى كنت أحبهـــا فى البداية . وانك لتـــدرك السبب ، كما شرعت أنا الاخرى فى ادراكه بعد أن التقيت بك . أرجو أن تكتب الى فى القـــريب ، فانى جد مشوقة الى سماع أنبائك . مع السلامة مؤقتا ، ولكنه ليس وداعا ، ياحبيب قلبى الملتحى . لن أؤنبك ، وان كنت مستاءة منك أيها الخنزير ! لقد رحلت دون أن تحفل بتوديعى ، ولكننى أقر بأننى كنت سعيدة معك كما لم أكن مع أى شخص آخر ، ولن يقدر لى أن أنساك مطلقا .. **ألا تستطيع أن تدفع كفالة عنى ياساشا ؟ .. لقد أنبأتك الفتيات بأننى قد أنبـذك بعد أن تدفع الكفالة ويمحى اسمى من القائمة ، ولكن هـــذا محض هراء وأكذوبة . ولو استطعت أن تترفق بى ، لصرت ـ بمجرد محو اسمى من القائمة ـ أوفى لك من الكلب . أن محو أسمى من القائمة ميسور لك ، ولكنه عسير على .** لقد بكيت حين جئت لتزورنى ، لأننى وجدت من المحتوم على أن أعيش حيـــاة كتلك التى رأيتنى فيها ، وان كنت لم أنبئك بالسبب

« ولك السلامة ـ حبيبتك كابيتولينا »

واسترد كونوفالوف الرسالة منى ، وشرع يعبث بهـــا فى احدى قبضتيه ، بينما أخذ يبرم شعر لحيته باليد الاخرى ،

وهو شارد الذهن ، ثم سألنى : « هل تعرف الكتابة ؟ » . فقلت « أجل » .

ـ وهل لديك مداد ؟

ـ أجل ، عندى .

ـ اذن فاكتب لها رسالة .. من المحتمل أنها تظننى مخادعا ، وأننى نسيت كل شيء عنها . فهلا كتبت اليها ؟

ـ سأكتب .. ولكن ، من هى ؟

ـ مومس !.. ألا ترى أنها تسألنى أن أعمل على محو اسمها من القائمة ؟!.. ان هذا معناه أن أتعهد للبوليس بأن أتزوجها ، واذ ذاك يردون لها جواز السفر ، ويرفعون البطاقة الخاصة بها من سجل المومسات ، وبذلك تصبح حرة .. هل فهمت ؟

* * *

• ولم يمض نصف ساعة ، حتى كنت قد أعددت خطابا مؤثرا ، فقال كونوفالوف وهو نافد الصبر : « هيا اقرأ .. ترى كيف جعلت وقعه ؟ » .. فقرأته ، وكان هذا نصه :

« عزيزتى كابا : لا تظنى أننى من الضعة بحيث أنسى كل شيء عنك . لم أنس ، ولكننى أصبت بنوبة خبال ، فرحت أشرب الخمر بكل ما كنت أملك . على أننى حصلت على عمل جديد ، وسأطلب غدا مبلغا من أجرى مقدما أبعث به الى فيليب ، وسيتكفل هو برفع اسمك من السجل ، كما سأرسل ما يكفى لنفقات حضورك الى هنا ، فالى الملتقى .. المخلص ـ الكسندر » .

وقال كونوفالوف وهو يحك رأسه : « هـ ـ م ـ م .. لست كاتبا مبدعا ، فان خطابك لا يتضمن مشاعر ، ولا دموعا ، ثم أننى سألتك أن تقسو على فى الخطاب فلم تفعل » . فسألته : « ولماذا ؟ »

ـ لتشعرها بأننى أخجل من نفسى ، وبأنى أدرك مدى اساءتى معاملتها !.. هذاهوالسبب ، وانهلواضحكلالوضوح. أذرف دمعة أو دمعتين !

ولم يكن لى من حيلة سوى أن أذرف دمعة أو اثنتين ، وقد أبدعت فى ذلك ، فارتاح كونوفالوف ، ووضع يده على كتفى ، وقال متحمسا :

« الآن تحسنت الامور كلها .. شكرا .. اننى لارى أنك من أصل طيب ، ولن نلبث أن نسير معا فى وئام ! » . ولم يكن يخالجنى أى شك فى ذلك ، فسألته أن يحدثنى عن « كابيتولينا » ، واذ ذاك قال :

ـ كابيتولينا ؟.. انها شابة .. فتاة صغيرة ، من (فياتكا) .. ابنةتاجر . تحولت عن الصراط المستقيم ، الضيق ، وأخذت كلما أوغلت فى سيرها تزداد انغماسا فى السوء ، حتى انتهى بها المطاف الى ماخور . وعندما رأيتها لاول مرة ، ظننت .. ياالهى ! كيف حدث ذلك ؟.. انها مجرد صبية صغيرة !.. وتوطدت بيننا الصداقة ، فكانت تبكى ، وكنت أقول : « لاتبتئسى ، واصبرى ، فلن ألبث أن أنتشلك من هنا .. ليس عليك سوى أن تصبرى بعض الوقت » .. واستطعت أن أعد كل شيء .. النقود ، وكل شيء . ثم انتابنى الخبل فجأة ، فلم أفق الا وأنا فى (استراخان) . ثم وجدتنى هنا .. وأنبأها شخص بمكانى ، فكتبت لى ذلك الخطاب .

ـ وما الذى تنتوى عمله .. هل ستتزوجها ؟

ـ أأتزوج أنا ؟.. كيف لسكير أن يتزوج ؟.. آه ، لا ! كل ماهنالك أننى ساعمل على اقصاء اسمها عن سجل البغايا ، فتصبح حرة لتذهب أينما تشاء .. ولسوف تعثر على مكان يليق بها ، وربما تحولت الى امرأة طيبة !

ـ ولكنها تريد أن تعيش معك .

ـ انها مجرد مجاملة .. كل النساء هكذا ، فأنا أعرفهن

كل المعرفة ، اذ اتصلت بكثيرات منهن !.. بل لقد كنت على صلة يوما بزوجة تاجر ، وكنت سائسا للخيل فى « سيرك » حين وقع بصرها على ، فقالت : «تعال ، وكن حوذيا عندنا!» . وكنت قد سئمت « السيرك » ، فذهبت اليها ، وما لبثت كل خطوة أن أسلمتنا الى مابعدها . وكانت للاسرة دار كبيرة ، وخيل وخدم وما الى ذلك .. كانوا يعيشون كاللوردات .. وكان زوجها قصيرا ، بدينا كمخدومنا ، بينما كانت هى نحيفة، رشيقة ، لدنة كالقط ، ودافئة .. وكانت تعانقنى فى شدة ، وتطبع القبلات على فمى ، فأحس لقبلاتها كى الفحم المتقد ، مما كان يجعل كيانى كله يرتجف ! . . بل اننى كنت أخاف هذه المرأة .. **كانت أنفاسها تتهدج ـ وهى تقبلنى ـ بشدة تهز كتفيها هزا ، فأقول لها : « ماذا بك يافيرا ؟ » ، فتقول : «انك كالطفل ياساشا ، لاتفقه شيئا !».. كانت امرأةرقيقة ، عذبة ، وكانت على حق فيما اعتادت أن تقول ، اذ اننى لم أكن فى الواقع أفقه شيئا !..** اننى غبى ، واننى لاعترف بذلك !.. فأنا لا أدرى السر فى أى تصرف أقدم عليه ، ولم أعتد أن أحفل مطلقا بالطريقة التى أعيش بها !

وتوقف عن الكلام ليحدق فى بعينين مفتوحتين عن آخرهما ، وقد افعمتا ببريق جمع بين الخوف والحيرة .. كان يساوره شيء من الذعر ، أبرز الأسى الذى كان يسيطر على وجهه ، وزاده ملاحة . واذ ذاك سألته : « وكيف انتهت علاقتك بزوجة التاجر ؟ »

ـ اننى أشعر من وقت الى آخر بتعاسة طاغية ، فلا أطيق المضى فيما أكون فيه من معيشة ، اذ أحس كأننى الشخص الوحيد فى الدنيا على سعتها ، وكأنما الأرض لا تحمل مخلوقا حيا سواى ! .. وفى مثل تلك الفترات ، أكره كل انسان .. أكره نفسى وكل امرىء آخر ، فلا أحفل مطلقا لو أن كل مخلوق مات ! .. انه ولابد مرض متغلغل فى نفسى ، وهوالذى

يدفعنى الى الاقبال على الشراب .. ومن ثم ذهبت الى المراة وقلت لها : « دعينى أرحل يا فيرا ميخايلوفنا ، فاننى لم أعد احتمل ! » ، فسألتنى وهى تطلق ضحكة كئيبة : « لماذا ؟ .. هل مللتنى ؟ » .. قلت : « اننى لم أسأمك انت ، وانما سئمت نفسى ! » .. ولم تفقه قولى فى بداية الامر ، فشرعت تصرخ وتؤنبنى . ولـكنها حين فهمت ، اكتفت بأن أطرقت برأسها وقالت : « اذن ، فاذهب ! » .. ثم انخرطت فى البكاء . وكانت ذات عينين سوداوين ، وشعر مجعد ، اسود كذلك ، وقد انحدرت من أسرة كان أفرادها موظفين وليسوا تجارا . وأسفت من أجلها ، وحقدت على نفسى . كان من العسير عليها ـ بطبيعة الحال ـ أن تعيش مع زوج كهذا ، يشبه كيس الدقيق !

وسكت قليلا ، ثم استطرد قائلا : « وبكت فيرا طويلا ، اذ كانت قد ألفتنى واعتادت معاشرتى فى تلك الاثناء ، وكنت جد رفيق بها .. **كنت احتضنها أحيانا واروح أهدهدها كما لو كانت طفلة ، فلا تلبث أن تنام ، واذ ذاك أجلس وأستغرق فى تأملها .. وما أبدع ما يبدو المرء وهو نائم .. انه يلوح جد وديع ، ساذج .. يتنفس ويبتسم فحسب !** .. وكنا نخرج أحيانا للنزهة فى العربة ، حين كنا نقيم فى الريف أثناء الصيف ، فكانت تستمرىء أن أطلق العنان للجواد حتى تمرق العربة كالريح .. فاذا بلغنا الغابات ، ربطنا الجواد الى شجرة ، ورقدنا على الحشائش الرطبة . وكانت تسألنى أن أضع رأسى فى حجرها ، وتمضى فى القراءة لى ، بينما أمضى فى الاصغاء حتى يغلبنى النعاس .. وما كان أبدع القصص التى اعتادت أن تقرأها لى ! .. ولن أنسى واحدة منها كانت تدور حول أبكم يدعى « جيراسيم » وكلبه : كان هذا الأبكم منبوذا ، لا يحظى بالحب الا من كلبه ، فكان اذا أوسعه الناس هزءا ، انطلق يبحث عن كلبه هذا .. يالها من قصة محزنة ! ..

وكان ذلك الـ « جيراسيم » من رقيق الارض ، فقالت له مولاته يوما : « اذهب فاغرق كلبك يا جيراسيم لأنه دائم العواء ! » .. وانطلق فاستقل قاربا وضع كلبه فيه ، وراح يجذف .. »

وارتجف كونوفالوف ، ثم استأنف الحديث قائلا : « لقد اعتدت أن أرتعد كلما بلغت هذا الحد من القصة . يالله ! .. تصور اكراه رجل على قتل حيوان هو المصدر الوحيد لسعادته ! .. اى شطط هذا ! .. ما أروعها من قصة ، وما أقربها الى الحياة الواقعية .. وهذا ما جعلها رائعة ! .. ففى الدنيا أناس على هذه الشاكلة ، يجدون دنياهم بأسرها فى شىء معين ! .. خذ ذلك الكلب مثلا ، لماذا تعلق جيراسيم بالكلب ؟ .. لأن أحدا لم يشأ أن يحبه ، ولكن الكلب أحبه .. **والانسان لا يستطيع أن يحيا بلا حب ، من اى نوع .. والا ، فلماذا أوتى قلبا ينبض بالحب ؟ ..** لقد كانت فيرا تقرأ لى كثيرا من القصص .. ما كان أحلاها من امرأة صغيرة ! اننى ما أزال أشعر بالأسف من أجلها . ولولا اننى ولدت فى ظل كوكب منحوس ، ما تركتها قبل أن تطلب هى بنفسها أن أفارقها ، أو حتى يكشف زوجها أمرنا ! .. كانت نفسا تفيض بالحب ، وهذا أهم ما كانت تمتاز به .. ولم تكن جمائلها هى التى تنم عن حبها ، وانما كان قلبها ذاته يدين فى سويدائه بالحب ! .. كانت تقبلنى وتفعل معى ماتفعله كل النساء الأخريات ، ولكنها كانت أحيانا تتعرض لنوبة من الهدوء الشامل ، فما كان أروع حسنها اذ ذاك ! .. كانت تنفذ ببصرها الى أعماق نفسى ، وتحدثنى بلهجة الام ، فأشعر بأننى أعود طفلا فى الخامسة من عمرى . ومع ذلك ، فقد هجرتها . ما أتعسنى ! .. كان الشقاء يجرنى بعيدا عنها .. ومن ثم قلت لها : « وداعا يا فيرا ميخايلوفنا ، واغفرى لى » .. فقالت : « وداعا يا ساشا » . ثم ، **رفعت المجنونة كم**

قميصى عن ذراعى ، وأنشبت أسنانها فى لحمى،فكدت أصرخ. بل انها أوشكت أن تقتطع من لحمى .. لقد استغرق الجرح ثلاثة أسابيع كى يبرأ ، ولا أزال أحمل آثاره ! »

وكشف عن ذراعه المفتولة العضلات ، فاذا بها ناصعة البياض ، متناسقة الشكل ، وعرضها على فى ابتسامة حزينة ، رقيقة .. وكانت الندبة واضحةعلى مقربة من المرفق .. نصفا دائرة تكاد أطرافهما تقترب ! .. وهز كونوفالوف رأسه وهو يتأمل الندبة مبتسما ، ثم قال : « يا للمجنونة ! .. هذه هى الهدية التى منحتنيها لأذكرها بها ! »

* * *

• **وكنت** قد سمعت ـ من قبل ـ قصصا من هذا القبيل ، فان كل أفاق تقريبا لا يتورع عن أن يروى لك شيئا عن « زوجة تاجر » أو « سيدة من الطبقة العليا » كانت له مغامرة معها . ولقد اتخذت « السيدة الراقية » أو « زوجة التاجر » من الأشكال ـ فى القصص التى لا حصر لها ـ ما جعلها تصبح شخصية خرافية لدى جميع المشردين ، تتضمن أكثر الخلال البدنية والنفسية المتناقضة . فاذا كانت اليوم مرحة ، سريعة التقلب ، زرقاء العينين ، فانها لا تلبث أن تغدو فى الاسبوع المقبل رقيقة ، عاطفية ، سوداء العينين .. وتروى القصة فى تواقح ، وتحشى بتفصيلات لا حصر لها ، ولا هدف لها سوى اهانة المرأة !

غير اننى تبينت نبرة صدق فى رواية كونوفالوف التى اشتملت على عناصر لم أسمع بها من قبل مطلقا ، كقراءة الكتب ، وكتشبيهه نفسه ـ وهو الرجل القوى ـ بالطفل !..
وتصورت تلك المرأة النحيلة وهى مستلقية فى أحضانه وقد اسندت رأسها الى صدره .. وكان ثمة جمال فى الصورة ، مما ساعد على اقناعى بصدقها . ثم كانت هناك ـ فى النهاية ـ

تلك اللهجة الساجية ، الرقيقة .. اللهجة الفذة ، التى روى بها ذكرياته عن « زوجة التاجر » . فان الأفاق الحقيقى لا يتحدث قط عن النساء أو عن أى شىء آخر بمثل هذه اللهجة ، بل انه ـ على النقيض ـ يتيه متمشدقا بأن ليس على الأرض شىء يراه أهلا للتقديس والتوقير !

وتساءل كونوفالوف ، وفى صوته رنة القلق : « لم لا تقول شيئا ؟ أتظننى كاذبا ؟ » .. وكان يجلس على أحد أكياس الدقيق ، ممسكا كوب شاى باحدى يديه ، بينما كان يربت لحيته برفق باليد الأخرى .. وراحت عيناه الزرقاوان تتفرسان فى وجهى متسائلتين ، بينما ازدادت تجعدات جبينه وضوحا .. ثم عاد يقول : « انها صادقة بحذافيرها ، اذ لماذا أكذب ؟ .. آه ، اننى أدرك اننا معشر الأجلاف مولعون بنسج القصص .. ولم لا ؟ .. فاذا لم يقدر لامرىء أن يعرف فى الحياة شيئا ذا قيمة ، فلماذا لا ينسج قصة خرافية يرويها على أنها حقيقة ؟ ! .. لن يضار أحد بذلك ، فى حين أن صاحب القصة لن يلبث على مر الأيام ان يصدقها ويؤمن بها ، وكأنها وقعت بالفعل على النحو الذى يرويه ! .. أجل ، انه يصدقها ، فاذا بها تبعث فى نفسه شعورا من الارتياح . وكم من الناس يعيشون على هذا النحو .. لا مفر من ذلك ! .. على أن ما أنبأتك به حقيقة صادقة .. انه عين ما حدث تماما . أفترى فيه شيئا غريبا ؟ .. هاهى ذى امرأة لاتنال من الحياة أى نصيب من السرور .. وأى عجب فى أن أكون مجرد حوذى ؟ .. ان المرأة لا تفرق بين الحوذيين والسادة المهذبين والضباط .. فنحن جميعا ذكور ، وفى نظرها خنازير !.. كلنا نسعى وراء نفس الشىء ، وكلنا يحاول الحصول عليه بأرخص ما يستطيع ! .. وكلما كان الرجل ساذجا ، كان حظه من الضمير أوفر .. وأنا أشد الناس سذاجة!.. هكذا ترانى النساء دائما ، فتطمئن نفوسهن الى اننى لن اوذيهن ولن أعبث بهن أو أسخر منهن

.. فان المرأة حين تزل ، لا تخشى شيئا قدر خشيتها أن تتعرض للسخرية منها ، أو للعبث بها . ان فى المرأة احساسا بالخزى والعار أكثر مما بنا نحن الرجال ! فنحن اذا ما نلنا حظنا من اللهو ، غدونا على استعداد لأن نخوض فى الحديث عنه ، ولو فى ساحة السوق .. وان الرجل منا ليقول لزميله : ليتك رأيت اية انثى حمقاء وفقت الى اصطيادها ليلة أمس . ولكن المرأة لا تستطيع التفاخر بشىء كهذا .. ان لدى أدناهن ، قدرا أكثر مما لدينا من الحياء ! »

وفيما كنت أنصت اليه ، راحت الافكار تساورنى : ما أغرب أن تصدر مثل هذه العواطف الرفيعة عن رجل مثله ! .. أتراه يعنيها حقا ؟ .. بل اننى أخذت ازداد دهشة وهو يمضى فى حديثه ، محملقا فى وجهى بعينيه الصافيتين الشبيهتين بعينى الطفل !

واحترق الخشب الذى كان فى الموقد ، تاركا كومة من الجذوات الملتهبة التى كانت تلقي وهجا ورديا على جدار المخبز .. بينما بدت رقعة مربعة من سماء زرقاء رصعت بنجمتين ، خلال أطار النافذة . وكانت احدى النجمتين كبيرة جدا ، ذات وميض متلألىء . أما الأخرى فكانت جد ملاصقة لها ، وشديدة الشحوب !

* * *

• لم ينقض أسبوع حتى غدوت وكونوفالوف صديقين حميمين . وكان يقول لى وهو يضرب ظهرى بكفه الضخمة ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة : « انك من النوع الساذج الذى أحبه ! » .. وكان فنانا فى عمله . وليتك رأيته وهو يدحو قطعة العجين ويلفها ، أو وهو مكب على المعجن أثناء العجن وذراعاه غارقتان الى المرفقين فى السائل اللزج السميك الذى كان يرسل أزيزا كلما ضغطه بين أصابعه الفولاذية .. ولا أكاد أفرغ قالبا من العجين فى صفحته ذات اليد الطويلة ،

حتى يدفع بالصفحة الى الفرن . وكنت فى البداية أوجس خيفة من أن يضع الارغفة متقاربة فى عجلته واسراعه هذين ، ولكننى تبينت أنه « أستاذ » فى الحرفة عندما خبز ثلاث دفعات ، دون أن ينبعج رغيف واحد من الأرغفة المائة والعشرين التى خرجت من الفرن ذات لون بنى زاه ، ولا يكاد الواحد منها يعدل الريشة فى الوزن ! .. كان يحب عمله حبا تغلغل فى فؤاده .. فكان القلق يتولاه اذا لم يسخن الفرن ، أو اذا تأخر اختمار العجين ، كما كان لا يفتأ يؤنب صاحب المخبز اذا ابتاع دقيقا من صنف ردىء ! .. وكان يغتبط ـ كالطفل ـ ويفرح ، اذا خرجت الأرغفة من الفرن مكتملة الالتفاف والاتساق ، وقد نضجت الى الدرجة التى تجعل لها قشرة رقيقة متوردة ! .. وكان يتناول أبدع رغيف فى بعض الاحيان ويقول ضاحكا ـ وهو يتلقفه من يد الى أخرى ، والبخار ما يزال يتصاعد منه لسخونته : « الا أنظر الى هذه التحفة البديعة التى صنعناها .. أنا وانت معا ! »



.. كنت أجد متعة فى مراقبة هذا الصبى الكبير أثناء العمل ، فقد كان يخلق للعمل روحا .. وهو مايجب أن يفعله كل شخص ، مهما يكن عمله !

وقلت له ذات يوم : « يقولون انك تحسن الغناء ياساشا؟»
ـ أجل ، ولكننى لا أغنى فى كل وقت ، وانما أغنى فى أوقات معينة .. أو بالأحرى فى نوبات .. فأنا أبدأ فى الغناء عندما أشعر بالشقاء ! .. **ولو أننى شرعت أغنى دون ما شقاء، لأضحى من الأكيد أن يتلمس الشقاء طريقه الى !** .. ولكن ، دعنا من هذا الحديث ، ولا تغرنى ! .. ألا تغنى أنت ؟ .. انها فكرة طيبة أن تغنى ! .. ولكن لا تشرع فى الغناء حتى أغدو فى حال أتقبل معها الغناء ، واذ ذاك نغنى معا .. أتوافق ؟

ووافقت على الانتظار ، ورحت أصفر كلما راودتنى الرغبة الملحة فى الغناء . ولكننى كنت أنسي وعدى فى بعض الاحيان ، فأشرع فى الغناء بصوت خافت وأنا أعجن أو ألف الأرغفة النيئة ، فكان كونوفالوف يصغى وقد راحت شفتاه تتحركان ، ثم لا يلبث أن يذكرنى بوعدى . وكان يصيح بى أحيانا فى غلظة: « اصمت ! .. كفى عويلا ! »

وتناولت كتابا من صندوقى ـ فى أحد الايام ـ وجلست لدى النافذة أقرأ ، بينما غفا كونوفالوف فوق أحد المعاجن . ولكن حفيف الورق ـ وأنا أقلب الصفحات ـ جعله يفتح عينيه ، متسائلا : « عم يدور كتابك هذا ؟ » . وكان عنوان الكتاب « بودليبوفيتس » ، فقال لى كونوفالوف : « هلا قرأته على ؟ »

وشرعت فى القراءة بصوت مرتفع وأناجالس على حافة النافذة ، بينما استوى هو جالسا ، ووضع رأسه على ركبتيه وراح يصغى . وكنت أرفع بصرى عن الكتاب ـ من وقت الى آخر ـ لانظر اليه ، فتلتقى نظراتى بنظراته . ولا تزال صورة عينيه منطبعة على صفحة ذاكرتى الى اليوم . عينان واسعتان، باديتا اليقظة ، تفيضان اهتماما وانتباها . كذلك كان فمه مفتوحا ، يكشف عن صفين من أسنان بيضاء مفلوجة .. **كان منظره يوحى بالالهام لاى فنان ، وقد جلس رافعا حاجبيه ،**

وتخللت جبينه العريض خطوط غائرة ، وأحاطت قبضتاه بركبتيه ، وسكن كل كيانه فى اهتمام ، مما أوحى الى بأن أحاول أن أبدع فى الالقاء ما استطعت ، وأنا أقرأ عليه قصة بيلا وسيسويكا المحزنة .. على أننى تعبت فى النهاية ، فأغلقت الكتاب . واذ ذاك تساءل كونوفالوف هامسا :

« أهذه كل القصة ؟ » ، فأجبت : « بل هذا أقل من نصفها »

ـ هل تقرأها على كلها ؟

ـ اذا شئت

فاحتوى رأسه بين راحتيه ، وأخذ يترنح من جانب الى آخر قائلا : « آه ! » . وبدا لى أن لديه شيئا يريد أن يقوله ، ولكنه فتح فمه ثم أغلقه ، وراح يزفر وكأنه منفاخ ، بينما ضاقت حدقتاه . ولم أكن قد توقعت أن يكون للقراءة مثل هذا التأثير عليه ، لا ولا فهمت سر تأثره هذا ! .. وعاد يهمس :

« كيف وفقت الى القراءة بلهجات مختلفة ، تبين حوار كل شخص وكأنه على قيد الحياة ؟.. أبروسكا ، وبيلا .. يالهما من أحمقين ، مضحكين للغاية ! .. وما الذى يجرى بعد ذلك ؟ .. الى أين يذهبان ! .. **يا للمسيح .. ياللعجب ، كأنى بالرواية حقيقة ، وأبطالها أفراد حقيقيون ككل الناس .. لهم أصوات ووجوه تنبض بالحياة ! .. ألا اسمع يامكسيم ، لنقرأ جزءا آخر بعد أن نضع الخبز فى الفرن ! »**

ووضعنا الخبز فى الفرن ، وأعددنا كمية أخرى من العجين ، ثم عاودت القراءة ساعة ونصف ساعة . حتى اذا نضج الخبز ، توقفنا لنخرجه ، ولنضع أرغفة أخرى فى مكانه ، ولنعجن كمية جديدة ونعد الخميرة .. وفعلنا كل ذلك فى تعجل محموم ، ونحن لا نكاد نتكلم بأكثر من مقاطع مبتورة كان كونوفالوف يطلقها من وقت لآخر لارشادى وهو عابس ، مسترسل فى العمل ..

***

• **وكان** النهار قد أقبل عندما انتهينا من الكتاب ، وقد جف لسانى وأدركه الكلل !.. وكان كونوفالوف يجلس على أحد أكياس الدقيق يتطلع الى ، دون أن ينبث ببنت شفة ، وفى عينيه وميض غريب ، بينما شدت قبضتاه على ركبتيه . وسألته أخيرا : « هل أعجبت بها ؟ » .. فهز رأسه وهو يرفع عينيه الى أعلى ، حتى اذا قدر له أن يتكلم ، انبعث صوته هامسا مرة أخرى وهو يتساءل : « من الذى كتب هذا ؟ » .. وكانت عيناه مفعمتين بعجب لا سبيل للكلمات الى وصفه . وفجأة ، أشرق وجهه بفيض من شعور قوى . فلما أنبأته باسم المؤلف ، هتف : « **ياله من رجل !.. لقد أجاد حتى لكأنه يصف الحقيقة .. أليس كذلك ؟ .. انك لتكاد تشعر بالخوف وبالقشعريرة تسرى فى أوصالك ، وكان الامر حقيقة تجرى فى الحياة !..** وما شأنه هذا الكاتب ؟.. ما الذى يناله من كتابة شىء كهذا ؟ » . فشرعت أقول : « هذا .. » ، ولكنه قاطعنى مسترسلا : « ألا يمنحونه شيئا .. وساما،مثلا » . فتساءلت بدورى : « ولماذا يمنحونه وساما ؟ »

ـ **لان الكتاب .. الكتاب أشبه ببيان يصدره البوليس ، يقراه الناس ثم يشرعون فى الحديث عنه .** انهم خليقون بأن يتحدثوا عن بيلا وسيسويكا مثلا .. فما من أحد يتمالك نفسه من الشعور بالاشفاق عليهما ، اذ يعيشان فى مثل تلك الظلمة التى كانت تكتنفهما .. حياة الكلاب .. ومن ثم ..

فقلت استحثه : « ومن ثم ماذا ؟ » .. فرمقنى وقد بدأ يأخذ حذره فى الكلام ، ثم قال وكأنه يتعرف أثر قوله فى نفسى : « **يجب أن يكون هناك اجراء يتخذ .. انهما مخلوقان ، وجديران بأن يتلقيا العون من أحد !** ».والقيت عليه محاضرة طويلة لكى أشرح له أن الامر كله من نسج الخيال . ولكن حديثى كان عبثا ، اذ لم يترك فى نفسه الاثر الذى كنت أرجوه !..

كان كونوفالوف ينصت وقد بدا عليه التفكير ، فنكس رأسه ، وتنهد ، وراح يترنح الى الامام والى الخلف ، ولكنه لم يحاول أن يقاطعنى مرة واحدة ، حتى كل لسانى من الكلام ، فسكت. واذ ذاك رفع رأسه ورمقنى فى أسى وقال : « اذن فهم لم يمنحوه شيئا ؟ » .. فتساءلت وقد نسيت كل شىء عن المؤلف : « من ؟ »

ـ ذلك الكاتب !

ولم أجب ، فقد غاظنى أن كشف لى عن عجزه عن فهم ما كنت أقول . وما لبث أن تناول الكتاب فقلبه باحترام بين يديه وفتحه ثم أغلقه ووضعه فى مكانه ثانية . ثم تنهد وقال بصوت خفيض : « ما أعمق الامر !.. هاهو ذا رجل يكتب كتابا .. لا شىء سوى ورق تتناثر فيه علامات صغيرة .. كتبها .. هل مات هذا الرجل ؟ » .. فقلت : « أجل »

ـ مات ، ولكن كتابه موجود يقرأه الناس .. يبصره امرؤ بعينيه وينطق الكلمات المختلفة ، بينما ينصت امرؤ آخر فيعرف أن ثمة أشخاصا يدعون بيلا وسيسويكا وأبروسكا كانوا يعيشون يوما .. ويحزن من أجلهم رغم أن عينيه لم تقعا عليهم ، ورغم أنهم .. لاشىء بالنسبة اليه ! .. ولعل المرء يمر بعشرات من الأحياء الذين يشبهونهم أثناء سيره فى الطريق ـ كل يوم ـ فلا يضيره أنه لايعلم شيئا عنهم .. بل انه لا يكاد يحس بوجودهم . أما اذا التقى بهم فى كتاب ، فان قلبه يتفطر عطفا عليهم ! .. كيف تفسر هذا ؟ .. اذن ، فقد مات الكاتب دون ما جزاء ؟ .. ألم ينل شيئا على الاطلاق ؟

وازددت غيظا ، ورحت أبين له كيف يكافأ الكتاب على مؤلفاتهم ، فتطلع الى بعينين جزعتين ، وحرك لسانه فى فمه محدثا صوتا ينم عن اشفاق ، ثم تنهد قائلا : « انها لحال بديعة حقا ! » . ثم نكس رأسه ، وراح يقضم طرف شاربه .. واذ ذاك شرعت فى الحديث عن الدور الأليم الذى تتخذه الحانات

فى حياة الأدباء الروس .. حدثتـه عن الأدباء الحقيقيـين ، الأفذاذ ، العظام ، الذين قضت عليهم « الفودكا » لأنهم كانوا يلجأون اليها كمصدر وحيد للتسرية ، فى حياة مليئة بالعناء !

وتساءل كونوفالوف فى همس المبهوت المستنكر : « هل يشرب مثل هؤلاء الناس ؟ » .. وقرأت فى عينيه تكذيبا لما قلت ، وخوفا ورثاء لأولئك الرجال . وعاد يقول : « أحقا يشربون ؟ أظنهم يقبلون على الشراب بعد أن يفرغوا من تأليف كتبهم .. أليس كذلك ؟ » .. ولم أر فى سؤاله مايروق لمزاجى ، فتجاهلت الرد عليه . واذ ذاك قال كونوفالوف جازما : « بعد الفراغ من الكتب بالطبع .. **ان هؤلاء الكتاب كقطع الاسفنج .. يمتصون هموم غيرهم من الناس ! .. ان لهم عيونا خاصة تكشف هذه الهموم ، وقلوبا خاصة تحس بها .. ومن ثم فان اطالة التأمل فى الحياة تشقيهم ، فيصبون شقوتهم فى كتبهم . ولكن هذا لايخفف عنهم ، لأن الألم ينطبع على قلوبهم ، ولأن الشقاء لاينمحى من النفس اذا سكنها ، ومن ثم لايبقى أمامهم سوى طريق واحد .. هو أن يغرقوا الهم فى ((الفودكا))** . وهذا هو السبب فى اقبالهم على الشراب . أترانى أصبت ؟ »

وأقررت رأيه ، فكأنما شجعه ذلك على التعمق فى الغوص فى نفسية الكتاب ، قائلا : « على أن الانصاف يقتضى أن يكافأوا ، الا ترى ذلك ؟ .. فهم يفوقون فى الفهم غيرهم من الناس ، وهم يكشفون للغير عيوب الحياة . اليك أنا مثلا .. من أكون ؟ .. جواب آفاق ، سكير ، لايصلح لشىء .. شخصية مشوهة ! لا معنى ولا قيمة لحياة مثل حياتى ، اذ ما غاية بقائى فى هذه الدنيا ؟ **من الذى يحتاج الى ؟ لازوجة هناك ، ولا أولاد ، ولا مكان أستطيع أن أقول انه دارى .. بل اننى لا أملك مجرد الشوق لشىء من ذلك ، وانما أنا أواصل العيش فى شقاء ، دون أن يدرى أحد أى مبرر لحياتى ؟** .. ليس فى أعمـاقى شىء يرشدنى .. شىء لا أعرف كيف أصفه لك .. لعـله

بصيص من نور ! .. المهم انني أفتقد شيئا فى الأعماق استلهمه الارشاد ، فأنا اذ أمضى فى العيش أسعى باحثا عن هذا الشيء ، وأتوق اليه ، ولكنني لا أدرك كنهه .. لست أدرى ما هو ! »

***

• وتطلع الى ، وقد أسند رأسه الى راحته ، وانعكست على وجهه الافكار التى كانت تعتمل فى ذهنه وتحاول أن تتخذ شكلا تظهر فيه ، فقلت أستحثه : « وبعد ؟ » . فقال : « آه .. لست أدرى كيف أصف لك مافى نفسى ، ولكنى أحسب لو أن واحدا من هؤلاء الكتاب جاءنى وتأملنى ، لكان من المحتمل أن يتمكن من تفسير حياتى .. أليس كذلك ؟ .. ما رأيك ؟ »

وخيل الى أن بوسعى أن أقوم أنا بهذه المهمة ، فبادرت ازجى اليه ما حسبته شرحا جد واضح وبسيط .. فتحدثت عن الظروف والبيئة ، وعن عدم المساواة ، وعن أولئك الذين كانوا سادة يسيطرون على الحياة ، وأولئك الذين كانوا ضحاياها . وأخذ كونوفالوف يصغى فى انتباه وقد جلس أمامى ، وأسند خده الى راحته ، وبدا كما لو أن ثمة حجابا أخذ ينسدل رويدا على عينيه الزرقاوين اللتين كانتا مفتوحتين على سعتهما ، واللتين كانتا تنمان عن موهبة ، وقدرة على التعبير ، والتفكير ! .. أما تجاعيد جبينه فقد ازدادت غورا . ولم يكن تنفسه ملحوظا ، فكأنه أمسك انفاسه لينصرف بكل حواسه الى استيعاب ما كنت أقول ! .. وازدهانى الأمر ، فرحت أرسم له صورة حياته فى حماس عارم ، مبينا له أن لا لوم عليه ولاتثريب فى أن صار الى ماهو عليه ، لأنه كان ضحية الظروف .. **فهو ـ كانسان ـ ولد مساويا لغيره من الناس ، ولم يصبح نكرة تافه الشأن ، من الناحية الاجتماعية ، الا لأنه كان مشدودا الى سلسلة من المظالم المجافية للعدالة ، والتى تمتد من عصور سحيقة فى التاريخ** . واختتمت حديثى قائلا : « لا ذنب عليك ولا لوم ، فانما أنت مظلوم ! »

ولم يقل شيئا ، وانما ظل فى مجلسه يحدق فى وجهى . وخيل الى أننى ألمح ابتسامة مشرقة تتهيأ فى أغوار عينيه ، فترقبت بصبر نافد ماكان يتأهب ليقوله .. ومالبث أن مال نحوى وهو يطلق ضحكة خافتة ، ووضع راحته على كتفى فى حركة أنثوية رقيقة ، وقال : « ما أبسط شرحك يارفيقى ، فمن أين لك كل هذا ؟ .. أهو من الكتب ؟ انك ولابد قرأت الكثير منها . آه ، ليتنى قرأت قدر ما قرأت أنت ! .. ولكن أهم مافى الأمر انك تمزج العطف الانسانى بحديثك ..ماسمعت قط من قبل انسانا يتحدث مثلما تحدثت أنت ! .. **من الغريب أن معظم الناس يلومون الغير على المظالم التى يقاسيها هؤلاء الغير ، أما أنت فتلقى اللوم على الحياة بأسرها .. على النظام كله ! .. فالرجل نفسه ـ فى رأيك ـ لايلام على شىء .. اذا كان قد ولد ليكون شريدا ، أفاقا ، فلابد أن يغدو كذلك ! .. وما أعجب ماتقوله عن المذنبين .. فهم يسرقون لأنهم بلاعمل، ولابد لهم من الحصول على القوت بطريقة ما . ما أكرمك ! لقد أوتيت قلبا جد رقيق ! »**

قلت : « مهلا .. هل تغرنى على ماذهبت اليه ؟ .. هل تظن أن ماقلته صحيح .. أم أنه خطأ ؟ » ، فأجاب : « انك ادرى منى بما اذا كان صحيحا أو خطأ ، ففى وسعك أن تقرأ .. واذا طبقت هذا الكلام على الآخرين ، فاننى أراه صحيحا .. أما اذا شئت أن تطبقه على أنا ... » . فهتفت : « ماذا ؟ » .. قال : « اننى حالة خاصة .. من الذى يلام على اننى سكير ؟ .. ان أخى « بافل » لا يشرب الخمر ، وله مخبز فى (بيرم) .. ومع اننى أمهر منه فى الحرفة ، الا أننى شريد ، سكير ، ولاتستطيع بلباقتك أن تغير من هذه الحقيقة .. ومع ذلك فأنا وهو شقيقان ولدنا من أم واحدة .. بل انه أصغر منى سنا ! .. ومن ثم ترى أن لا بد من وجود عيب فى شخصى . انك تقول ان الناس جميعا سواسية ، ولكننى حالة خاصة .. ولست

وحدى فى هذا ، بل هناك كثيرون على شاكلتى .. نحن مخلوقات من نوع خاص .. لانتسق مع أيةصورةأومجموعة ، بل نحن فى حاجة الى حكم خاص ، وتقدير خاص .. نحن فى حاجة الى قوانين خاصة .. قوانين قاسية ، تنفينا عن الأرض ، لأننا لاننفع أحدا ، وانما نحن نشغل فراغا ، ونقف فى طريق غيرنا من الناس ! .. من المسئول عن هذا ؟ من الملوم؟. نحن أنفسنا الملومون ، لأننا لانكن بين جوانحنا أى حب للحياة، بل ولا لأنفسنا ! »

وهكذا كان هذا الرجل الهائل الجسم ، ذو العينين الصافيتين كعينى الطفل ، ينقم على نفسه بسهولة ، ويدمغ نفسه ـ وعلى شفتيه تلك الابتسامة المؤثرة ـ بأنه تافه ومن ثم يجب أن ينفى عن الأرض ! .. وبهت مأخوذا ، فما صادفت من قبل صفة انكار الذات فى شخص شريد ، اذ أن معظم الشريدين بعيدون بطبعهم عن كل ما يتعلق بأنفسهم .. يعادون كل شىء سوى أنفسهم ، ولا يصبون الا الى اتخاذ كل شىء هدفا لسخريتهم المبغضة ، المزرية .. كان كل من قابلتهم من هذا الصنف ـ من قبل ـ يلومون الغير دائما ، ولا يكفون عن الشكوى ، ويغمضون أعينهم فى اصرار عن الدليل الذى لا سبيل الى انكاره ، والذى يعارض مايدعونه من عصمة وتنزه عن العيب ! .. انهم ـ دون استثناء ـ يعزون فشلهم الى قسوة القدر ، أو الى لؤم الآخرين . أما كونوفالوف ، فلم يلم الحظ ، ولم يتهم الغير ، وانما ألقى على نفسه ـ وحدها ـ ذنب ما انتهت اليه حياته من خيبة ! . وكان يزداد اصرارا على أنه الملوم فيما آلت اليه حاله ، كلما جهدت فى محاولة اقناعه بأنه « ضحية الظروف والبيئة » !

***

• **وكان** هذا اتجاها جديدا ، مبتكرا ، أثارنى .. كان

كونوفالوف يجد لذة فى أن يقسو على نفسه .. لذة كانت تلمع فى عينيه وهو يصيح بصوته المدوى : « كل انسان سيد نفسه والمسئول عنها ، فلا مسئولية على أحد اذا كنت الآن وغدا ! » . . وما كنت لأدهش لو اننى سمعت شخصا مثقفا يقول هذا الرأى ، لأن جميع أنواع الألم والاستهجان انما تتفجر من تلك الأداة النفسية العقلية التى عرفت باسم « الادراك المتنور » .. **وانما كانت الغرابة فى اننى سمعت مثل هذا الرأى يصدرعن شفتىهذا الجلف ، ولو أنه كان ذا ادراك متنور بين المغبونين ، الجوعى ، العرايا ، المتذمرين ، أنصاف الآدميين وأنصاف الوحوش ، الذين يوجدون فى الأحياء الدنيا الموبوءة ، الفاسدة ، فى مدننا ! .. ولم يكن ثمة تفسير لذلك سوى أن كونوفالوف كان « حالة خاصة » بالفعل .. ولكننى لم أشأ أن أسلم بذلك !**

لقد كان ـ من حيث المظهر الخارجى ـ مثالا دقيقا ، فى كل شىء ، للشريد جواب الآفاق ، ولكننى كنت كلما ازددت معرفة به ، ازددت اقتناعا بأنه كان مثالا يختلف عن الفكرة التى كونتها فى ذهنى عن أولئك القوم الذين كان ينبغى أن يعتبروا ـ منذ زمن طويل ـ طبقة قائمة بذاتها ، والذين يستحقون اهتمامنا عن جدارة ، لأنهم متعطشون ، تواقون ، مشبوبو الحقد ، غير أغبياء على الاطلاق !

واحتدم النقاش بيننا ، فصحت : « اصغ لى .. كيف يقدر لرجل أن يستوى على قدميه بينما كل أنواع القوى المظلمة تدفعه من كل جانب الى أسفل ؟ » .. فقال معارضى فى حرارة ، وقد اتقدت عيناه : « أن عليه أن يصر على موقفه!» ، فهتفت : « وبماذا يتشبث ؟ » .. قال : « ليبحث عن شىء يمسك به » ، فقلت : « ولماذا لاتفعل أنت ذلك ؟ »

ـ يالك من مضحك ! ألم أقل لك اننى ملوم ؟ .. اننى لم

اجد ما أتشبث به . لقد ظللت أبحث عنه ، وأتوق اليه ،ولكننى لا أستطيع أن أعثر عليه !

وكان الوقت قد حان لتفقد الخبز ، فنهضنا للعمل ، وكل منا ماض فى محاولة اقناع الآخر بصحة رأيه ، ومن الطبيعى اننا لم نوفق . حتى اذا فرغنا من العمل ، استلقينا وقد برح بنا التعب والاعياء .. فارتمى كونوفالوف على الأرض،وسرعان ما راح فى سبات عميق . أما أنا فقد رقدت على بضعة أكياس من الدقيق ، رص بعضها فوق بعض . ورحت من هذا الارتفاع أطل على الشخص القوى ، الملتحى ، الذى استلقى باسطا أطرافه وكأنه أحد أبطال القصص . وكان جو المكان يعبق بعبير الخبز الناضج ، والعجين المتخمر ، والخشب المحترق . وما لبث الفجر أن انبثق ، ولاحت السماء داكنة خلال زجاج النافذة المكسو بغبار الدقيق . وسمعت صوت عربة أثناء مرورها ، ودوى بوق أحد رعاة البقر وهو يجمع قطيعه ..

وارتفع غطيط كونوفالوف . وفيما كنت أرقب الصدر الضخم وهو يرتفع وينخفض ، حاولت أن أفكر فى طريقة سريعة أحوله بها الى رأيى ، ولكننى غفوت قبل أن أوفق الى طريقة !

* * *

• **ونهضنا** فى الصباح ، فأعددنا الخميرة ، ثم اغتسلنا ، وجلسنا على أريكة خشبية نتناول الشاى . واذ ذاك سألنى كونوفالوف : « هل لديك كتب أخرى ؟ » ، **فأجبت قائلا** : « نعم »

ـ هل تقرأها على ؟

ـ وهو كذلك !

ـ جميل .. اسمع ، لسوف أواصل العمل شهرا ، ثم أتقاضى أجرى من صاحب المخبز ، فأعطيك نصفه ..

- وما الداعى لذلك ؟
- لتبتاع كتبا .. اشتر ماشئت لنفسك ، وابتع لى .. اثنين ان أمكن . كتب عن الفلاحين .. عن أمثال ((بيلا)) و ((سيسويكا)) ، ولكن تأكد من أنها كتبت بعاطفة صادقة لا لمجرد التسلية .. فان بعض الكتب غثة تافهة ، حتى ولو حملت صفحتها الأولى صورة ! .. كما أن هناك كتبا تحوى قصصا خرافية لا أميل اليها .. ماكنت أعرف قط أن ثمة كتابا كهذا الكتاب الذى تملكه !
- أتحب أن أقرأ لك عن « ستنكا رازين » ؟
- ستنكا ؟ .. أهو كتاب طيب ؟
- جدا
- علينا به !

وهكذا شرعت أقرأ عليه كتاب « نشأة ستنكا رازين » للكاتب « كستورماروف » . ولم يرق هذا المؤلف الرائع للمستمع الملتحى فى بداية الأمر ، اذ كان فى معظمة قصيدة عن البطولة ، فسألنى وهو يتأمل الكتاب : « لماذا لايتخلله حديث ما ؟ »

وحاول أن يخفى تثاؤبه وأنا أشرح له موضوع الكتاب ، الأمر الذى أخجلنى ، فقال وكأنما شعر بأنه آلمنى : « امض فى القراءة .. لاتعبأ بما قلت »

واذ مضى المؤرخ يرسم فى براعة الفنان صورة البطل الروسى « ستيبان رازين » ، وأخذ هذا الزعيم - « أمير أحرار الفولجا » - يطل من خلال صفحات الكتاب ، استولى على كونوفالوف تحول غريب ، فاذا بالرجل الذى كان يلوح ضجرا ، غير مكترث لشىء ، يتراءى لى تدريجيا ، ودون أن أفطن الى تطوره ، فى شكل جديد ، مدهش . فمن مجلسه على المقعد المواجه لى - وقد أحاط ركبتيه بذراعيه وأسند اليهما ذقنه فانسدلت لحيته على ساقيه - أخذ يلتهمنى بعينين متقدتين



كنت ألمحهما تحت حاجبيه المتقاربين .. **ولم يعد يبدو عليه أى أثر لتلك السذاجة الصبيانية التى كانت تدهشنى فيه ، ولا لكل البساطة ، والرقة الأنثوية التى كانت تتسق مع عينيه الزرقاوين ، اللطيفتين ، اللتين أصبحتا داكنتين ، ضيقتين .. كان ثمة شىء يحترق فى كيانه .. بل كان ثمة شىء من طباع الاسود يتجسد ويتجمع فى عضلاته المتنفضة !**

وأمسكت عن القراءة ، فقال فى لهجة هادئة ، ولكنها حازمة : « امض ! » ، فسألته : « ماذا جرى ؟ » . ولكنه كرر فى شىء من الانفعال : « امض ! » .. ومضيت فى القراءة ، وأنا ألاحظ كلما رمقته ـ من آن الى آخر ـ انه كان يزداد انفعالا .. وان هذا الانفعـــال كان يولد فى نفسى شيئا يؤثر فى ، بل يخدرنى .. شيئا كأنه بخار حار ! .. وبلغت أخيرا النقطة التى وقع عندها « ستنكا » أسيرا ، فصاح كونوفالوف : « اذن فقد أمسكوا به ؟ » .. وكانت صرخته مفعمة بالألم ، والغضب ، والحسرة ! .. وتفصد العرق من جبينه ، وزاغت عيناه بشكل غريب ، ثم قفز عن مقعده ، ووقف أمامى بقامته الفارعة ، وهو يرتجف ، ثم قال بسرعة ، ملقيا راحته على

كتفى : « مهلا .. كف عن القراءة . حدثنى عما سيجرى بعد ذلك . لا ، لاترو .. هل سيقتلونه ؟ .. اقرأ يامكسيم ، بسرعة ! » .. وكأنمـــا كان كونوفالوف شقيق رازين ! .. **كانت لهجته توحى الى المرء بأن ثمة روابط من الدم والقربى ـ لم يوهنها انقضــاء ثلاثمائة عام ـ تمتد بين هــذا الشريد وستنكا !.. كان ، بكل قواه وكيانه الجبار ، وبكل ما للنفس المشوقة الى ((شيء تتشبث به)) من عاطفة ، يعــانى آلام الثائر المحب للحرية ، ويحس بكل ما اعترى ذلك الثــائر من غضب عندما وقع أسيرا منذ ثلاثمائة عام !..** وراح يهتف بى : « ألا امض فى القراءة بحق المسيح ! »

* * *

• **واستأنفت** القراءة وأنا أشعر باضـطراب عميـق ، وبوجيب قلبى يدق بعنف ، اذ كنت أشارك كونوفالوف الالم الذى عاناه ستنكا . وسرعان مابلغنا وصف تعذيبه ، فبرز فكا كونوفالوف فى تحفز ، وتطاير الشرر من عينيه ، ومال على كتفى وقد علقت نظراته بالصفحة ، وانبعثت أنفاسه قوية تلهب أذنى ، وتدفع بشعرى الى عينى ، فرفعته .. واذ رأى كونوفالوف ذلك ، ضغط بابهام ثقيلة على الشعر .. وتابعت القراءة : « اذ ذاك أصر رازين على أسنانه بقوة جعلتهاتتساقط ، فبصقها مع الدم الى الأرض ... »

وصاح كونوفالوف وهو يختطف الكتاب من يدى :« امسك عن القراءة .. ليذهب الكتاب الى الجحيم ! » ، ثم ألقى به أرضا ، وتهالك الى جواره وأخذ يبكى . ولكنه خجل من البكاء ، فراح يزمجر ليكتم نهنهته . ودفن رأسه بين ركبتيه وأطلق لدمعه العنان ثانية ، ملصقا عينيه بسرواله القطنى القـذر ليجففهما ! .. وظللت جالسا على المقعد أمامه ، عاجزا عن أن أجد كلمات أواسيه بها . وأخيرا قال وهو جاثم فى مجلسه على الأرض : « تصور يامكسيم ! .. بيلا .. سيسويكا .. ثم

ستنكا اخيرا .. اية نهاية ! .. تصور نفسك مضطرا الى ان تبصق اسنانك على هذا النحو ! » .. وسرت فى كيانه رعدة !

.. كان مأخوذا بما جرى لستنكا اذ بصق أسنانه ـ بوجه خاص ـ فكان لايفتأ يرتد الى هذه النقطة ، فتهتز كتفاه فى انفعال عصبى وهو يذكرها ! .. واضطرب ذهننا بتأثير الصورة الانسانية التى مثلت لنا التعذيب الوحشى ..

وما لبث كونوفالوف أن هدأ ، فقال : « اقرأها لى مرة أخرى .. هلا فعلت ؟ » . وناولنى الكتاب قائلا : « هاك .. أرنى الموضع الذى ورد فيه ذكر الاسنان » ، فلما أشرت اليه ، ثبت عينيه على السطور ، وقال : « أهذا هو المكتوب حقا ؟ .. هل كتب : « وبصق أسنانه مع الدم » ؟ .. ان الحروف هنا شبيهة بكل الحروف الأخرى .. يا الهى ! .. ما أشد الاذى الذى عاناه ولابد ! .. حتى أسنانه ؟ .. وما الذى سيجرى بعد ذلك ؟ .. هل سيقتلونه ؟ .. الحمد لله لانهم سيقتلونه فى النهاية ! »

وتجلى فرحه ـ فى العبارة الاخيرة ـ عارما ، يصحبه وميض فى عينيه ينم عن ارتياح عظيم ، فارتجفت وانا أتصور الانفعالات التى جعلته يتمنى موت ستنكا المعذب .. بمثل هذه الحرارة ! .. وعشنا باقى يومنا ذاك فى شبه حلم ، لا نتكلم الا عن ستنكا ، فنتذاكر أحداث حياته ، والأغانى التى كتبت عنه ، والعذاب والأهوال التى تعرض لها . وشرع كونوفالوف ـ مرتين ـ يغنى احدى هذه الأغانى بصوته القوى النبرات ، ولكنه كان لا يلبث أن يصمت فى منتصف الأنشودة ، فى كل مرة .

ومنذ ذلك اليوم ، ازدادت الصداقة توثقا بيننا . وقرأت له قصص : « نشأة ستنكا رازين » و « تاراس بولبا » و « الفقراء » عدة مرات . وتأثر مستمعى بتاراس بولبا أشد التأثر ، ولكنه لم يقو على مغالبة الأثر الذي تركه في نفسه كتاب

كوستوماروف. ولم يستطع أن يفهم « خطابات مقار ديفوشكين و فاربا » ، فقد بدأ له أسلوب « مقار » فى رسائله مضحكا ، كما بدأ متشككا فى شعوره نحو فاريا ، فكان يقول : « تصور كيف تتزين لذلك الشيخ ! .. انه دهاء منها أن تتزين لغراب مخيف كهذا ! ولكن ، لا تضيع الوقت فى هذا الجزء يا مكسيم ، اذ ما قيمته .. هو يكتب اليها ، وهى تكتب اليه .. لا شيء سوى اتلاف الورق هباء .. ليذهبا الى الجحيم ، فليس فى القصة ما يسر النفس ، ولا ما يثير الأسى ، فلماذا كتبت اذن ؟ »

واذ قلت له انهما يشبهان « بيلا » و « سيسويكا » ، صاح مستنكرا : « **ان بيلا وسيسويكا يختلفان عنهما ، فهما انسانان حقا .. انهما من نوع الناس الذين يعيشون ويناضلون . اما هذان ، فماذا يكونان ؟ .. كل ما يفعلانه هو كتابة الرسائل .. شيء ممل ! .. بل انهما لا يشبهان الأحياء فى شيء ، فهما مجرد صورتين مصطنعتين .. خذ تاراس وستنكا مثلا .. يا الهى ! .. ألا ترى انهما لو اجتمعا معا لصنعا العجائب !.. انهما خليقان بأن يبثا فى بيلا وسيسويكا حياة جديدة !** »

كان ادراكه للزمن والعهود مهوشا ، ومن ثم فقد كان يخال ان كل ابطاله المحبوبين عاشوا فى زمن واحد ، وان اثنين منهم كانا يعيشان فى (أوسولاى) ، وواحدا بين فلاحى (اوكرانيا) ، والرابع فى حوض نهر (الفولجا) . ووجدت عناء فى أن أجعله يفهم أنه لو كان قد أتيح لبيلا وسيسويكا أن يبحرا نحو مصب (الفولجا) ، لما التقيا بستنكا ، وانه لو كان اتيح لستنكا أن يرحل الى اقليم الدون قوزاق ، واختلط بفلاحى أوكرانيا ، لما التقى ببولبا ! .. واستاء حين عرف الحقيقة .. ورويت له شيئا عن نشأة « بوجاتشيف » ، وأنا أتوق الى أن أعرف رأيه فيه ، فاذا هو لا يرتاح اليه . وقال :

ـ انه مخادع قذر .. هذا رأيي فيه . لقد كان يتوارى

وراء اسم القيصر لكي يثير الناس . كم من أناس نافعين ماتوا بسببه ! .. أما ستنكا ، فكان من صنف آخر . ليس بوجاتشيف هذا سوى حيوان قذر . **هل لديك كتب أخرى على شاكلة ذاك الذي يدور حول موضوع ستنكا ؟ .. ابحث جيدا ، و دع « مقار » الغبي عنا ، فهو كتاب لا يثير أى اهتمام .. بل انني لأوثر ان أسمعك تقرأ لي مرة أخرى كيف قتلوا ستنكا !**

***

• **وكنت** أذهب وكونو فالوف في أيام عطلاتنا الى المروج الممتدة على الضفة الأخرى من النهر . فكنا نأخذ بعض « الفودكا » والخبز ، ونصطحب كتابا ، ثم ننطلق في الصباح « نشم الهواء » كما كان كونو فالوف يطلق على هذه النزهات . وكنا نولع بالذهاب ـ بوجه خاص ـ الى « مصنع الزجاج » ، وهو الاسم الذى أطلق دون ما سبب واضح على مبنى قام في حقل خال ، غير بعيد عن المدينة . وكان هذا المبنى من الطوب ، ومكونا من ثلاثة طوابق ، وذا سقف مقعر ، ونوافذ محطمة ، وقبو ارضي يمتلىء بماء نتن طيلة أشهر الصيف . وكان يستوى في الحقل خرابا ، تزحف الطحالب على جدرانه ، وتحيله الى منظر كئيب .. شبح بغيض ، يرمق المدينة خلال محاجر سوداء خالية من العيون ، كما كانت نوافذه تبدو ! .. ما كان أشبه ذلك المبنى بعاجز يحتضر ، وقد طرد من المدينة ! .. وكانت الفيضانات الجائحة تطغى عليه عاما بعد عام ، ولكنه ظل قائما ، تحيط به برك الماء التي كانت تصد رجال البوليس عن التردد عليه بكثرة . **ومن ثم فقد غدا ، رغم سقفه المهدم ، مأوى لكل أنواع المتشردين الذين تحوم حولهم الشبهات . فكان يعمر دائما بالكثيرين منهم ، يعيشون فيه بأسمالهم البالية ، والجوع يكاد يقضى عليهم .. يتوارون من نور الشمس ، فكأنهم القنابر في الأطلال !**



وكنت وكونوفالوف نجد ترحيبا منهم دائما ، اذ كان كل منا يحمل معه رغيفا أبيض ـ عند مبارحة المخبز ـ ونبتاع نصف لتر من الفودكا ، وقدرا كبيرا من لحم الكبد والرئتين والطحال والقلب وما اليها .. وبهذا كنا نقدم لـ « شعب الزجاج » ـ كما كان كونوفالوف يدعوهم ! ـ وجبة شهية لا تكبدنا أكثر من روبلين أو ثلاثة روبلات ! .. وكانوا ، فى مقابل ذلك ، يروون لنا قصصا تمتزج فيها الحقيقة الرهيبة ، المثيرة ، بأشد الأكاذيب ظهورا وافتضاحا .. كانت كل قصة منها عبارة عن قطعة من « الدانتيلا » السوداء (الحقيقة) موشاة بخيوط ذات ألوان زاهية (الاكاذيب) .. وكانت هذه « الدانتيلا » تلتف حول القلب والعقل ، فتخنقهما فى أشكالها المتعددة المتباينة ! .. ولقد ازداد « شعب الزجاج » تعلقا بنا ـ بطريقتهم الخاصة ـ وكثيرا ما كنت أقرأ لهم ، فكانوا يصغون فى انتباه واستيعاب !

وكنت أذهل لما كان يبديه هؤلاء الناس من معرفة عميقة بالحياة ، وهم الذين نبذتهم الحياة .. فكنت أصغى مشوقا الى قصصهم ! .. كذلك كان كونوفالوف يصغى ، ولكن .. لكى يعارض آراءهم الفلسفية ويستدرجنى الى الجدال . فاذا روى أحد هؤلاء « المخلوقات » العراة ذوى السحن التى

توحى للمرء بأن من الخير له أن يظل بمنأى عنهم .. اذا روى أحدهم قصة حياته ، وكيف انهارت هذه الحياة ــ وهى قصة كانت تنقلب ، بلا استثناء ، الى خطاب دفاع عن النفس ــ فان كونو فالوف كان يبتسم ويهز رأسه .. وكانوا يلاحظون ذلك ، فيقول صاحب القصة متسائلا : « ألست تصدقنى يا ساشا ؟»

ــ **انني أصدقك طبعا ، فمن واجب المرء أن يصدق مايقوله اى رجل ! .. ان من واجبك أن تصدقه ــ ولو عرفت انه يكذب ــ وان تصغى اليه ، وان تحاول ان تعرف ما يحمله على الكذب . فان أكاذيب اى رجل قد تكشف لك احيانا عن معدنه ، أكثر مما تكشف الحقيقة ! .. ثم ، ما هى حياتنا ، لو انك اوغلت فى البحث عن حقيقتها .. مجرد شىء قذر ، نحاول ان نخفيه بنسج الأكاذيب حوله .. افترانى أصبت فى قولى ؟**

فيجيب محدثه : « أصبت .. ولكن ، لماذا كنت تهز رأسك اذن ؟ »

ــ لأنك لا تنظر الى الأمور نظرة صحيحة ، فأنت تتكلم وكأنما لم تكن أنت الذى صنعت الحال التى انت عليها ، وانما صنعها شخص آخر .. فلماذا تركته يصنعها ؟لماذا لم تناضل؟ **.. اننا دائما نشكو من الغير ، ولكننا بشر مثلهم ، ألسنا كذلك ؟ .. فكأننا أيضا عرضة لأن يشكو منا الغير .. واذا كان ثمة من يعترض طريقنا دائما ، فلا بد اننا أيضا نعترض طريق غيرنا .. أليس الأمر كذلك ؟ .. كيف تفسرون الوضع اذن ؟**

وكانوا يجيبون عن هذا التساؤل قائلين : « يجب أن تتغير الحياة ويعاد تنظيمها لينفسح المجال لكل امرىء ، ولكى لا يعترض أحد طريق أحد ! » . وهنا كان كونو فالوف يسألهم متحديا : « ومن الذى يحدث هذا التعديل ؟ » .. ثم يبادر الى الاجابة قبل أن يسبقه اليها أحد : « نحن .. نحن أنفسنا . ولكن ، كيف نغير الحياة اذا كنا لا ندرى السبيل الى ذلك ؟ .. اذا كنا لا نستطيع ان نجعل من حياتنا شيئا نافعا ذا قيمة ؟

.. اننا لن نلبث أن نجد ان ليس هناك من نلجأ اليه سوى انفسنا .. وفيما يتعلق بأنفسنا .. آه ، اننا جميعا ندرى ما نحن عليه ! »

وكانوا يحتجون على منطقه ، ويعارضون ، ويحاولون ان يلتمسوا الاعذار لانفسهم ، ولكنه كان يصمد فى موقفه ، ويتشبث برأيه : **فكل انسان مسئول عما صار اليه ، وليس سواه الملوم على الفشل والخيبة اللذين يمنى بهما !** .. وكان من المستحيل زحزحته عن موقفه ، كما كان من المستحيل قبول رأيه فى الناس .. كانوا الملومين ، ولكنهم ـ من ناحية أخرى ـ كانوا فى رأيه قادرين على أن يعيدوا تشكيل الحياة بحيث يحظون جميعا بالحرية .. وان كانوا ـ من ناحية ثالثة ـ قوما ضعافا ، خائرين ، متخاذلين ، لا يجيدون شيئا سوى الشكوى .. شكوى بعضهم من بعض !

وكثيرا ما كانت هذه المجادلات تبدأ مع الظهر ، فلا تنتهى الا فى منتصف الليل ، واضطر وكونوفالوف الى مبارحة « شعب الزجاج » فى الظلام الدامس ، فنخوض الوحل حتى الركب .. ولقد كدنا مرة نغرق فى حمأة ، كما قبض الشرطة علينا فى مرة أخرى ، فقضينا الليل فى قسم البوليس مع حوالى عشرين فردا من اهل « مصنع الزجاج » الذين كانوا مثار الشبهات لدى البوليس . وكنا لا نجد من انفسنا ميلا ـ فى بعض الأوقات ـ الى الفلسفة ، فكنت واياه نمضى فى سيرنا بعيدا عن المراعى والمروج الممتدة على الضفة الأخرى للنهر ، حتى نصل الى عدد من البحيرات الصغيرة العامرة بأسماك ضئيلة الحجم كانت سيول الربيع تحملها اليها . وكنا ـ لمجرد الرغبة فى استجلاء جمال المنظر ـ نوقد نارا فى الأدغال الممتدة على طول شاطىء احدى هذه البحيرات ، وننصرف الى القراءة او الى الحديث عن الحياة . وكان كونوفالوف يقول احيانا ،

وهو مستغرق فى اهواء خياله : « لنكتف بالتطلع الى السماء يا مكسيم ! »

ومن ثم كنا نستلقى على ظهرينا ، ونحملق فى القبة الزرقاء التى كانت تعلونا بلا قرار . وكنا نفطن فى البداية الى حفيف أوراق النبات ، وخرير المياه ، ونحس بالأرض تحتنا . **ولكن السماء الزرقاء كانت لا تلبث أن تبدو وكأنها تشدنا اليها ، فنفقد كل شعور بالكائنات المحيطة بنا ، وكأننا أرتفعنا عن الأرض ، ورحنا نسبح فى الفضاء الشاسع فى شبه غيبوبة فكرية كنا نخشى ان نعكر صفوها بكلمة أو حركة ! ..** وهكذا كنا نقضى الساعات راقدين ، حتى اذا عدنا الى العمل عدنا بقوى جسدية وروحية متجددة ، منتعشة ! .. فقد كان كونوفالوف يكن للطبيعة حبا عميقا ، متغلغلا ، وكان — اذا ما خرجنا الى الحقول أو الى النهر — يستسلم الى نوبة من الهدوء واللطف تضاعف من مشابهته للطفل . **وكان بين الفينة والفينة يقول فى زفرة عميقة ، وهو يتطلع الى السماء : « آه .. هذا هو الشىء الذى أنشده ! »** .. وكان فى هذه العبارة الوحيدة من التفكير والشعور ما يفوق كثيرا من القصائد ، لا سيما تلك التى لم يكن مصدر الوحى فيها سوى رغبة الشاعر فى أن يتطلع اليه الناس كملهم مرهف الحس .. وبذا لم تكن قصائده نابعة عن اعجاب صادق بمفاتن الطبيعة . ذلك لأن الشعر — ككل شىء آخر — يفقد بساطته العلوية اذا ما اتخذ حرفة !

* * *

• **وهكذا** توالت الأيام حتى اكتملت شهرين ، قمت خلالهما مع كونوفالوف بكثير من المناقشات ، وبكثير من القراءات . وكنت كثيرا ما أقرأ له « نشأة ستنكا رازين » ، حتى أصبح فى وسعه أن يرويها بلفته ، صفحة صفحة ، من البداية حتى النهاية . **بل لقد أصبحت بالنسبة اليه كالخرافة**

المتعة بالنسبة للطفل ، فكان يسمى الأشياء التى يستعملها فى عمله باسماء الشخصيات المتباينة فى الكتاب ! وحدث ذات مرة ان سقط وعاء عن الرف وتحطم فصاح مغضبا : « ألا لعنة الله عليك يا كابتن بروزورفسكى ! » .. فاذا أبطأ العجين فى الاختمار ، سماه « فرولكا » ، باسم بطل متخاذل .. أما الخميرة فقد أصبح يدعوها « أفكار ستنكا » ، بينما كان اسم « ستنكا » ذاته ، يطلقه على كل شيء جليل ، فذ ، كتب عليه القدر أن ينتهى الى فشل !

ولم يكن يرد لكابيتولينا ـ التى قرأت خطابها وكتبت لها ، فى أول يوم التقيت فيه بكونوفالوف ـ اى ذكر .. فلقد أرسل لها النقود عن طريق « فيليب »،وسأله أن يكفلها لدى البوليس، ولكنه لم يتلق ردا ما من « فيليب » أو منها . الى أن حدث فجأة ـ ذات مساء ـ ونحن نعد العجين لندفع به الى الفرن ، ان فتح باب المخبز ، وتصاعد من جوف المدخل الرطب المعتم ، صوت أنثوى عميق ، يقول : « من فضلك ! » .. وكانت اللهجة تجمع بين الخجل والارتباك ، فسألت القادمة : « من الذى تريدين ؟ » . وترك كونوفالوف طرف حامل الخبز يهوى الى الارض ، وبدأ يجمع أطراف لحيته فى حيرة . بينما عادت القادمة تتساءل : « هل يعمل هنا كونوفالوف الخباز ؟ »

وكانت اذ ذاك تقف فى المدخل ، وقد تساقط ضوء المصباح المعلق على رأسها مباشرة ، فاذا به ملتف فى شال من الصوف الأبيض ، أطل من بين ثناياه وجه جميل مستدير ، ذو أنف دقيق أشم ، وخدين مستديرين تبدو خلالهما غمازتان اذا ما انفرجت الشفتان الشديدتا الحمرة عن ابتسامة . وأجبت : « أجل » . واذ ذاك صاح كونوفالوف فى فرح:« أجل،أجل !» . وترك الطرف الآخر لحامل الخبز يهوى ، ثم اتجه نحوها بخطوات واسعة ، فهتفت وهى تشهق اذ رأته : « ساشا ! » وأحاط كل منهما صاحبه بذراعيه ، وقد انحنى كونوفالوف



ليقترب راسه من راس الفتاة ، وراح يقول فى شـوق وهو ما يزال عند المدخل ، وذراعاه تحيطان بكتفيهـا وخصرها : « كيف حالك ؟ ومتى جئت الى هنـا ؟ . . ! . . أانت الآن حرة ؟ حسنا ! . . هل تبينت صدق ما أنبأتك به ؟ . . الآن تمتد الطريق أمامك واضحة ، ممهدة ، فسيرى قدما ولاتخشى شيئا ! » . . ثم التفت نحوى قائلا : « قم وحدك بالعمل اليوم يا مكسيم ، اذ سأعنى أنا بالسـيدة . اين تزمعين الاقامة يـا كابا ؟

ـ هنا . . معك !

ـ هنا ؟ . . انك لا تستطيعين الاقامة هنا ، فهذا المكان معد للخبز ، ثم ان . . غايةمافى الامر انك لا تستطيعين الاقامة هنا ، فان مخدومنا رجل جد صارم . يجب أن نأويك فى مكان آخر الليلة . . ربما وجدنا لك مكانا فى فندق . . هيا ، تعالى !

***

• **وخرجا** ، فمكثت أعنى باعداد الخبز وانضاجه ، غير متوقع أن يعود كونوفالوف قبل الصباح . بيد انه عاد بعـد ثلاث ساعات لفرط دهشتى . . وتضاعف عجبى عندما وجدته ـ لأول نظرة الى وجهه ـ بادى الاعياء والتجهم ، بدلا من أن يكون مشرق الاسارير ، سعيدا ، كما كنت أحسبه . لذلك

سألته ـ وأنا حائر ـ عما كان قد ألقى بصديقى الى هذه الحال التى لا تناسب الظروف : « ما الذى جرى ؟ » . فأجاب فى وجوم : « لا شىء » . ولم يلبث بعد لحظة أن بصق ، فقلت مصرا على أن أعرف ما حوله : « ولكن ، مهما تكن . . . »، فقاطعنى وهو يستلقى على الأريكة الخشبية ، قائلا فى اكتئاب : « ماذا يعنيك ؟ . . مهما تكن ، مهما تكن . . مهما تكن فانها امرأة ! »

واقتضانى حمله على التفسير جهدا كبيرا . اذ قال فى النهاية ما نصه تقريبا : « أقول لك انها امرأة . . ولو لم أكن احمق غبيا لما حدث كل هذا . . أتفهم ؟ . . انك لا تفتأ تقول ان النساء مخلوقات آدمية مثلنا . انهن حقا يسرن على قوائمهن الخلفية (الاقدام) ، وهن حقا لا يتغذين على الأعشاب ، كما انهن يعرفن كيف يتكلمن ويضحكن ، ولكنهن مع ذلك لسن مخلوقات آدمية من نوعنا . . لماذا ؟ . . لست ادرى . كل الذى أدريه انهن لسن من صنفنا ! . . خذ « كابيتولينا » هذه مثلا . لقد قالت : « أريد أن أعيش معك كزوجة لك . . أريد أن أتبعك ككلبة ! » ، فهل سمعت خطلا يفوق هذا ؟ . . فقلت لها : « اسمعى يا حبيبتى ، انك تهذين . . احكمى بنفسك . . كيف يتسنى لك ان تعيشى يوما معى ؟ . . اننى ـ قبل كل شىء ـ سكير . وثانيا ، أنا لم أوت سقفا آويك تحته . . ثم اننى ـ ثالثا ـ جواب آفاق ، لا أقوى على العيش طويلا فى مكان واحد . . » ، وهكذا مضيت فى تعداد الاسباب ، ولكنها صاحت : « فلتذهب الخمر الى الجحيم . . ان كل العمال سكيرون ، ولكنهم مع ذلك متزوجون . أما عن السقف الذى يظلك ، فلو ان لك زوجة لصار لك سقف ، واذ ذاك لا تعود بك رغبة فى التشرد والترحال » . . فقلت : « لا يا كابا ، اننى لا أصلح لهذا اللون من الحياة ، ولن أصلح له يوما ما » . بيد انها قالت : «اذن فسألقى بنفسى فى النهر ».

فقلت : « يالك من حمقاء صغيرة ! » . واذ ذاك راحت تصب سخطها على رأسي: « ايها الخنزير ، الشرير .. أهكذا تخدعنى؟ .. يالك من قملة طويلة السيقان ! » ، واسترسلت فى السباب حتى كدت أفر من وجهها ، واذ ذاك انخرطت فى البكاء . وأخذت تبكى وهى سادرة فى لومى : « لماذا حملتنى على المجىء الى هنا ما دمت لا تريدنى ؟ .. لماذا جعلتنى أترك المكان الذى كنت فيه ؟ .. وما الذى أفعله بنفسى الآن ، ايها الاحمق اللعين ؟ » .. حسنا ، ما الذى ترى فى وسعى أن أفعله من أجلها ؟»

وسألته : « فلماذا اذن حملتها على المجىء الى هنا ؟ »

ـ لماذا ؟.. يالك من شخص عجيب !.. **لاننى كنت أرثى لها .. أى امرىء خليق بأن يشعر بالاسى اذا ما رأى شخصا يغوص فى الطين .. أما اذا تطور الأسى الى درجة أن أربط نفسى الى هذا الشخص ، فهذا ما لن تراه منى فى عمرك كله !.. لن أوافق قط على أمر كهذا !..** أى رب أسرة أصير ؟.. لو أن هذه هى الغاية التى أتوق اليها ، لكنت قد تزوجت منذ زمن طويل، فما أكثر المناسبات التى عرضت لى .. وما أكثرالزيجات الدسمة التى صادفتنى . ولكن أنى لى أن أقدم على شىء فوق طاقتى ؟ .. الا أنها تبكى طيلة الوقت ، وهذا أسوأ ما فى الامر طبعا ، ولكن ماالذى أملكه لها ؟.. اننى لا أستطيع أن أتزوج »

وهز رأسه يؤكد العبارة التى أطلقها بلهجة حزينة : « لا أستطيع أن أتزوج ! » . ثم نهض عن الاريكة ، وراح يتحسس لحيته بيديه ، وهو يذرع أرض المخبز ، منكس الرأس، يرسل بصاقه بين حين وآخر كدليل على اشمئزازه . وأخيرا قال : « مكسيم ! » .. وكان فى لهجته رجاء وضراعة ، وهو يسترسل قائلا : « لعلك تقبل أن تذهب فتخبرها بجلية الامر . هه ؟.. كن طيبا واصنع هذا الجميل ! » .. فسألته : « وما الذى أقوله لها ؟ » .. قال : « قل لها الحقيقة بحذافيرها .. قل

اننى لا أستطيع الزواج ، لانه لا يتفق وطبيعتى .. أو ، قل لها .. قل اننى مصاب بداء ما ! » . فضحكت قائلا : « ولكن هذا غير صحيح ! »

ـ لا ، ولكنه عذر صالح ، أليس كذلك ؟.. ألا لعنة الله على الامر كله .. ياله من مأزق !.. ما الذى أفعله بزوجة فى هذه الدنيا ؟ !

وطوح بيديه فى قنوط واضح ، مشيرا الى أنه لا يستطيع أن يتخذ لنفسه زوجة . ومع أن الطريقة التى شرح بهاقضيته كانت مضحكة ، الا أن الجانب الاليم منها جعلنى أتساءل : ما الذى سيكون من أمر الفتاة ؟ .. وظل يذرع المكان ، وهو يتكلم وكأنه يخاطب نفسه : « ثم اننى لم أعد أحبها .. ولا أتفه الحب . لسوف تعمل على أن تشدنى اليها ، وعلى أن تمتص قواى . انها تحسب أنها وجدت فى زوجا . أف لها !.. انها ليست ذكية ، ولكنها ماكرة ! »

ولم يكن ثمة شك فى أن هذه الافكار انما واتته بايحاءغريزة حب التنقل متحررا من كل قيد .. كانت هذه الغريزة تدافع عن نفسها .. كان حب الحرية الجامح يشعر بالخطر الذى يتهدده !

وأخذ كونوفالوف يقول فى زهو : « ولكننى لا أستدرج بمثل هذا الطعم !.. اننى سمكة كبيرة لعمر الحق !.. لسوف أريها ، و .. و .. لم لا أفعل ؟ » . ووقف فى وسط المكان مخلدا الى التفكير ، وعلى شفتيه ابتسامة تتراقص . وحاولت أن أعرف ما انتهى اليه رأيه ، وأنا أشهد دلائل النشاط تطفح على أساريره .

وفجأة قال : « مكسيم .. لنرحل من هنا ! »

***

• **وكان** هذا بعيدا عن كل توقع ، اذ كنت قد رسمت بعض خطط تعليمية أدبية ، تتركز كلها حوله .. كنت أرجو

أن أعلمه القراءة والكتابة ، وأن أنقل اليــه كل ما حصلت من معرفة حتى ذاك الوقت. وكان قد وعد بأن يبقى طيلة الصيف، الامر الذى بدا أنه يسهل على مهمتى ، ولكن .. ما العمل الآن؟ وقلت له أخيرا : « انك تهذى » ، فرد قائلا : « اذن فماذاترانى افعل ؟ »

وحاولت أن أنبئه بأن نوايا « كابيتولينا » لم تكن جديةالى الدرجة التى كان يخالها ، وأن من الجدير به أن ينتظر ليرى ما يحــدث . والواقع انه لم تكن ثمة حاجة الى الانتظار . ففيما كنا جالسين على الارض ، فى مواجهة الفرن ، وظهرانالى النافذة ، وقد اقترب الليل من الانتصاف ، وانقضت ساعة ونصف الساعة على عودة كونو فالوف .. فيما كنا كذلك ، اذا بصوت زجاج يتهشم على حين غرة ، ثم اقبل حجر كبير مارقا الى الارض . وقفزنا مذعورين وهرعنا الى النافذة ، وصــاح شخص ما : « أخطأت !.. لم تصب الهــدف ..أووو .. لو أن ... » ، فانبعث صوت أجش عميق : « هلمى .. هلمى .. لسوف أسوى الحساب معه فيما بعد » . **وانساب خلال زجاج النافذة المهشم ، ضحك هستيرى .. ضحك امرأة ثملة، يائسة .. ضحك رفيع حاد ، يثير غيظ المرء .. فقــال** كونو فالوف فى أسى : « أنها هى ! »

ولم أستطع أن أرى شيئا اللهم الا ساقين تتأرجحان عند فراغ النافذة .. وكانتا تحاولان أن تتدليا ، فيرتطم الكعبان بالحائط ، وكأنهما يبحثان عن شىء يستقران عليه ! .. وتمتم الرجل : « هيا ! » ، فصاحت به : « دعنى !.. كف عن جذبى!. دعنى أقول ما بنفسى !.. وداعا ياساشا!.. وداعا ، يا .. »، ولا سبيل الى ذكر ما تلا ذلك من نعوت . وازددت اقترابا من النافذة لاتمكن من رؤية « كابيتولينا » ، فاذا بها تنحنى على النافذة متشبثة بحافة الرصيف ، تحاول أن ترى ما بداخل المخبز ، وقد تهدل شعرها على صدرها وكتفيها .. وكان شالها

الابيض قد انزاح عن راسهـــا ، بينما انشقت ياقة ثوبها .. كانت « كابيتولينا » ثملة ، وقد اخـذت تترنح من جانب الى آخر ، وحلقها يغص بالفـــواق « الزغطة » ، وبالسباب ، وبالصراخ المختبل .. وكانت ترتجف ، وقد تمزقت ثيابها ، وتضرج وجهها وبللته الدموع .. وكان ثمة رجل طويل ينحنى فوقها ، وهو لا ينفك يصيح بها : « هيا ! » ، وقد وضع يدا على كتفها ، واليد الاخرى على جدار المبنى ..

ـ ساشا !.. لقد كنت أنت سبب دمارى ، فتذكر هذا ! ليلعنك الله أيها الشيطان ذو اللحية الحمراء !.. الا ليتك لم تولد .. لقد كنت أعتمد عليك ، فاذا بك تبصق فى وجهى ، حسنا ، لا بد من أن نسوى الحساب يوما !.. أتختفى منى ؟ لعلك خجل من نفسك أيها الوحش ذو الوجه الخنزيرى .. ساشا ! .. ياحبيبى ! » . وقطع عليها كونوفالوف حديثها ، قائلا فى صوت محتبس ، وقد ركع على الاريكة الخشبية المواجهة للنافذة : « لست مختبئا من أحد .. لست مختبئا ! وماينبغى أن تزعمى شيئا من هذا القبيل ، لقد أردت أن أعاونك ، وكنت أخال انك ستجنين خيرا من وراء مساعدتى ، ولكنك أفســدت كل شىء ! »

ـ ساشا ، هل لك أن تقتلنى ؟

ـ لماذا أسرفت فى الشراب ؟ .. منذا الذى يعرف ما قد يسفر عنه الغد ؟

ـ ساشا !.. ساشا !.. الا اغرقنى !

وانبعث صوت الرجل الثمل الذى كان يرافقها ، قائلا : « كفى .. تعالى ! »

ـ أيها الفاسد ! .. لماذا تحمل نفسك على اصطناع الوقار ؟

ـ ما هذا الشجار ؟.. من هؤلاء ؟

وقطع الحديث صفير الشرطى الساهر على الحراســة ، فخفتت الاصوات ، ثم عادت الفتاة تقول : « لماذا وثقت بك أيها

الشيطان ؟ » .. وانبعثت شهقاتها باكية . وفجأة ابتعدت ساقاها ، ثم سمعناها تجر قدميها وتختفى فى الظلام . وتلا ذلك أصوات غير واضحة ، وجلبة وعراك . وصاحت الفتاة فى استماتة : « **لاأريد الذهاب الى مركز الشرطة !.. سا ـ ا ـ ا ـ شا !** » . **ولكن دوى خطوات ثقيلة انبعث على الرصيف ، أعقبه صفير ، وزمجرة ، وصراخ : « سا ـ ا ـ ا ـ شا ! .. ساشا .. ياحبيبى ! » . وبدا النداء كصوت شخص يعانى عذابا وحشيا ..** وما لبث كل هذا الضجيج أن ابتعد فى جوف الليل ، وازداد خفوتا شيئا فشيئا ، حتى تلاشى كما يتبدد حلم بغيض !

* * *

. **وكنت** وكونوفالوف مشدوهين لما جرى ، حتى أننا ظللنا نحدق فى جوف الظلام ، عاجزين عن أن ندفع عنا تأثير الصرخات ، والشهقات ، واللعنات ، والزمجرة ، وصياح الشرطى . وخيل الى اننى عاجز عن أن أقنع نفسى بأن كل هذا جرى فعلا .. فما كان أقصر الوقت الذى مثلت فيه هذه المأساة الشديدة التأثير !.. وقال كونوفالوف أخيرا فى اكتئاب واقتضاب : « انها النهاية ! » . وأخذ يصيخ السمع خلال سكون الليل المظلم ، وهو يحدق فى الظلام فى سكينة قاسية، صارمة . وسكت لحظة ، ثم عاد يقول وهو لا يزال راكعا على الاريكة ، معتمدا بمرفقيه على حافة النافذة : « ياللاقوال التى وجهتها الى !.. اذن فقد ألقى الشرطى القبض عليها .. وهى ثملة .. ومع ذلك الوغد ، الثمل !.. لم تستغرق وقتا يذكر فى تقرير مصيرها ! »

وأرسل زفرة عميقة ، ثم بارح الاريكة ، وجلس على أحد أكياس الدقيق ، محتويا رأسه بين راحتيه ، وراح يتمايل من جانب الى آخر . ثم قال وهو يصر على أسنانه : « الا نبئنى يامكسيم .. ما الذى جرى ؟.. فسره لى ، وقل لى ما الذى

أفعله ازاءه ! » .. وحدثته ! .. **قلت ان على المرء أن يعرف حقيقة مايبغى ، قبل أن يقدم على أى تصرف ، وأن يتبصر ماقد تقوده اليه أية خطوة ، قبل أن يقدم عليها ! .. واذ لم يكن قد حاول أن يعرف ، ولا حاول أن يتبصر ، لذلك كان وزر ماحدث واقعا عليه !** .. وكنت قاسيا فى لومى له ، اذ كان نداء الرجل الثمل : « هيا .. هلمى ! » ، وأنين « كابيتولينا » وصرخاتها ما تزال ترن فى أذنى ، فلم أرحم صديقى ! .. وراح من ناحيته يصغى وهو منكس الرأس ، فلمافرغت ، تطلع الى ، فتبينت انه مأخوذ ، وجل .. وقال متلعثما : « لاحيلة فيما جرى ! .. ما الذى سيجرى بعد ذلك ؟ .. ما الذى ينبغى أن أفعله ؟ .. ما الذى ينبغى أن أفعله معها ؟» .. وكان فى اعترافه بذنبه شىء من سذاجة الطفل وحيرته ، مما جعلنى أشعر لفورى بالاسف من أجله ، والندم على غلطتى فى الحديث اليه !

وسألنى وهو نادم راغب فى التوبة : « لماذا حملتها على الحضور الى هنا ؟ اللعنة على الامر كله ! .. ما الذى تراه يساورها الآن بشأنى ؟ سأذهب الى مركز الشرطة وأحاول اخراجها .. لسوف أقابلها ، و .. أبذل مافى وسعى . سأخبرها .. متعللا بأية علة . هل أذهب ؟ » . فقلت اننى لا أرى أية جدوى من مقابلته اياها ، اذ ما الذى لديه ليقوله لها ؟ .. فضلا عن انها كانت ثملة ، ومن المحتمل أنها نامت فى هذه الاثناء . ولكنه كان قد عقد العزم على الذهاب .. ومن ثم قال : **«لسوف اذهب .. اننى رغم كل شىء ، جد راغب فى مساعدتها . ان أولئك الشرطة لن يعنوا بها مطلقا . لسوف أذهب ، وعليك أن تعنى بالعمل هنا . لن ألبث أن أعود ! »**

وشد طاقيته على رأسه وانصرف ، ناسيا أن يرتدى الحذائين الباليين اللذين كان يعتز بهما ، بينما أتممت أنا عملى ثم نمت . فلما استيقظت فى الصباح والتفت ــ كالعادة ــ الى الركن الذى اعتاد كونو فالوف أن ينام فيه ، لم أجده هناك . **ولم**

يظهر الا حوالي الغروب ، وكان واجما ، أشعث ، تتخلل جبينه غضون عميقة ، ويغيم على عينيه الزرقاوين ظل قاتم . واتجه الى المعاجن دون أن ينظر الى ، فتفقد ما أعددت ، ثم استلقى على الارض دون أن ينبس ببنت شفة ، فقلت أسأله : « هل رأيتها ؟ »

ــ هذا ما ذهبت لاجله .. أليس كذلك ؟

ــ حسنا ، فما الذى حدث ؟

فقال فى اقتضاب : « لاشيء ! » . وبدا جليا انه لم يكن راغبا فى الحديث ، فلم ارهقه بالاسئلة ، مطمئنا الى أن هذا الاكتئاب مصيره الى الزوال حتما . واقتصر حديثنا طوال اليوم التالى على كلمات موجزة كان العمل يتطلبها . وكان طيلة الوقت يغض بصره الى الأرض ، والظل القاتم مايزال يغيم على عينيه ، كما كان عندما عاد . وأخذ يعمل فى تباطؤ ، وفى غير تحمس ، وأفكاره تثقله . فلما دفعنا الى الفرن بالدفعة الاخيرة من الخبز فى ذلك المساء ، وخشينا أن ننام حتى لاتحترق ، قال لى : « اقرأ لى شيئا من كتاب ستنكا »

* * *

• وشرعت أقرأ وصف تعذيب ستنكا واعدامه ، اذ كان هذا هو الجزء الذى يهيج عواطفه، فتمدد مستلقيا على الارض ، ومتطلعا بعينين لاتطرفان نحو السقف المحدودب المكسو بالسناج (الهباب) . ومالبث أن قال فى تباطؤ : « اذن ، فبهذه الطريقة تخلصوا من الرجل . ومع كل هذا ، فقد كانت الحياة اذ ذاك أسهل مما هى اليوم .. كانت أكثر حرية ! .. كان ثمة شيء تنفق فيه طاقتك من القوة ، على الأقل . اما اليوم ، فكل شيء هادىء ، وادع .. جد وادع ، لو انك تأملته بنظرة مجردة ! .. كتب ، وعلم ، وما الى ذلك ، فلا قتال ولا صراع ! .. ولكن المرء يعيش فى وحدة ، فليس ثمة من يقف الى جانبه ولا من يعنى به ! .. ومن المحظور أن ترتكب ذنبا ، ولكن من

المستحيل أن لاتذنب .. ومن ثم فهناك نظام يحكم ما هو خارج النفس البشرية ، وأن كان ثمة تضارب فى جوفها .. على أنه لم يعد فى وسع انسان أن يفهم انسانا آخر ! »»

فسألته : « وكيف حالك مع كابيتولينا ؟ » . فأجاب وهو ينتفض : « ماذا ؟ .. مع كابا ؟ .. لقد انقضى كل شيء ! » . وأشار بيده يؤكد قوله ، فسألته : «اذن فقد قطعت الروابط؟» .. فقال : « لست أنا الذى قطعها ، وانما هى نفسها ! » . وتساءلت : « وكيف ؟ »

ـ بكل بساطة .. أصرت على غايتها ، ولم تشأ أن تتزحزح عنها . ومن ثم عدنا الى ماكنا عليه . كل ماهنالك انها لم تكن تعاقر الخمر ، فأصبحت تفعل . الا استخرج الخبز من الفرن ، لأننى سأنام ؟

وساد الهدوء المخبز . وكان المصباح يرسل دخانا من وقت الى آخر ، اذ كانت ثمة ريح باردة .. وأخذت قشرة الخبز الناضج تبعث صوتا وهى تتشقق على الارفف . ووقف العسس (شرطة الليل) لدى نافذتنا فى الخارج ، يتحدثون .. وكان ثمة صوت آخر ينساب بين الفينة والفينة ، لعله كان صرير اللافتة المعلقة فى الخارج .. وربما كان أنين شخص ما !

وأخرجت الخبز من الفرن ، ثم استلقيت ، ولكننى لم اجد الى النوم سبيلا . وقنعت بالاستلقاء ، ورحت أنصت الى الأصوات التى كانت تنساب فى الليل ، وقد أطبقت جفونى على عينى فى نصف اغماضه . وفجأة ، رأيت كونوفالوف ينهض فى هدوء ، ويسير الى الرف فيتناول كتاب كوستوماروف ، فيفتحه ويقربه من عينيه . ولمحت أمارات التفكير على وجهه واضحة ، فراقبته ، واذا به يحرك أصبعه على السطور المطبوعة ، وهو يهز رأسه . ثم قلب الصفحة ، وراح يتأملها فى اهتمام ، ومالبث أن نظر نحوى .. وكان يسيطر على وجهه المكدود شيء غريب .. شيء كثيف .. شيء متفحص ، متسائل ،



مدقق ! .. وظل يتأملنى طويلا بنظرة ما رأيته قط يصدر مثلها من قبل ! .. ولم أقو على كبح فضولى ، فسألته عما كان يفعل . واذ ذاك ، قال كالمعتذر : « ظننتك نائما »

ثم أقبل والكتاب فى يده ، فجلس بجانبى ، وقال مترددا : « اسمع ، هاك ما أردت أن أسألك عنه . **أليس ثمة كتاب يبين قواعد الحياة ؟ .. يعلمك كيف تتصرف ؟ .. ان الذى أصبو الى معرفته هو : ما الذى يعتبر فعله خطأ ، وما الذى يعتبر صوابا ؟ .. ان الأشياء التى آتيها تسقمنى وتحيرنى . فهى تبدأ بداية طيبة ، ولكنها تنتهى الى سوء !** خذ مسألة كابا مثلا »

.. وأرسل زفرة حرى ، ثم قال متوسلا : « أرجو أن تحاول العثور على كتاب كهذا فتقرأه لى » . وصمت برهة ، ثم قال : « مكسيم ! » ، فقلت : « ماذا ؟ »

ــ آه من تلك الاقوال التى رمتنى بها كابيتولينا !

ــ ما لها ؟ .. ألا انسها !

ــ لم يعد للأمر أهمية الآن بالطبع ، ولكن قل لى .. هل كانت على حق فيما قالت ؟

وكان السؤال محرجا ، ولكننى لم البث أن قلت ــ بعد لحظة من التفكير ــ انها كانت على حق .. فاستلقى على

« الحصيرة » التى كانت مفروشة على الارض ، وتقلب عدة مرات، ثم نهض فأشعل سيجارة ، وجلس عند النافذة . وما لبث أن عاد فاستلقى على الارض . وغلبنى النوم فى النهاية . فلما استيقظت، كان قد غادر المخبز . ولكنه أقبل فى المساء ، وكأنما كانت تكسوه طبقة من التراب .. وكان فى عينيه الزرقاوين تعبير جامد . وطوح بطاقيته على الرف ، وتنهد ، ثم جلس بجوارى، فسألته : « أين كنت ؟ » . وأجابنى : « ذهبت أزور كابا » . فقلت : « وبعد ؟ »

ــ لقد انتهى كل شىء أيها الزميل ، كما قلت لك

قلت محاولا أن أسرى عنه : « ليست ثمة حيلة مع من هن على شاكلتها ! » ، واتبعت ذلك ببضع كلمات عن حكم العادة ، وبعض عبارات تناسب المقام . وظل كونوفالوف جالسا يحدق فى الأرض ، دون أن ينبس ببنت شفة ، حتى اذا فرغت من حديثى قال : « لا ، انك مخطىء ، فليس هذا لب المسألة . **الحقيقة اننى كالوباء ! .. اننى لم أخلق لأعيش فى الدنيا لأننى أنفث سما ، فما أن يقربنى امرؤ حتى يتسمم ! .. اننى لا أمنح أحدا غير الأسى . ولو أنك تأملت حياتى جيدا ، لتساءلت معى : من الذى أسعدته يوما ؟ .. اننى لم أسعد أحدا ، رغم اننى عرفت أناسا كثيرين فى حياتى .. ان فى كيانى شيئا فاسدا !** » .. فقلت : « هراء ! » . ولكنه هز رأسه شأن المقتنع ، وهو يقول : « بل هى الحقيقة »

وحاولت أن أبرهن له أنه على خطأ ، ولكن ماقلته لم يزده الا اقتناعا بأنه لم يكن يصلح لأن يعيش فى الدنيا !

❊ ❊ ❊

• **واعتراه** بعد ذلك تغير سريع ، شامل ، فأصبح متراخيا، شارد البال ، صامتا ، ميالا الى الوحدة .. وفقد اهتمامه بالكتب ، ولم يعد يقبل على العمل بنفس الحماس القديم . وصار فى أوقات فراغه يستلقى على الأرض ، ويروح يحدق

فى السقف المحدودب . وغار خداه ، وفقدت عيناه بريقهما الصبيانى الصافى . وسألته مرة : « ماذا بك ياساشا ؟ » .. فقال : « لقد بدأت النوبة تجتاحنى ، ولن البث أن اقبل على الاسراف فى تناول الفودكا .. ان جوانبى تحترق وكأنها تكتوى بنار . لقد آن الأوان ، ولولا ما جرى ، لكان فى وسعى أن أقاوم فترة أخرى . لا بأس ، ليكن مايكون . ولكن ، بماذا تفسر ماجرى ؟ .. لقد حاولت أن أسدى خيرا الى شخص ، فاذا به ينقلب الى العكس تماما . **اننا فى حاجة الى قواعد ترشدنا الى التصرف ياصاحبى . افمن العسير حقا وضع هذه القواعد ، حتى يكون تصرف الناس واحدا ، وحتى يفهم احدهم الآخر ؟ ! .. كيف تتسنى مطالبة الناس بأن يعيشوا معا وهذا الفراغ الكبير قائم بينهم ، يفصل كلا منهم عن الآخر؟ .. أليس لديهم من العقل ما يرشدهم الى أن عليهم أن ينظموا الحياة ، وأن يستوثقوا من أن كل امرىء يعرف ما له وما عليه؟ .. يا الهى ! »**

واستغرق فى فكرة تنظيم الحياة الى الحد الذى لم يحفل عنده بما رحت أقوله له . ولاحظت أنه اخذ يتحاشانى بعد ذلك . وفى ذات يوم ، لم يكد يسمعنى أعرض آرائى عن مقدرة الانسان على اعادة تشكيل حياته ـ وكنت أرددها عليه للمرة المائة ـ حتى انفجر صائحا :

ـ اسكت ! لقد سمعت هذا كله من قبل . ليس الذنب ذنب الحياة ، وانما هو ذنب الناس .. انهم العنصر الرئيسى .. أتفهمنى ؟ هذا كل ما فى الأمر .. ان على الناس ـ وفقا لما تقول ـ أن يقبعوا ويمكثوا على ما هم فيه ، حتى تتبدل الاحوال . ولكن ، لا .. بدل الناس أولا .. حولهم .. ارهم كيف يتصرفون ، واذ ذاك يصبح كل شىء واضحا ، واذ ذاك لا يعترض كل منهم طريق الآخر . هذا ما يجب ان نفعله للناس .. علمهم كيف يسيرون فى الطريق الصحيحة !

وكنت اذا هممت بأن اجادله ، فقد زمام عواطفه ، أو وجم واعرض ، واكتفى بأن يقول : « آه ، دعنى وحيدا ! »

وغادر المخبز ذات مرة فى المساء ، فلم يعد الى العمل فى تلك الليلة ، ولا فى النهار التالى ، بل جاءنى صاحب المخبز مهموما ، وقال : « لقد عاودت النوبة ساشا ، فهو جالس الآن فى حانة « الجدار » .. لا بد لنا من ان نعثر على خباز آخر ! »

– ربما نجا من هذه النوبة ..

– لا أمل هناك ، فأنا أعرفه !

وذهبت الى « الجدار » ، وهى حانة حفرت بمهارة فى جدار قلعة قديمة ، مما جعل صاحبها يخلع عليها هذا الاسم . وكانت أهم المعالم التى تمتاز بها هي انها لم تؤت نافذة واحدة، بل كان الضوء ينفذ اليها خلال كوة فى السقف . وكانت تعبق برائحة التراب ، والجعة ، والفودكا ، كما انها كانت دائما مزدحمة بأشخاص يثيرون الشبهات ، اعتادوا التردد عليها حتى أصبحوا عملاء دائمين ، يقضون أياما بطولها مستلقين بداخلها ، فى ارتقاب قدوم عامل عامر الجيب ، ليظلوا يشربون على نفقته ، حتى يبيع القميص الذى يستر جسمه !

وكان كونوفالوف يجلس الى مائدة كبيرة فى وسط الحانة ، يحيط به ستة من « السادة » فى اسمال بالية ، ولهم وجوه تشبه وجوه الشخصيات التى وردت فى قصص « هوفمان » .. وكانوا يصغون اليه فى اهتمام يشوبه الرياء ، وهم يجرعون الجعة والفودكا ، ويقضمون شيئا كأنه كتل من الطين . بينما راح هو يهيب بهم : **« اشربوا يا صحاب .. اشربوا ما شئتم ، فاننى أملك نقودا وثيابا تكفى للانفاق على شرابنا ثلاثة أيام .. ولسوف نشرب بها كلها و .. الى الجحيم بعد ذلك ! .. لست أريد أن أعمل هنا بعد الآن ، ولست أريد أن أعيش هنا يوما آخر ! »**

فقال شخص من الجلوس : « انها بلدة موبوءة ! » .. وصاح آخر متسائلا ، وهو يتطلع الى السقف : « العمل ! » ، ثم أردف بلهجة زاخرة بالتعجب : « وهل لهذا خلق الانسان ؟ » .. وشرعوا يتحدثون جميعا ، وفى آن واحد ، محاولين أن يبرهنوا لكونوفالوف على ان له الحق الكامل فى أن يشرب كيفما يشاء ، بل وانه مسوق بحكم القدر الى الشراب ، والى الشراب معهم بالذات . وعندما لمحنى كونوفالوف ، هتف : « آه .. هاهو ذا مكسيم وقد تشبع ببخار الخبز .. تعال يا دودة الكتب ، يا زنديق .. خذ قدحا ! .. لقد هربت من السجن نهائيا يا صاحبى ! .. الى الجحيم ! .. اننى أريد أن أغرق فى الشراب ثانية حتى منابت الشعر فى جسمى ، ولن أكف عنه الا عندما لا يتبقى لى سوى الشعر الذى يستر جسمى ! .. تعال ، وانضم الينا »

***

• **ولم** يكن قد ثمل تماما بعد ، فأومضت عيناه الزرقاوان انفعالا ، وراحت اللحية التى كانت تغطى صدره ـ كمروحة من حرير ! ـ تهتز مع ارتجاف فكه الاسفل . وكانت ياقة قميصه مفتوحة ، كما كانت قطرات دقيقة من العرق تلمع على جبينه ، وأخذت اليد التى قدم لى بها قدحا مليئا بالجعة تهتز .. فقلت وأنا ألقى براحتى على كتفه : « ارم هذا من يدك يا ساشا ، وتعال نخرج من هنا ! » .. فضحك قائلا : « أرميه ؟ .. لو انك قلت هذا منذ عشر سنوات ، لكان من المحتمل ان أرميه ، أما الآن ، فلا .. ماذا أملك أن أفعل غير هذا ؟ .. اننى أشعر بكل شىء .. كل شىء ، وأتفه حركة ، ولكننى لا أفقه شيئا ، ولا أدرى ما الذى ينبغى ان أفعل .. أؤكد لك اننى أشعر بكل شىء ، ولذلك فأنا أعاقر الخمر ، لأننى لا أجد شيئا آخر أفعله .. اليك .. اشرب ! »

ورمقنى زملاؤه فى استياء ظاهر .. وراحت اثنتا عشرة

عينا تتفحصنى فى عداء ، من رأسى الى قدمى .. كان التعساء يخشون ان أنتزع كونوفالوف من وسـطهم ، فأحرمهم من الفرصة التى كانوا ينتظرونها منذ زمن ! .. وعاد كونوفالوف يتكلم ، موجها الخطاب اليهم : « هذا زميـلى يا صحاب .. شاب متعلم ، لعنة الله عليه ! .. هل لك فى أن تقرأ شيئا عن « ستنكا » هنا يا مكسيم ؟ .. أى كتب لديه يا اخوة !.. أو ، فلتحدثنا عن بيلا يا مكسيم .. انه كتاب ملىء بالـدم والدمع ايها الأخوة ! .. ان بيلا هو .. أنا ! ألا تراه كذلك يا مكسيم ؟ .. وكذلك كان سيسويكا .. لعمر الحق ! .. اليك تفسير حقيقتى ! »

وتطلع الى بعينين مليئتين بالخوف ، وارتجف فكه الأسفل بدرجة عجيبة . وأفسح زملاؤه مكانا لى حول المائدة ، وهم كارهون ، فجلست بجانب كونوفالوف ، فى اللحظة التى رفع فيها الى شفتيه قدحا ملىء نصفه بالجعة ، والنصف الآخر بالفودكا ! .. وبدا أنه كان يريد بهذا المزيج أن يسكر نفسه فى أقرب فرصة . فلما احتساه ، تناول قطعة من المادة التي بدت لى كالطين — والتى تبينت أنها لحم مسلوق — وحـدق فيها لحظة ، ثم طوح بها الى حائط الحانة . وأطلق أصحابه زمجرة خافتة ، كقطيع من ذئاب جائعة ، بينما قال هو : **« اننى نفس ضائعة .. لم قدر لأمى ان تنجبنى فى هذه الدنيا ؟ .. لاأحد يعرف ! .. لماذا جئت الى هذه الدنيا القاتمة ، المزدحمة ؟!..** وداعا يا مكسيم ، ما دمت غير راغب فى ان تتناول قدحا معى ! .. لن أعود الى المخبز . ان صاحب المخبز مدين لى ببعض المال ، فخذه منه ، واحضره لى هنا .. سأشرب به . بل لا ، خذه واشتر به كتبا لنفسك .. أفهمت ؟ .. ألا تريد ؟ .. حسنا ، لست مكرها .. ولكنك ستكون خنزيرا اذا لم تفعل .. ألا ابتعد عنى ! ابتعد عنى كما أقول لك ! »

وطغي علي عينيه وميض عدائي حين ازداد تأثرا بالشراب ،

واصبح زملاؤه على استعداد لان يمسكوا بطوقى ، وان يطوحوا بى الى الخارج ، ومن ثم غادرت الحانة قبل أن يجدوا فرصة لذلك . على أننى عدت بعد ثلاث ساعات ، فاذا رفاق كونوفالوف قد تضاعفوا . وكانوا جميعا مخمورين ، ولكنه كان أقلهم ثملا ، وقد أخذ يغنى ، معتمدا بمرفقيه على المائدة ، بينما علقت عيناه برقعة من السماء لاحت خلال كوة السقف . واستلقى السكارى فى عدة أوضاع وهم ينصتون اليه ، وقد اصاب بعضهم الفواق (الزغطة) . وكان لكونوفالوف صوت قوى ، يحتفظ بقوة نبراته اذا علا مع طبقات اللحن العليا .. وراح يسكب أحزانه نغمات صادرة عن شعور عميق ، مسندا خده الى راحته ، مغمضا عينيه نصف اغماضه ، وقد برزت تفاحة آدم جلية فى عنقه .. بينما اتجهت اليه ثمانية وجوه ثملة ، خلت أساريرها من اية بادرة للشعور ، وران عليها الجمود .. وكانت الاصوات المنبعثة لا تتجاوز تمتمة أو فواقا بين وقت وآخر ! .. **وتهدج صوت كونوفالوف ، واستحال الى أنين ، ثم انقلب الى شجن .. كان سماع ذلك الرجل وهو يردد الغناء الحزين كافيا لكى يفطر القلب !**

وكانت الروائح الخانقة ، ووجوه السكارى المجللة بالعرق ، والمصباحان الزيتيان اللذان كانا يرسلان دخانا فى المكان ، والجدران المشوهة بالسناج ، والارض الطينية العارية ، والظلال الكئيبة .. كانت هذه كلها عوامل تبعث على السقم والضيق .. **فكأنما كان المنظر يمثل مأدبة رهيبة أقامها رجال دفنوا أحياء فى احدى المقابر .. وأخذ واحد منهم يغنى للمرة الأخيرة ، مودعا السماء قبل أن يموت !.. كانت أغنية صديقى مفعمة بالأسى القانط ، واليأس الهادىء ، والحنين الذى لاينطفىء !**

وقطع أغنيته ، وبسط لى يده قائلا : « أمكسيم هنا ؟ .. اتريد أن تصبح ياورا لي ؟ .. لقد أعددت كل شيء يا صاحبي،

فجمعت عصبة .. ها هم أولاء رجالي ، ولن نلبث أن نجد عددا آخر .. أجل ، لسوف نجد ، فليس هذا بالامر الشاق .. ولسوف ندعو بيلا وسيسويكا ، فنغذيهما باللحم والثريد في كل يوم .. أليس كذلك ؟ هل اتفقنا ؟ .. اذن فاحضر معك بعض الكتب ، حتى تقرأ لنا عن ستنكا والآخرين . آه يا صاحبي .. لقد سئمت كل شيء .. سئمت .. كل .. شيء ! » . ورفع قبضته ثم هوى بها بشدة على المائدة ، فارتطمت الزجاجات والأقداح بعضها ببعض ، واستوى زملاؤه جالسين في الحال ، وامتلأت الحانة بالضجيج . وصرخ كونوفالوف : « **اشربوا يا رفاق ! .. اغرقوا همومكم ! .. اجرفوها ! »**

وسرت فوقفت عند المدخل ، ورحت أصيخ السمع الى هذيان كونوفالوف الثمل ، فلما شرع يغني من جديد ، عدت الى المخبز ، تشيعني أصوات الاغنية الثملة ، التى ظلت تتردد في سكون الليل أنينا وشهيقا .. وبعد يومين ، اختفى كونوفالوف !

* * *

• **لا بد** للمرء ان يولد فى المجتمع « المهذب » الراقى ، اذا شاء أن يعيش فى هذا المجتمع طيلة حياته ، دون أن يصبو الى الفرار من عرفه الجائر — الذى اكتسب قداسته بفضل أكاذيب ضالة غدت مألوفة معتادة ، أو للهرب مما يتصف به هذا المجتمع من غش بشع ، وطائفية مقيتة ، ورياء بغيض .. أى من باطل الاباطيل ، الذى يبلد الاحاسيس ويفسد الفكر !.. **ولقد ولدت ونشأت خارج هذا المجتمع ، وبفضل هذه الظروف المواتية ، فانني لا أستطيع أن أتناول جرعات كبيرة من المدنية دون أن أحس بضرورة الفكاك من أغلال هذا المجتمع ، لكى أنشد التسرية — بين آن وآخر — وأتخفف من الرقى المعقد ، الكريه !**

والحياة فى القرية لا تقل أسى وثقلا على النفس عن الحياة

بين المثقفين المهذبين ، وخير ما تفعل فى مثل هذه الاوقات ، هو أن تلجأ الى العيش فى أدنى أحياء المدينة ، حيث الحياة بسيطة وصادقة رغم الاقذار المحيطة بها .. أو أن تهيم فى الطرقات ، وتضرب فى حقول وطنك .. وهى مغامرة منعشة الى حد كبير ، ولا تتطلب موارد أكثر من ساقين متينتين . ولقد خرجت منذ خمس سنوات فى احدى هذه المغامرات ، فقادتنى جولاتى فى اقليم (الروس) المقدس ، الى (فيودوسيا) وكان العمل فى انشاء حاجز الامواج فى الميناء قد بدأ فى ذلك الوقت ، فيممت شطر موقعه ، على أمل أن اكتسب بعض المال. وودت فى البداية أن أتأمل موقع السد كما يتأمل المرء صورة ، ومن ثم تسلقت تلا ، ورحت أطل على البحر الجبار الذى يمتد الى أقصى مرامى البصر ، وعلى المخلوقات الضئيلة التى كانت تعمل فى انشاء الحاجز لكبح جماحه !



وكانت الصورة التى تراءت لى ، صورة هائلة تمثل الجهد البشرى . فلقد حفر الشاطىء الصخرى ، وحفل بالاحجار ، وآلات الحفر ، والعربات ، وكتل الاخشاب ، وقضبان الحديد ، وآلات دق أعمدة الاسس المسلحة (خوازيق الخرسانة) ، والادوات الآلية . وتناثر العمال، يروحون ويجيئون

بين كل هذه المعدات . وكان أحد التلال قد نسف بالمواد المتفجرة ، وانهمك الرجال فى ازالة بقاياه بالمعاول ، ليمهدوا طريقا لخط حديدى . وكان الاسمنت يعجن فى أوعية هائلة ، ثم يصب فى قوالب يبلغ ارتفاع الواحد منها ستة أقدام ، كانت تدلى فى البحر ، لانشاء كتلة متينة تصد تيارات المد الجبارة . **وكان العمال يبدون ـ بالنسبة للتلال السمراء المحيطة بالموقع ـ كالاقزام الضئيلة .. وكالاقزام الدقيقة كانوا يعملون ، تحت شواظ شمس الجنوب الحامية ، وبين أكوام الصخر المهشم ، وركامات الاخشاب ، وقد بدوا ـ خلال سحب الاتربة ـ كما لو كانوا أطيافا** .. وكان الهواء الراكد مفعما بطنين الاصوات البشرية ، وجلبة العمل : رنين المعاول وهى ترتطم بالصخر ، وصرير عجلات العربات ، وتلك الهزات المكتومة الصادرة عن آلات دق الاعمدة المسلحة ، وعواء العمال وهم ينشدون أغنية « دوبينونشكا » ، وأصوات الفؤوس وهى تشق الكتل الخشبية ، والصرخات العديدة النبرات واللهجات ، والتى كانت تنبعث من الاشكال الآدمية المتباينة الملبس .. كل هذه كانت تضفى على المنظر حيوية نشيطة !

وفى ناحية من المكان ، كان العمال يزأرون ويزمجرون بأصوات عالية ، وهم يحاولون أن يدفعوا صخرة ضخمة .. وفى بقعة أخرى ، كان عمال آخرون يرفعون كتلة خشبية هائلة ، وهم يصيحون بصوت مشترك : « واحد .. اثنان .. ارفع! » ، فيردد سفح الجبل المحفور صيحاتهم فى صدى متداخل النبرات . وعلى طريق مؤلف من ألواح عريضة مشققة من الخشب ، كان ثمة موكب بطىء من رجال انحنوا على عربات يدوية صغيرة محملة بالاحجار ، بينما أقبل من الجانب الآخر رتل من العربات الفارغة ، يسير فى سرعة أبطأ من سرعة الموكب ، وكأنما كان أفراده يطيلون من فرصة الراحة . وحول احدى آلات دق أعمدة الخراسانة ، وقف جمع من العمال المتباينى

الملابس ، وقد انبعث من وسطهم صوت عال ، يردد :

اف يا رفاق ، انه حر جهنمى
اف يا رفاق ، انه عمل جهنمى !
أو-ى-ى .. دو-و-بينوشكا ،
واحد .. اثنــان .. و .. ارفعوا !

وانبعث ضجيج خافت من الرجال وهم يجذبون حبلا ، فارتفعت الاسطوانة المعدنية للآلة فى حركة انزلاقية ، ثم هبطت فى ارتطام شديد ، هز الآلة كلها . وكانت أسراب العمال ـ الذين بدوا ضئيلى الاجسام ، سمر الاشكال ـ تنتشر فى الارض بين التل والبحر ، تملأ الهواء غبارا وضجيجا ، وتشيع فيه رائحة العرق الكريهة ! .. بينما سار رؤساء العمال بينهم فى معاطف بيضاء ، ذات أزرار نحاسية كانت تلمع تحت أشعة الشمس وكأنها عيون صفراء !

***

• أما البحر ، فكان يمتد هادئا الى الافق المهتز وراء الضباب ، بينما كانت الامواج الصافية تتكسر فى رفق على الشاطىء . وكان تألق البحر تحت ضوء الشمس يلوح كابتسامة مستهينة من ابتسامات « جوليفر » وهو يرقب جهود أهل مملكة الاقزام لتقييده ، مطمئنا الى أنه يستطيع ان يهدم ثمار هذه الجهود بحركة واحدة لو أنه شاء ! .. كان البحر يستلقى متألقا ـ فى وهج يعشى الابصار ـ شاسعا ، قويا ورحيما فى آن واحد ، يرسل الى البر نسيما لطيفا لينعش أولئك المكدودين الذين كانوا يعملون دائبين لتقييـــد حرية أمواجه .. الامواج التى كانت اذ ذاك تلعق الشاطىء المشوه ، وكأنها تسرى عنـــه ! .. كأنما كان البحر يرثى لاولئك العمال .. فقد تعلم ـ على مر القرون ـ أن أولئك الكادحين ليسوا هم الذين يطوون الجوانح على خطط السوء الموجهة اليه .. فما هم سوى عبيد ، عهد

اليهم بالصراع مع عناصر الطبيعة .. وهى معركة تطمئن فيها عناصر الطبيعة الى أنها قادرة على أن تصب نقمتها عليهم !.. **ولكنهم لا يفعلون شيئا ، سوى أنهم يشقون ويكدحون .. انهم دائما يبنون ، وما عرقهم ودمهم ســوى « الاسمنت » الذى تقوم عليه كل المنشئات على وجه البسيطة .. ومع ذلك فانهم لا يجنون فى مقابل ذلك شيئا .. حتى وهم يسكبون قصارى قواهم فى المحاولات الدائمة لانشاء شىء ما .. وهى محاولات خلقت على الارض معجزات ، ولكنها لم تمنحهم أسقفـا فوق رؤوسهم ، أو غذاء كافيا لاجسادهم !**

بل ان هؤلاء الرجال أنفسهم ، عنصر من عناصر الطبيعة ، وهذا هو السر فى أن البحر يرقب فى رحمة ـ وليس فى نقمة ! ـ عملهم غير المجدى !.. ان هذه المخلوقات الضئيلة التى تحفر سفح التل أشبه بقطرات الماء التى ينثرها البحر على التـلال الصلدة المنيعة ، فى محاولته السرمدية لتوسيع حدوده !.. ان هذه المخلوقات هى أول من يهلك فى الصراع .. وهى فى مجموعها كالقطرات ، تربطها بالبحر رابطة من القربى ، اذ لا تختلف عنه فى شىء : فهى مثله قوية ، وهى مثله صـائرة الى دمار ، اذا مستها أنفاس العاصفة !

لقد عرف البحر فى الازمان السحيقة أولئك العبيد الذين انشأوا الاهرام فى جوف الصحراء .. ورقيق « اكزيركسيس » ، ذلك الحاكم المخبول الذى جلد البحر ثلاثمائة جلدة عقابا له على ان جرف الجسور التى أقامها عليه والتى كانت أشـبه بلعب الاطفال !.. **لقد ظل الرقيق سواء ، وعلى شاكلة واحدة ، فى كل العصور .. ظلوا دائما أتباعا ، وظلوا دائما يعانون سـوء التغذية ، وظلوا دائما يصنعون المعجزات ويقيمون المنشئات العظيمة .. أحيانا يقدسون أولئك الذين يسوقونهم الى العمل ، وكثيرا ما يلعنونهم ، ونادرا ما يثورون على حكامهم !**

.. وفى هدوء ، كانت الامواج تجرى الى الشاطىء الذى

كان كل أولئك الناس ينشئون عنده حاجزاحجريايصدحركتها المستمرة الدائبة .. وكانت تغنى وهى تجرى أغنية عذبة ، عن الماضى .. عن أولئك الذين شهدتهم قرنا بعد قرن،على سواحل هذه البلاد !.. وكان بين العمال أفراد ذوو أجسام نحيلة سمراء ، تعلو رؤوسهم عمائم أو طرابيش ، ويرتدون سترات زرقاء قصيرة ، وسراويل قصيرة منتفخة محكمة الالتفاف حول ركبهم . أولئك كانوا - كما عرفت فيما بعد - أتراكا من الاناضول . وكان حديثهم المنبعث فى لهجة تنطلق من أعماق حلوقهم يختلط بذلك الكلام البطىء ، الطويل الكلمات ، الذى كان يصدر عن الروسيين من أبناء (فياتكا) ، وبالعبارات السريعة ، الخشنة ، المنطلقة من أبناء الفولجا ، وبلغة أهل أوكرانيا الرقيقة ..

لقد كانت ثمة مجاعة فى روسيا ، وقد دفعت المجاعةالناس من كافة المناطق المنكوبة الى هذا المكان .. ولقد أنشأوا فيما بينهم جماعات ، ضمت كل فرد الى مواطنيه . **ولكن جوابى الآفاق - الذين يعتبرون الكون كله وطنا لهم - كانوا يظهرون من بينهم بسهولة ، نظرا لما لهم من شكل مستقل ، ولما لهم من ملبس وحديث يميزانهم عن أولئك الذين مازالت جذورهم راسخة فى أراضى مواطنهم .. الذين لم ينسوا الارض ، ولم يتركوها الا لفترة مؤقتة ، تحت ضغط الجوع !** .. فكنت ترى الجوابين فى كل جماعة ، يختلطون دون عناء مع أبناء فياتكا ، ومع الاوكرانيين ، ويشعرون أينما ذهبوا بأنهم فى ديارهم . على أن معظمهم اجتمع حول آلة دك الاعمدة الخرسانية ، اذ كان العمل هناك أسهل من العمل مع الحافرين بالمعاول ، أو الناقلين بالعربات !

***

• **وعندما** تقدمت من العمال المحيطين بالآلة ، كانوا

يقفون ممسكين بالحبل فى استرخاء ، فى انتظار امر رئيسهم ليخلصوا البكرة – التى كان الحبل يجرى حولها – من بعض خيوط القنب التى التفت حولها . وكان الرجل يقيم فى برج خشبى صغير ، ويصيح من وقت الى آخر : « شدوا الحبل شدة !» .. فيشدون الحبل فى غير تحمس ، ولا يلبث الرئيس أن يصيح : « كفوا !.. شدوا ثانية !.. امسكوا !.. حاولوا مرة أخرى ! » .. وما لبث منشد القوم – وهو شاب نامى اللحية ، ذو وجه تناثرت فيه آثار الجدرى ، وقامة عسكرية – ان نصب قامته ، وشد كتفيه ، وولى وجهه جانبا ليتنحنح ، ثم شرع يغنى : « ودفعها السائق الى الارض .. » ، وما كان أكثر الرقباء تساهلا ليسمح بنشر السطور التى تلت ذلك ، والتى بدا جليا أن المغنى نفسه نظمها بوحى الساعة !.. وأثارت الاغنية ضجيجا عاليا ، قابله المؤلف بأن راح يبرم شاربيه ، كما يفعل الممثل الذى اعتاد تصفيق النظارة !

وصاح رئيس العمال محنقا : « أليس لديكم ما تفعلونه سوى أن تصهلوا كالبغال ؟ » .. فأجاب أحد العمال قائلا : « خفف عنك ، والا انفجر أحد شرايينك يامتريتش ! » .. وبدا لى الصوت أليفا . وخيل الى أننى رأيت من قبل تلك القامة الطويلة ، العريضة المنكبين ، وذاك الوجه البيضاوى ، والعينين الزرقاوين .. أفمن المعقول أن يكون هذا كونوفالوف ؟.. ولكن كونوفالوف لم يكن يحمل تلك الندبة التى اعترضت جبين الرجل ، من أعلى صدغه الايسر حتى قصبة أنفه . ثم ان شعر كونوفالوف كان أغزر من شعر هذا الرجل ، وأقل تجعدا ، ولقد كانت لكونوفالوف لحية بديعة ، فى حين أن هذا الشاب كان حليقا ، ذا شاربين طويلين ، يمتد طرفاهما الى أسفل ، كشوارب أبناء أوكرانيا .. ومع كل هذه الفوارق ، فقد كان فى مظهره شىء جد مألوف لى . ومن ثم قررت أن أسأله عمن ألجأ اليه لاحصل على عمل . بيد اننى تريثت حتى يتم اصلاح الآلة ..



وراح العمال يزمجرون وهم يشدون الحبل بقـوة ، ثم قفزوا فجأة فى الهواء ، وكأنهم كانوا يحلقون . وانبعث من الآلة صرير ، ثم اهتزت .. وامتدت أذرع سمراء يكسوها الشعر ، الى الحبال التى كانت فوق رؤوس الرجال .. وظلت المطرقة الحديدية الثقيلة تنزلق هابطة شيئا فشيئا من علوها الشاهق ، ودقاتها على العامود لا تزداد الا ضعفا !

كان أى متفرج خليقا بأن يظن أولئك الرجال من عبـدة الاوثان ، وقد رفعوا أذرعهم وانحنوا – فى نشوة وتقوى ! – أمام معبودهم الصامت . وكان الهواء مفعما بالابخرة الحـارة المتصاعدة من وجوههم القذرة التى بللها العرق ، والتى التصق الشعر المتناثر بجباهها الندية .. كان العرق يتفصد من كل اجسامهم : من أعناقهم السمراء ، وأكتافهم المختلجة ، وابدانهم شبه العارية ، والتى لا تسترها سوى أسمال من كل نوع .. وكانت تلك الاجسام تمتزج لتؤلف كتلة متماسكة من الاعصاب ، اخـذت تتلوى فى الهواء الذى اختلطت فيـه الرطوبة بحرارة الجنوب ، والذى تشبع برائحة العرق !

* * *

• **وما لبث** ان صاح شخص بصــوت خشن أجش :
« انتهى وقت العمل ! »

وتراخت أيدى العمال ، فتهاوت الحبال حول الآلة ، ثم تهالك الرجال على الارض ، يجففون العــرق عن وجوههم ، ويملأون صدروهم بالهواء ، ويريحون ظهورهم ، ويتحسسون اكتافهم ، ويشيعون فى الهواء تمتمة خافتة بدت كزمجرة وحش غاضب !.. وتقدمت اذ ذاك من الشخص الذى أشرت اليه ، وقلت : « أيها الصديق ! » . **فالتفت نحوى متباطئا ، وأرسل بصره على وجهى ، ثم ضاقت حدقتاه ، واشتد تركز نظراته.. وهتفت به : « كونوفالوف ! » .. فقــال وهو يربت رأسى ، وكأنه يريد أن يتسلل بيديه الى حلقى : « مهــلا ! » .. ثم اشرق وجهه فجأة بابتسامة فرحة ، وصاح :**

ـ مكسيم !.. من يتصور هذا ؟.. أيها الزميل القديم ! اذن فقد قطعت أنت الآخر قيودك ، وانضممت الينــا معشر الشريدين ، الجوابين ؟.. هذا خير لك . متى أقدمت على ذلك؟ ومن أين قدمت ؟.. لسوف نجوب الارض كلها معا . ان تلك الحياة التى عشناها من قبل لم تكن بالحياة التى تلذ لنا، فليس فيها سوى الشقاء والكثير من المتاعب .. انهــا أضمن طريق للعدم والموت !.. اننى منذ تركتك لم أستقر فى مكان . وماأكثر الاماكن التى رأيتها !.. وياللهواء الذى استنشقته !.. ولكن لننظر اليك .. كيف كبرت بهذا الشكل ؟.. ما كان بالسهل على ان أعرفك .. فأنت فى ثياب جندى ، ووجه طالب .. ولكن ، ما هو شعورك نحو هذا اللون من الحياة .. حياة التنقــل من مكان الى آخر ؟.. لاتظننى قد نسيت ستنكا ، أو تاراس ، أو بيلا .. اننى اذكرهم جميعا !

وراح يخز جنبى بأصابعه ، ويضرب كتفى بكفه العريض. واذ عجزت عن أن أجد كلمة تناسب المقام ، ظللت واقفا ابتسم ،

محدقا فى وجهه الرحيم ، الذى أشرق بفرحة اللقاء .. وكنت أنا الآخر مبتهجا بلقائه كل الابتهاج ، فقد ذكرنى ذلك بالطريقة التى بدأت بها حياتى .. وكانت البداية خيرا مما أعقبها بلا مراء !

واستطعت فى النهاية أن أسأل صديقى القديم عما أحدث به تلك الندبة فى جبينه ، وعن الشعر الخفيف المجعد ، فقال : « آه .. اليك ما حدث . لقد فكرت مع زميلين فى أن نجتاز الحدود الرومانية ، أملا فى أن نتفقد الاحوال فى رومانيا .. فانطلقنا من (كاجولا) ، وهى بقعة فى (بيسارابيا) ، على تلك الحدود . وفيما كنا نشق طريقنا بهدوء – فى جنح الليل طبعا – اذا بصيحة تنبعث فجأة : « قف ! » .. ووجدناأنفسنا وجها لوجه مع حراس الجمارك . وولينا الادبار ، واذا بواحد منهم يصيبنى فى رأسى . ولم تكن اصابة خطرة فى الواقع ، ولكنها ألزمتنى المستشفى شهرا .. وتصور بعد ذلك ، أن الجندى – على ما تبين – كان من أبناء بلدتى الاصلية !.. كان من أبناء (مروم) !.. فقد نقل الى المستشفى بدوره بعد قليل ، اذ طعنه أحد المهربين بخنجر فى بطنه . وعندماتحسنت صحة كل منا ، بدأنا نتعارف ، اذ سألنى : « هل أنا الذى هشمت رأسك ؟ » ، فقلت : « مادمت تذكر الحادث ، فلا بد أنك صاحبه ! » .. قال : « أنت على حق ، لا بد أننى الذى فعلته ! .. ولكن يجب أن لا تحقد على ، فهذا واجبى .. لقد ظنناكم من المهربين . ولكن ، أنظر .. اننى الآخر قد تعرضت لمثل ما تعرضت له أنت ، فقد بقر المهربون بطنى .. لا حيلة فى ذلك ، فليست الحياة لهوا ! » .. وأصبحنا صديقين حميمين !.. ياله من ولد بديع .. كان اسمه ياشكا مازين .. أما هذا الشعر الخفيف المجعد ، فقد نجم عن « التيفويد » ، اذ أصبت بهذه الحمى . كانوا قد زجوا بى الى السجن فى (كيشينيف) لمحاولتي التسلل عبر الحدود ، وهناك أصبت

بالتيفويد . وكانت الاصابة شديدة الوطأة ، أبقتنى راقدا لمدة طويلة ، حتى ظننت أننى لن أقوم قط ، ولعلنى ما كنت لابرأ لولا أن عنيت بى احدى الممرضات عناية فائقة . وكان شفائى معجزة !.. فلقد رعتنى تلك الممرضة كما لو كنت طفلا، ولست أدرى ماالذى دفعها الى ذلك ، فما كنت ذا قيمة لديها . وكنت أقول لها : « دعك من أمرى يا ماريا بتروفنا ، فاننى فى خجل من فرط اهتمامك بى ! » ، فكانت تضحك منى .. كان لها قلب رحيم ! .. وكانت أحيانا تتلو على بعض الكتب الدينية عسى أن تنقذ روحى ، فكنت أقول لها : « أليس بوسعك أن تجدى شيئا آخر - غير هذه - للقراءة ؟ » .. ومن ثم أحضرت كتابا عن ملاح انجليزى غرقت سفينته عند جزيرة مقفرة ، فأقام بتلك الجزيرة .. انه كتاب يروق لك !.. لقد شغفت بهذا الكتاب ، وتمنيت لو أننى عشت مع هذا الرجل فى تلك الجزيرة .. يالها من حياة ! .. الجزيرة ، والبحر ، والسماء ، وأنت وحدك ، بمفردك - ولديك كل ماتحتاج اليه - حر، طليق ، .. لقد عثر ذلك الرجل على زنجى عاش معه ، أما أنا فقد أغرقت ذلك الزنجى فى خيالى .. اذ ما حاجتى اليه ؟.. كنت خليقا بأن أسعد بوحدتى ! .. هل قدر لك يوما أن تقرأ هذا الكتاب ؟ »

- ولكن ، قل لى : كيف خرجت من السجن ؟

- لقد أطلقوا سراحى ، بعد أن حاكمونى وتبينوا براءتى . ومن ثم أفرجوا عنى .. كان الامر جد بسيط ! .. ولكن ، اسمع .. اننى لن أواصل العمل اليوم .. ياله من جحيم !.. لقد تلقى كفاى من التسلخات ما يكفيهما . ثم اننى أمتلك ثلاثة روبلات ، وسأحصل عن عملى فى الشطر الاول من هذا النهار على أربعين « كوبيا » .. انه مبلغ لابأس به ، أليس كذلك ؟ .. وعلى هذا ، تعال واقض اليوم معى . اننا لانعيش فى مساكن العمال ، وانما نقيم على تل غير بعيد عن هنا . فقد عثرت على فجوة

ملائمة للسكنى ، فتقاسمتها مع زميل آخر ، ولكنه مريض ، اذ اصيب بالحمى .. انتظرنى هنا ريثما أهرع الى رئيس العمال .. لن أستغرق أكثر من دقيقة واحدة ! »

ونهض مسرعا ، ثم سار مبتعدا ، فى الوقت الذى امسك فيه العمال بالحبال ، وبدأوا العمل من جديد . وظللت جالسا فى مكانى أرقب الحركة الصاخبة المحيطة به ، والبحر الهادىء الذى امتزجت زرقته بخضرة ما !

***

• **اخذ** كونافالوف ـ بقامته المديدة ـ يمرق بين الرجال والعربات ، واكوام الاحجار وكتل الخشب .. وواصل سيره وهو يطوح بذراعيه ، وقد بدا فى قميص من القطن الازرق كان جد قصير وضيق ، وسروال من التيل الخشن ، وحذاءين ضخمين . وكان يلتفت خلفه ـ بين الفينة والفينة ـ ليلوح لى بيديه . وتبينت أنه كان مختلفا عما عهدته .. كان عارم القوة والنشاط ، مفعما بثقة مطمئنة فى نفسه . وكان العمل يجرى على قدم وساق حوله ، فكتل الاخشاب تشق ، والاحجار الكبيرة تكسر ، والعربات تئن تحت حمولاتها ، وسحب التراب تنعقد فى الهواء . وارتطم جسم ثقيل بالارض ، فزمجر العمال ، وصاحوا ، وانهالوا بالسباب ، وراحوا يغنون فى أصوات شجية .. **كل ذلك وصديقى يشق بقامته البديعة طريقه عائدا فى خطى ثابتة تتميز بطابع خاص وسط هذه الجلبة والحركة ، وتحمل فى طياتها جوابا يفسر ذلك اللغز : « كونوفالوف »**

ولم تنقض ساعتان حتى كنت واياه مستلقيين فى « الفجوة الملائمة للسكنى » .. وشدما كانت ملائمة ! .. فلقد اقتلعت من التل صخرة ، ذات يوم ، فتركت ثغرة مربعة كبيرة ، تتسع لكى يقيم فيها اربعة اشخاص براحة تامة . بيد أن الثغرة كانت جد منخفضة ، وكما كانت ثمة صخرة تتدلى فوق

المدخل ، فلم تكن ثمة من وسيلة للدخول الا بأن يزحف المرء على بطنه ! .. وكان عمق الفجوة سبعة أقدام ، بيد انه لم تكن هناك حاجة للهبوط الى قاعها ، بل ان الهبوط كان ينطوى على خطر ، اذ كان من المحتمل أن تسقط الصخرة المتدلية فوق المدخل فتدفننا ونحن على قيد الحياة !.. وللتخلص من هذا المصير ، عمدنا الى الطريقة التالية : دفعنا ساقينا وجسمينا الى داخل الفجوة ، التى كانت رطبة مستساغة الرطوبة ، وأبقينا رأسينا فى خارجها ، حتى اذا قدر للصخرة أن تسقط ، حطمت جمجمتينا فى الحال !

وكان الشريد المريض - زميل كونوفالوف - قد زحف الى خارج الفجوة ، حيث الشمس ، ورقد على مسافة جد قريبة منا ، الى درجة اننا كنا نسمع اصطكاك أسنانه كلما اعترته قشعريرة . وكان شابا أوكرانياطويلا ، هزيلا ،وفد من (بولتافا) كما أنبأنى وهو يهذى . **وكان يتقلب على الارض محاولا أن يلف جسمه فى دثار رمادى تكاد الثقوب تملأه .. وكان يسب صاخبا كلما ذهبت محاولته سدى ، ولكنه لم يكف عن المحاولة .. ولا عن السباب ! .. وكانت له عينان سوداوان تضيق حدقتاهما دائما ، وكأنه لاينفك يتفرس فى شىء ما !**

وأخذت الشمس تلفح أقفيتنا دون ما رحمة ، فعمد كونوفالوف الى سترتى العسكرية ، ونشرها على عصا دقها فى الأرض ، فغدت مظلة شبيهة بالخيمة . وكان ضجيج العمل ينبعث عن بعد ، ولكننا لم نكن نرى ما يجرى عند الخليج . وكان ثمة جزء من الساحل يلوح الى يميننا ، وقد انتشرت عليه مساكن بيضاء صغيرة ، تؤلف فيما بينها بلدة .. أما الى يسارنا ، وفى الناحية المقابلة لنا ، فقد كان البحر يمتد ملقيا أطرافه بعيدا ، حيث كانت تصافح العين الوان بديعة ،جميلة ، تنعش النفس بما فيها من جمال ، وبالأطياف التى كانت تلك الالوان تتحلل اليها وهى تتلاشى فى الأفق !.. وتسللت الى

أسارير كونوفالوف ابتسامة هانئة ، وهو يرقبها ، ثم قال لى : « عندما تغرب الشمس ، سنوقد نارا ونعد شايا ، كما أن لدينا بعض الخبز واللحم . هل تريد بطيخا ؟ »

ودفع بقدمه بطيخة كانت فى احدى الفجوات ، ثم أخرج من جيبه سكينا ، وقال وهو يقطع البطيخة : « كلما وجدت نفسى على مقربة من البحر ، عجبت فى نفسى لقلة الناس الذين يقيمون هنا .. ان الاقامة هنا خير منها فى أى مكان آخر ، لأن البحر جد .. جد لطيف . انه يوحى اليك بأطيب الأفكار . والآن ، حدثنى عما كنت تفعل خلال السنوات القلائل الأخيرة »

* * *

• وشرعت أروى له . وكان البحر ـ على البعد ـ قد اصطبغ بمزيج من اللونين القرمزى والذهبى ، وخفت سحب وردية وبنفسجية باهتة ، ساعية الى الشمس .. فكأنما انبثقت من جوف البحر جبال ذات قمم مكسوة بالجليد ، انعكست عليه أشعة الشمس الآفلة . وقال كونوفالوف فى لهجة جازمة عندما فرغت من رواية قصتى : « ما أسوأ حياتك فى المدن يامكسيم ؟ . . ما الذى يجذبك اليها ؟ . . انها حياة راكدة ، فلا هواء هناك ، ولا فراغ ، ولا شىء مما يحتاج اليه الانسان !.. الكتب ؟ . . ألم يكفك ما قرأت من كتب حتى الآن ؟ . . أفلهذا خلقت ؟ . . **ان الكتب مواد مخدرة تجلب النعاس ، فاذا لم يكن منها بد ، فابتع لنفسك كتابا و ضعه فى حقيبتك ، ثم انطلق ..**

« هل تحب أن تذهب معى الى (طشقند) ؟ . . أو الى (سمرقند) ، أم هل لديك اقتراح عن مكان آخر ؟ .. لسوف نمكث هناك فترة ، ثم نتجه الى (أمور) .. فقد قررت أن أذهب الى كل مكان ، فان هذا هو كل ما أملك صنعه ! ..

وبهذا تستطيع دائما أن ترى أشياء جديدة . ولن تضيع وقتك في التفكير .. كل ماعليك هو أن تسير قدما ، والريح تمحو عن نفسك كل الشوائب .. وأنت حر ، طليق ، خالى القلب.. لا يتحكم فيك رئيس ! اذا جعت ، توقفت لتمارس عملا يدر عليك خمسين كوبيا في اليوم ، أو لتسأل الناس لقمة من الخبز - اذا لم تجد عملا - ولن تعدم من يمنحك اللقمة .. لسوف تشهد شيئا من الدنيا على الاقل.. قسطا من جمالها.. فهل ترافقنى ؟ »

وانحدرت الشمس وراء الافق .. وأخذت السحب تزداد تجهما ، كما ران الظلام على صفحة البحر ، واشتدت برودة الهواء .. ومن وقت لآخر ، كانت تبزغ نجمة جديدة في عرض السماء . وتوقف ضجيج العمل عند الخليج ، ولكنا كنا نسمع بين الفينة والاخرى أصواتا خافتة كأنها الزفرات .. وحملت الريح الى آذاننا وسوسة الامواج الساجية ، وهى تغسل الشاطىء . وما لبثت الظلمة أن اشتدت ، وأصبح الشاب الأوكرانى - الذى كان واضح المعالم منذ خمس دقائق - لايبدو الا ككتلة مبهمة .. وأخيراً قال وهو يسعل : « أين النار ؟ » .. فقال كونو فالوف : « سأشعلها ! » . وأحضر كومة من شظايا الخشب أوقد النار فيها ، فسرعان ما بدأت ألسنة اللهب تلعق الخشب الاصفر . وتصاعد شريط من دخان راح يتلوى فى هواء الليل الذى كان يقبل باردا رطبا من البحر . وازداد الكون سكونا ، وكأنما استلت منه الحياة،بعد اذ أخذت أصواتها تخمد فى الظلام . ثم تبددت السحب ، واشتد لمعان النجوم وضوحا وسط السماء الداكنة الزرقة . وعلى سطح البحر المخملى ، بدت أضواء قوارب الصيد ، وصور النجوم المنعكسة . **وذكت النار أمامنا ، وانتشرت كزهرة كبيرة أخذت تتفتح مسفرة عن أوراق حمراء تشوبها صفرة !** .. وبعد أن وضع كونو فالوف ابريق الشاى فوق النار ، جلس عاقدا يديه

حول ركبتيه ، وحملق فى اللهب مخلدا الى التفكير . وزحف الاوكرانى مقتربا ، وكأنه سحلية عملاقة !

* * *

• وقال كونو فالوف أخيرا : « **أن النـاس ينشئون المدن ويشيدون البيوت ، ويحتشدون فى جماعات ، ويفسدون الأرض ، ويختنقون ، ويقف بعضهم عقبات فى طريق بعض .. انها حياة كالجحيم .. ولكنها الحياة الوحيدة التى كتب علينا أن نحياها !** » .. فزمجر الأوكرانى وهز رأسه قائلا : « اذن ، فهل ترى أن من حقك أن تعيش فى معزل عن الناس ، عيش السادة الاقطاعيين ، اذا قدر لك أن تحصل على فراء وبيت دافىء فى الشتاء ؟ » .. وأغمض احدى عينيـه وهو يرمق كونو فالوف ، ثم أرسل ضحكة خافتة . وقال كونو فالوف مفكرا : « أجل .. ان الشتاء فصل لعين ، والمدن لازمة فى الشتاء بلا مراء .. ومع ذلك فان هذا لايبرر قيام مدن كبرى . **لماذا نعيش فى جماعات كبيرة ، اذا كان من العسير على شخصين أو ثلاثة أن يعيشوا معا فى وئام ؟** .. هذا هو الذى أعنيه . ولو انك فكرت فى الأمر ، لرأيت أن ليس ثمـة مكان صالح لـكى يعيش المرء فيه ـ ان شئت الحق ـ سـواء أكان هذا المكان مدينة ، أو سهلا ، أو اى بقعة أخرى !.. على أن من المستحسن أن لا تفكر فى أمور كهذه .. فأنت لا تملك اصلاحها ، وكـل ما تجنيه منها هو أن تفسد على نفسك مرحها ! »

وكنت قد حسبت أن حياة التجوال التى يعيشها كونو فالوف قد غيرت من أفكاره ، وان هواء الحرية الذى ظل يستنشقـه فى السنوات الأخيرة قد مكنه من أن ينتزع من قلبه قيود التعاسة التى كانت تحيط به .. ولكننى تبينت من اللهجة التى قال بها تلك العبارات أنه كان لايزال نفس الرجل الذى عرفته .. الرجل الذى يبحث عن « شيء يتشبث به » !..

فان سوء الحظ قضي على هذا الجسد القوى أن يولد وبين جوانحه قلب جد رقيق .. ومن ثم فقد ظل هذا الكيان يتعرض للدمار أمام غزوات الحيرة ، وسموم التخبط فى التفكير فى شئون الحياة ! .. ان فى روسيا كثيرين من هؤلاء المتأملين المفكرين ، وهم دائما أكثر شقاء من سواهم ، لأن جهل عقولهم يضاعف من وطأة أفكارهم ! .. ورمقت صديقى فى اشفاق ، فهتف فى أسى وكأنه يعزز ما انتهى اليه تفكيرى فى أمره :

ـ اننى كثيرا ما أفكر فى حياتى معك يامكسيم ، وفى .. وفى كل ماجرى اذ ذاك . كم من أماكن حللت بها منذ ذلك الحين وكم من أشياء رأيتها ! .. ومع ذلك ، فاننى لم أجد على الارض مكانا واحدا أنسجم معه ، وأصلح للاقامة فيه .. اننى لا أجد مكانا لنفسى ، وهذا كل ما فى الامر !

فقال الاوكرانى ـ غير متحمس ـ وهو يرفع الابريق عن النار اذ غلى ماؤه : « هذه نتيجة أنك ولدت بعنق ليس بين الاغلال ما يعادله مقاسا ! » .. فعاد كونو فالوف يقول : « هل لكما أن تخبرانى : لماذا لا أستطيع الاستقرار فى مكان ما ؟ .. لماذا يعيش معظم الناس حياة عادية ، ويمارسون أعمالا ثابتة ، ويتخذون لأنفسهم زوجات وينجبون أطفالا ، ويحظون بكل النعم التى من هذا القبيل ، ويطمحون دائما نحو القيام بعمل ما ، فى حين انى لا أستطيع ذلك .. ولا أدرى تبرير العجزى؟.. لماذا لا أستطيع ؟ »

وهتف الأوكرانى مأخوذا : « لماذا تعمد دائما الى العويل؟.. كأنما العويل سيخفف من وطأة الواقع ! » .. فقال كونو فالوف واجما : « انك على حق ! » .. فقال الأوكرانى المستسلم للقضاء والقدر ، وهو يناضل الحمى : « اننى أدخر الكلمات ، وان كان لدى دائما من الكلام مايكفى لاقناعك » . ثم راح يسعل ، ويتململ فى مكانه ، ويبصق فى النار بعنف . وبدأ كل شىء حولنا يتوارى عن أبصارنا بين طيات حجب الظلام .. حتى

السماء كانت مظلمة هى الأخرى ، اذ لم يكن القمر قد بزغ بعد . وكنا نحس بالبحر ، دون أن نراه ، لفرط الظلام الذى أخذ يشتد حتى بدا كأن ضبابا أسود قد هبط على الارض!.. وخمدت النار . وما عتم الاوكرانى أن قال : « لندخل ! » .
فزحفنا الى الفجوة ، وتركنا رؤوسنا خارجها

ولم ننبس ببنت شفة . ورقد كونوفالوف وهو لا يحير حراكا ، وكأنه كان غائبا عن الوعى . أما الاوكرانى فقد راح يتقلب على جنبيه ، وأسنانه تصطك لفرط رعشة الحمى . وظللت فترة طويلة وأنا أرقب الجمر المحتضر .. **كانت الجمرات فى البداية كبيرة ، متقدة ، ثم راحت تتضاءل ، وتنكمش تحت طبقات من الرماد الذى لم يلبث أن أخمدها** .. ولم يبق من النار سوى لفحات دافئة . وقلت لنفسى مفكرا ، وأنا أرقبها : **« كل منا على هذه الشاكلة ، ولكن ما أحلى التألق ، ولو للحظة واحدة ! »**

***

• بعد ثلاثة أيام ودعت كونوفالوف ، لأرحل الى (كوبان) .. وعرضت عليه أن يصحبنى ، ولكنه رفض
وافترقنا ، وكل منا موقن من أنه لن يلبث أن يلتقى بصاحبه ..
ولكننا لم نلتق قط !



غرام الغجرية



MAKAR CHUDRA

• هبت من البحر ريح باردة ، رطبة ، حملت الى السهول اللحن الشجى الذى كان ينبعث من الامواج وهى تتكسر على الشاطىء ، وحفيف الشجيرات الجافة . وكانت تشتد من آن لآخر ، فتسفو أوراق الشجر الذابلة .. وتدفع بهـا الريح الى النار التى كنا نسمر حولها ، فتذكى اللهب ، واذ ذاك ، كانت ظلمة ليل الخريف ترتعد وتتراجـع فى ذعر ووجـل ، كاشفة لنا عن لمحة من المراعى الشاسعة الى اليسار ، ومن البحر المترامى الاطراف الى اليمين ..

وأمامى ، كان الشيخ الغجرى « مقار شودرا » لايغفـل عن جياد معسكره التى كانت ترعى على بعد نحو خمسين ياردة منا . وكان يستلقي فى مواجهتى فى وضع جليل مهيب ، غير حافل بالريح الباردة التى كانت تفتح معطفه القوقازى ، وتلفح بسياطها صدره العارى الذى جلله الشعر الأبيض .. واخذ يشد ـ فى تواتر رتيب ـ أنفاسا من غليونه الكبير ، ثم يطلق الدخان من فمه وأنفه فى سحب كثيفة ، وهو يسدد بصره فوق رأسى نحو ظلمة المراعى السـاكنة ، دون أن يكف عن الكلام ، ودون أن يبدى أتفه جهد ليقى نفسـه لفحات الريح القاسية !

وراح شودرا يقول : « اذن ، فأنت تجوب العالم ، ضاربا فى أرجائه ؟ .. هذا خير لك وأجدى ، وقد أحسنت الاختيار أيها الصقر الصغير . فهذا هو الطريق الوحيد فى الحياة ! .. **طف بالعالم واشهد ما يحتويه ، حتى اذا رأيت ما فيه الكفاية ارقد و .. مت !** » .. وما أن سمع اعتراضى على قوله : « هذا هو الطريق الوحيد فى الحياة » ، حتى هتف متسائلا : « الحياة؟ رفاقك وأقرانك ؟ .. لم تشغل بالك بهذه الأمور ؟ .. أولست أنت الحياة ذاتها ؟ .. أما عن رفاقك وأقرانك ، فقد اعتادوا أن يمضوا فى الحياة ، وسيظلون يمضون فيها قدما بغيرك . أتظن حقا أن هناك من هو بحاجة اليك ؟ .. انك لست خبزا

يؤكل ، ولا عصا يتكأ عليها . . ولهذا فليس هناك من يريدك ! . . انك تقول : تعلم ، وعلم الغير . . فهل بوسعك أن تتعلم كيف تسعد الناس ؟ لا ، ليس هذا بوسعك . ولن تتمكن من السعى لتعليم الآخرين قبل أن يشيب شعرك . . وما الذى ستلقنهم اياه عندئذ ؟ ان كل انسان يعلم ماهو بحاجة اليه ، والعقلاء من الناس يقنعون بما تقدمه لهم الحياة . . اماالأغبياء، فلا يأخذون شيئا . . ولكن كل انسان يتعلم بنفسه !

« **ان الناس مخلوقات غريبة . فهم جميعا يتزاحمون ، ويدوس الواحد منهم الآخر ، فى الوقت الذى يوجد فيه كل هذا الفراغ الفسيح** » . . ولوح بيده مشيرا الى البرارى الشاسعة ، ثم تابع الحديث قائلا : « وكلهم يعملون . . لماذا ؟ لا أحد يعرف ! . . كلما شاهدت شخصا يحرث حقلا ، حدثت نفسي قائلا : **هاهو ذا شخص يريق وقته وعرقه على الارض ، قطرة بعد قطرة ، لالشىء الا ليرقد فى هذه الارض ذاتها فى النهاية ، ويتحلل ! . . وسيموت وهو على ما ولد عليه من جهل وغباء، دون أن يترك شيئا وراءه ، ودون أن يرى شيئا غير حقله ! . . افهذا هو ماخلق لأجله ؟ . . هل ولد ليحفر فى الارض دون ان يجد فسحة من الوقت ، ولو ليحفر لنفسه قبرا ؟ . . هل ذاق الحرية مرة ؟ . . هل عرف شيئا عن سعة هذه البرارى ؟ هل تهلل قلبه لهدير البحر ؟ . . انه عبد رقيق . . عبد من يوم مولده الى يوم مماته !!** فهل فى وسعه أن يفعل شيئا ازاء هذا ؟ . . لا . . انه لايملك سوى أن يشنق نفسه اذا وجد من نفسه الشجاعة ليفعل ذلك !

« أما أنا — وقد بلغت الثامنة والخمسين — فقد رأيت ما اذا سجل على الورق لما وسعته ألف حقيبة كتلك التى تحملها . هل فى امكانك أن تذكر اسم أرض لم أرها ؟ . . لايمكنك . . بل اننى ذهبت الى أماكن لم تسمع بها قط ، وهذا هوالسبيل الوحيد للحياة . . تنقل من مكان الى آخر ، ولا تبق طويلا فى

مكان واحد ، فليس ثمة مايدعو الى اطالة البقاء ! .. يكفيك أن ترى توالى النهار والليل فى حركةدائمة،يطاردأحدهماالآخر حول الارض بالطريقة ذاتها التى يتعين عليك أن تطاردبهاأفكارك اذا أردت أن لا تفقد الرغبة والمتعة فى الحياة .. فان الانسان خليق بأن يفقد هذا الاستمتاع اذا ما غالى فى الاهتمام بالحياة . لقد فعلت أنا هذا مرة .. أجل ، فعلت ذلك أيها الصقر الصغير !.. كان ذلك عندما أودعت السجن فى (غاليسيا) . فقد رحت ــ فى غمرة التعاسة ــ أسائل نفسى : « لماذا ولدت؟. انها لتعاسة كبرى أن تحبس فى سجن .. آه ،يالها من شقوة ! » لقد كان قلبى يعتصر عصرا كلما أطللت من النافذة على الحقول المكشوفة المنبسطة !.. **منذا الذى يستطيع أن يقول لماذا ولد؟.. لا أحد . ومن ثم فلا ينبغى للمرء أن يطرح على نفسه هذا السؤال .. بل امض فى الحياة ، وكن شكورا لانك حى !.. اضرب فى أرجاء الارض ، وشاهد ما يستحق المشاهدة ، وبهذا لن تشعر بالتعاسة ..** ولكننى كدت فى تلك المرة أن أشنق نفسى بحزامى !

« ولقد حدث ذات مرة أن تحدثت الى شخص معين .. كان رجلا رزينا متزنا ، روسيا مثلك . فقال لى ان المرء لا ينبغى أن يعيش كما يحب ، وانما كما أشير عليه فى كلمة الله ، فاذا ما عاش المرء مطيعا لله أعطاه الله كل مطلبه . وكان هذا الرجل يرتدى أسمالا بالية ، فسألته أن يطلب الى الله أن يعطيه ملابس جديدة ، فغضب منى ولعننى وطردنى ، وهو الذى كان يقول لى ــ قبل ذلك بدقيقة واحدة ! ــ ان على المرء أن يحب جيرانه ويغفر لهم !.. فلم لم يغفر لى ، ان كنت قد أهنته ؟.. **هذا هو طراز أولئك الذين يعظونكم !.. انهم يعلمون الناس ان يقتصدوا فى الاكل ، فى حين انهم ــ هم بالذات ــ يأكلون عشر مرات فى اليوم ! »**

***

• وبصق الفجرى على النار ، ثم أخلد الى الصمت وهو يحشو غليونه بالتبغ . وأخذت الريح تئن فى خفوت ، وصهلت الجياد فى الظلام .. ورددت فى الجو نغمات حزينة ، حنون ، حملتها الريح من معسكر الفجر .. كانت «نونكا» ـ ابنة شودرا الحسناء ـ تغنى . فقد كنت أعرف نبراتها العميقة ، وصوتها الذى كانت تشيع فيه دائما لهجة تنم عن السلطان وعدم الرضى ، سواء وهى تغنى ، أو وهى تنطق بمجرد تحية مقتضبة !.. وكان كل ما تراه فى أية ملكة من الملكات ، يظهر متجسما على قسمات وجهها .. كما كان يشع فى ظلال عينيها السوداوين وميض يوحى بشعورها بجمالها الطاغى ، وبسخطها على كل شىء عدا نفسها !

وناولنى مقار غليونه قائلا : « هل لك أن تدخن ؟.. انها تجيد الفناء ، أليس كذلك ؟ أتحب أن تظفر بفتاة كهذه تبادلك الحب ؟ لا !.. هذا خير لك ، اذ لا ينبغى أن تثق فى امرأة !.. ابتعد عنهن !.. ان المرأة تجد لذة فى تقبيل الرجل ، تفوق ما أجد أنا فى تدخين غليونى .. ولكنك تفقد حريتك بمجرد أن تقبلها مرة واحدة ، لانها تقيدك بقيود خفية لافكاك منها ، فتضطر الى أن تعطيها نفسك قلبا وقالبا !.. هذه هى الحقيقة ، فاحذر النساء !.. انهن كاذبات ، تقسم الواحدة منهن على أنها تحبك أكثر من أى شىء فى الحياة ، حتى اذا آلمتها مرة ـ ولو بوخز ابرة ـ مزقت قلبك تمزيقا !.. اننى أوقن مما أقول ، لاننى أعرف أشياء كثيرة ، وسوف أقص عليك ـ اذا شئت ـ قصة واقعية ، فتذكرها دائما ، لانك اذا فعلت ظللت طول حياتك حرا كالطير !

« حدث ذات مرة أن كان هناك غجرى يدعى زوبار .. لويكو زوبار ، وكان شابا جريئا لا يعرف الخوف سبيلا الى

نفسه ، وقد ذاع صيته فى المجر ، وامتد الى بوهيميا وسلافونيا وجميع الاقطار المحيطة بالبحر .. ولم تكن فى هذه الاقطار قرية لا تضم على الاقل أربعة رجال أو خمسة اقسموا على قتل « زوبار » . ولكنه لم يصب بأذى ، بل ظل على قيد الحياة .. فاذا تاقت نفسه الى جواد ، فما كانت فرقة كاملة من الجنود تستطيع أن تحول بينه وبين امتطائه والعدو به .. لم يكن يخشى أحداً ! لا ، لم يكن زوبار يخشى أحداً ، بل انه كان قادراً على أن يسلخ الشيطان نفسه وكل أفراد زمرته ، لو سولت لهم أنفسهم أن يعترضوه ، أو على الاقل كان يلعنهم جميعاً ويصفعهم .. صدقنى !.. ولقد كانت جميع معسكرات الفجر تعرف زوبار ، أو ـ على الاقل ـ سمعت عنه !.. ولم يكن يحب فى الدنيا شيئاً غير الجواد ، ولكن حبه له لم يكن ليدوم طويلا ، اذ كان لايلبث أن يضيق به فيبيعه ، ويهب الثمن الذى يتقاضاه فى مقابله لاى شخص يطلبه .. لم يكن ليبخل بشىء على أحد ، بل انه لم يكن يحجم عن أن ينتزع قلبه من صدره ، لو ظن أن هناك من يحتاج اليه !.. هكذا كان زوبار !

« وحدث فى ذلك الوقت الذى أحدثك عنه ـ أى منذ نحو عشر سنوات ـ أن كانت قافلتنا تطوف باقليم (بوكوفينا) . وكان بعض أفراد منا يجلسون معا فى احدى ليالى الربيع ، وبينهم «دانيلو» ، الجندى الذى قاتل تحت قيادة «كوسوت»، والشيخ « نور » و « رادا » ابنة دانيلو .. هل رأيت ابنتى نونكا ؟ انها ملكة بين الجميلات الفاتنات ، ولكنها مع هذا تحظى بشرف عظيم اذا قورنت برادا التى كان جمالها يجل عن الوصف!. ربما تسنى تصويره بأنغام الكمان ، على أن يكون العازف قديراً، يعرف دقائق الآلة معرفته لنفسه !

«ولقد راح كثيرون من الرجال ضحايا حب رادا . وحدث مرة ـ فى مورافيا ـ ان صعق ثرى متقدم فى السن عند رؤيته لها ، فسمر مذهولا على ظهر جواده لا يحير حراكا ، وراح يهتز

من أخمص قدميه الى قمة رأسه ، وكأنه مصاب بالحمى !.. وكان الرجل فى أكمل زينة ، وكأنه ابليس فى اجازة !.. فمعطفه الاوكرانى الطراز موشى بخيوط من ذهب ، بينما تدلى على جانبه حسام مرصع بأحجار كريمة كانت تتألق عند كل حركة من الجواد ، وكأنها ومضات برق خاطف .. وكانت قبعته مخملية زرقاء بلون السماء . لقد كان هذا الشيخ من علية القوم !.. ولقد ظل جالسا على ظهر جواده ينظر الى رادا كالمشدوه ، وأخيرا استطاع النطق فقال لها : « أننى أعطيك كيسا متخما بالنقود فى مقابل قبلة واحدة ! » . فحولت نظرها عنه مما حمله على تغيير لهجته قائلا : « اغفرى لى اذا كنت قد اهنتك ، ولكن .. لعلك تمنحيننى ابتسامة على الاقل ! » . **والقى بكيس النقود عند قدميها ، وكان كيسا منتفخا ، ولكنها اكتفت بأن داسته بقدمها حتى غاص فى التراب ، وكأنها لم تره! .. فصاح الرجل يقول : « يالها من فتاة ! » . ثم ساط الجواد فقفز وأثار موجة كثيفة من الغبار وهو يعدو بصاحبه بعيدا عن الفتاة !**

« وعاد الرجل فى اليوم التالى ، فسأل فى صوت دوى فى أرجاء المعسكر عمن يكون والدها .. واذ انبرى له دانيلو ، قال له الرجل : « بعها لى ، واذكر الثمن الذى يروق لك ؟ » . فقال دانيلو : « **ان النبلاء فقط هم الذين يبيعون كل شىء — من الخنازير الى ضمائرهم ! — أما أنا فقد قاتلت تحت امرة كوسوت ، فلست أبيع شيئا !** » .. فزأر الرجل الثرى ومد يده الى حسامه ، ولكن أحد رجالنا ألقى بجذوة نار فى أذن جواده فقفز وطار بسيده طيرا . وبادرنا الى هدم المعسكر ، ونزحنا عن المكان . ولكننا بعد مسيرة يومين كاملين رأيناالرجل فجأة يأتى وراءنا . وصاح بنا قائلا : « أقسم بربى أن نيتى شريفة !.. زوجونى الفتاة أقتسم معكم جميع ما أملك ، وانى لعظيم الثراء ! » .. وكان يحترق وجدا ، ويترنح على جواده

وكأنه ريشة فى مهب الريح .. فأخذنا نفكر فيما قال . وما لبث دانيلو أن قال لابنته بصوت خافت: « مارأيك يابنتى ؟ » ، فقالت رادا : « **لو رأيتم أنثى النسر تأوى الى عشها برفقة الغراب وكان ذلك بمحض ارادتها ، فماذا تقولان عنها ؟** » . فانفجر دانيلو ضاحكا ، وضحكنا جميعا !.. وهتف دانيلو : « لافض فوك يا بنيتى !.. هل سمعت ياسيدى ؟.. لقد خسرت القضية فاذهب وتودد الى حمامة، فانها أكثر وداعة!» .. وسرنا بعد ذلك فى طريقنا !

« وعندئذ خلع الرجل الثرى قبعته وطوح بها الى الارض. ولكز جواده فعدا بسرعة حتى لقد زلزلت الارض تحت حوافره .. هكذا كانت رادا أيها الصقر الصغير ! »

***

• **واستطرد** شودرا فى حديثه قائلا : « ولنعد الى حديثنا الاول .. قلت اننا كنا فى احدى الليالى جالسين فى المعسكر ، واذا بنا نسمع على حين فجأة صوت موسيقى تقترب من ناحية الخلاء .. وما كان أروعها ! كانت أنغاما تجعل الدم يتدافع فى الشرايين ، وتحمل المرء لتسرى به الى عوالم مجهولة !.. **ولقد ملأتنا نشوة ، وجعلتنا مشوقين الى الاقدام على عمل جليل هائل ، اذا خبرناه مرة لم تعد بنا حاجة الى مواصلة الحياة ، فاذا ظللنا أحياء بعده ، أصبحنا سادة العالم بأسره !**

« وما لبث أن برز من جوف الظلام جواد يمتطيه شخص كان يعزف على الكمان ، فتقدم نحونا ، ووقف عند نيران معسكرنا ، ثم كف عن العزف ، وأخذ يتطلع الينا وهو يبتسم .. وهنا هتف دانيلو مرحبا : « زوبار !.. أهذا أنت ؟ » .. كان ذلك ـ اذن ـ هو لويكو زوبار !.. وكان شارباه يتدليان الى كتفيه ، حيث كانا يختلطان بشعره الطويل المجعد. كما كانت عيناه تومضان وكأنهما نجمتان براقتان .. أما ابتسامته فكانت



مثل اشراق الشمس فى وضح النهار .. وبدا هو وجواده كما لو كانا قد قدا من قطعة واحدة من الصوان !.. وظل واقفا امامنا ووجهه يلوح ـ على وهج النار ـ مصطبغا بلون الدم ، وأسنانه الناصعة البياض تلمع كلما ضحك .. ووالله لقد احببته حبى لنفسى ، ولو انه لم يبادلنى كلمة واحدة ، ولا احس بوجودى !

« أجل أيها الصقر الصغير !.. ان فى الدنيا رجالا من هذا النوع ، تستسلم لهم بمجرد أن تتطلع الى عيونهم ، وأنت تشعر بالفخر لا بالخجل ، لانك تحس بانك أصبحت ـ فى وجودهم ـ خيرا مما كنت من قبل !.. والذين هم على هذه الشاكلة قليلون ، ولعل فى ذلك خير ، لان الاشياء الطيبة اذا كثرت فى هذا العالم لم تعد تعتبر من الطيبات !.. ولكن اسمع ما حدث بعد ذلك . فقد قالت له رادا : « انك تجيد العزف يا زوبار ، ولكن هلا نبأتنى عمن صنع لك هذه الكمان العذبة الصوت ؟ » .. فضحك الشاب وأجاب قائلا : **« لقد صنعتها بنفسى ، لا من الخشب ، وانما من صدر جارية أحببتها كثيرا ، كما أن أوتارها من أوتار قلبها .** ولا تزال كمانى هذه تصدر أحيانا بعض نغمات كاذبة ، ولكنى أعرف عادة كيف أسيطر عليها بقوسى ! »

« والرجل يحاول دائما أن يسدل على عينى الفتاة غشاوة تحملها على أن تتوق اليه ، لكى يحمى قلبه من سهام عينيها . ولم يكن زوبار يختلف فى ذلك عن سواه ، ولكنه لم يكن يعرف مع من وقع فى تلك المرة ، اذ اكتفت رادا بأن أشاحت عنه ، وقالت وهى تتثاءب : **« عجبا ، لقد قالوا لى ان زوبار حكيم وحصيف . يالها من غلطة ! »** .. وسارت مبتعدة ، فقال زوبار وقد أومضت عيناه ببريق خاطف وهويترجل عن جواده : **« ان لك أسنانا حادة يا فتاتى الجميلة ! »** .. ثم تحول الينا قائلا : « تحياتى لكم أيها الاصدقاء . لقد جئت لازوركم ! » .. فأجاب دانيلو : « يسرنا أن نراك بيننا ! » .. وتبادلنا القبلات، وتحدثنا قليلا ، ثم أوينا الى مضاجعنا ، ونمنا نوما عميقا . وفى الصباح وجدنا زوبار معصوب الرأس ، فماذا حدث له؟ .. بدا أن جواده ركله فى الليل .. ولكننا حين عرفنا من كان ذلك الجواد ، ابتسمنا بيننا وبين أنفسنا ، وابتسم دانيلو أيضا ! .. ولكن هل كان من المعقول أن يكون زوبار ــ كسواه ــ غير كفء لرادا ؟ .. الواقع أنها ــ رغم جمالها ــ كانت ذات نفسية تافهة، ولم تكن الحلى الذهبية كلها فى العالم بمستطيعة ان تعلى من قدرها شيئا ! »

❊ ❊ ❊

• **ومضى** شودرا فى روايتـه قائلا : « دعنا من هذا .. لقد ظللنا نعيش فى المعسكر ، والظروف مواتية ، ولويكو زوبار يقيم بيننا ، كخير رفيق ! .. كان فى حكمة الشيوخ ، غزير المعرفة ، يجيد قراءة الروسية والمجرية وكتابتهما ، حلو الحديث ، لطيف المعشر .. وكان بوسعى ان أجلس الليل بطوله أصغى الى حديثه الطلى دون ملل . أما عزفه على الكمان ، فلتنقض على صواعق السماء اذا قلت ان هناك من يعادله فى هذا ، أو حتى يدانيه ! .. **كان اذا أجرى قوسه على الاوتار ،**

قفزت القلوب فى الصدور ، فاذا عاد بها ، تحفزت كل جارحة فى كيانك منصتة !.. أما هو ، فكان يمضى فى العزف وهو يبتسم .. ولو أنك سمعته لشعرت بأنك تريد أن تبكى وتضحك فى آن واحد !.. فأنت تسمع فى لحظة شخصا ينتحب بمرارة ، ويصرخ مستنجدا ، وتحس كأن مدية تمزق جنبيك ، ثم تخال – فى اللحظة التالية – أن المراعى تروى للسماء قصة .. قصة حزينة !.. ولا تلبث الانغام أن تصور لك أن غانية تبكى وهى تودع حبيبها .. وفى الدقيقة التالية ، تسمع الحبيب يناديها من البرارى .. ثم ، فجأة ، ينقض نغم كأنه صاعقة من السماء ، يكاد يجعل الشمس ذاتها ترقص !.. هكذا كان يعزف أيها الصقر الصغير !

« انك لتحس بأنغامه تهز كل جارحة فى جسدك ، وبأنك تغدو عبدا لهذه الانغام .. فلو أن زوبار صاح فجأة : « انتضوا خناجركم أيها الرفاق ! » ، لشهر كل منا خنجره فى وجه أى شخص يشير لنا نحوه .. كان فى وسع زوبار أن يلف أى شخص حول اصبعه الصغير ، ولكن الجميع كانوا يحبونه كل الحب . ومع ذلك فقد ظلت رادا لا تحفل به . والانكى من ذلك أنها كانت تتعمد السخرية منه ، فأصابت قلبه بجرح .. وكان جرحا قاسيا .. فكان الشاب يعض على شاربه بنواجذه ، وكانت عيناه تغدوان اذ ذاك أعمق من الآبار ، يومض فيهما – بين وقت وآخر – بريق خاطف يبعث الرعب فى القلوب . وكان فى الامسيات يضرب فى البرية ، حيث يقضى الليل وكمانه تنوح حتى الصباح .. كانت تبكى حريته المفقودة ! وكنا نستلقى ، ونصغى ، ونفكر فيما قد يحدث بعد ذلك .. وجميعنا يعلم أنه اذا تدحرج حجران ضخمان ، كل نحو الآخر ، فانهما كفيلان بأن يسحقا كل ممن يعترض طريقهما .. وهذا ماكانت تتجه اليه الظروف !

« وفى ذات ليلة جلسنا طويلا أمام النار ، نبحث فى شئوننا .

فلما تعبنا من الحديث ، تحول دانيلو الى زوبار قائلا : « غن لنا يازوبار ، لتبهج قلوبنا ! » .. فنظر زوبار الى رادا التى كانت مستلقية على الارض فى بقعة غير بعيدة ، تتطلع الى السماء ، ثم جر قوسه على أوتار الكمان ، فأخذت النغمات تتدفق عذوبة ، وكأنى القوس يمس أوتار انتزعت فعلا من قلب فتاة حسناء ! .. وأخذ زوبار يغنى :

« هيو .. هيو ! ان قلبى يلتهب ، والمراعى ممتدة كالبحر . وجوادانا الباسلان يعدوان كالريح ،يحملاننا .. أنا وانت ! »

« وهنا أدارت رادا رأسها اليه ، ودفعت نفسها على أحد مرفقيها ، ثم ضحكت فى وجهه ساخرة .. وتضرج وجه زوبار ، ولكنه واصل الغناء :

« هيو ، هيو ! ان رفيقى صادق ، فساعة الفجر قد دنت .. والبرارى متشحة بظلال الليل ، ولكنا سنرقى الى السماء

« فالهبى جوادك لتقابلى النهار ، الذى انبثق على السهل

« ولكن حذار ، حتى لايمس عرف الجواد وجه القمر ! »

« وكان غناء رائعا ، وشدوا جميلا لامثيل له اليوم ، ولكن رادا دمدمت قائلة : «لوكنت مكانك لما ارتقيت الى هذا الارتفاع يالويكو زوبار ، اذ انك قد تهوى فى الوحل فتفسد هذين الشاربين الجميلين ! » .. ورمقها زوبار بنظرة حانقة ، ولكنه لم يقل شيئا ، اذ استطاع أن يسيطر على أعصابه . ثم مضى مستأنفا الغناء :

« هيو ، هيو ! اذا جاء ضوء النهار ، ووجدنا معا نائمين ..

« فستتضرج وجناتنا بأرجوانية الحياء ، ونحن نقفز من فراشنا ! »

وقال دانيلو : « انهـا أنشودة رائعة حقـا ! ليسخطنى الشيطان غليونا اذا كنت قد سمعت خيرا منها ! » .. أما الشيخ « نور » فقد راح يمشط لحيته بأصابعه ، ويهز كتفيه طربا . وغمرنا جميعا الاغتباط ، وأخذتنا النشوة من هذه الانشودة الجميلة . ولكن رادا لم تعجب بها ، وانما قالت : « لقد سمعت مرة بعوضة تحاول تقليد صوت النسر ! » .. وكأنما قذفت ـ بقولها هذا ـ وجوه الحاضرين بالثلج ، فقال لها والدها : « لعلك مشوقة الى ضرب السياط يا رادا ! » .

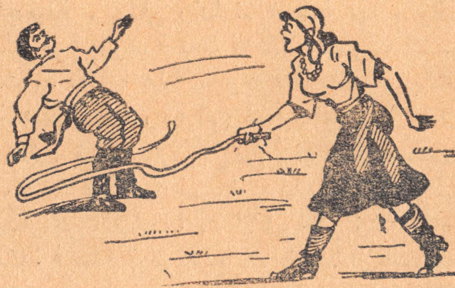
ولكن زوبار ألقى قبعته الى الارض وقد تجهم وجهه وأصبح بلون التراب ، ثم قال : « صبرا يا دانيلو ، فالفرس الجموح تحتاج الى عنان من الصلب ! .. ألا زوجنى ابنتك ! » .. فقال دانيلو ضاحكا : « هذا قول بديع .. خذها ان استطعت ! » ..

فقال زوبار : « حسنا » . ثم تحول الى رادا وقال : «اهبطى أيتها الغانية من عليائك ، واصغى الى ما أقول . لقد عرفت كثيرات من الفتيات . أقول كثيرات ، ولكن أيا منهن لم تتمكن من الاستيلاء على قلبى كما فعلت أنت ! .. **أواه يارادا ! .. لقد استعبدت روحى . وليس لى فى الامر حيلة ، فما قدر لابد أن يكون ، ولم يخلق بعد الجواد الذى يستطيع أن يحمل الانسان بعيدا عن نفسه ! .. اننى أشهد الله ، وأشهد ضميرى، على اننى اخترتك زوجة لى ، وبحضور والدك وجميع هؤلاء الناس . ولكنى أحذرك من أية محاولة للحد من حريتى ، فأنا شخص يعشق الحرية ، وسأعيش دائما كما أهوى ! »**

« وسار نحوها وقد زم شفتيه ، وابرقت عيناه . ورايناه يمد يده اليها ، فحدثنا أنفسنا قائلين : هاهى ذى رادا قـد نجحت في النهاية فى وضع اللجام فى فم جواد البرارى الجامح .

ولكن ذراعيه ارتفعتا فى الهواء فجأة ، وسقط على الارض ، فاصطدم رأسه بها !

« فماذا تراه قد حدث ؟ .. لقد خيل الينا أن رصاصة اصابت قلبه ، ولكن الواقع أن رادا لوحت فجأة بسوط التف حول ساقيه ، ثم جذبت السوط فى قوة فوقع الشاب على الارض !



« وعادت الفتاة تستلقى فى مكانها بغير حراك ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيثة ! .. واخذنا نرقب ماسيحدث بعد ذلك ، فرأينا زوبار يستوى جالسا ، ثم يمسك رأسه بيديه ، وكأنما يخشى عليه أن ينفجر .. ومالبث أن وقف بهدوء ، واتجه نحو الخلاء ، دون أن يلقى نظرة على احد ، فهمس « نور » فى اذنى قائلا : « يحسن بك أن تراقبه ولا تتركه يغيب عن نظرك ! » .. ومن ثم تسللت وراءه الى البرية فى ظلام الليل البهيم »

* * *

• وسكت « مقار » ، وافرغ غليونه من بقايا التبغ المحترق فيه ، ثم أعاد حشوه بتبغ جديد . ولففت معطفى حول جسمي ، واضطجعت في مجلسي لادرس وجهه المغضن الذي

لوحته الشمس والهواء . وكان يدمدم لنفسه ويهز راسه ، وقد التوى شارباه الاشيبان ، وتلاعبت الريح بشعره ، فذكرنى شكله بشجرة بلوط عفا عليها الزمان ، وأصابتها الصاعقة ، ولكنها بقيت قوية ، جبارة ، فخورة بهذه القوة ! .. ومضى البحر يهمس للرمال ، والريح تحمل صوت همسه الى المراعى . وتوقفت « نونكا » عن الغناء . وكانت السحب التى أخذت تتجمع ، تجعل ليل الخريف أشد ظلاما عن ذى قبل . وعاد مقار يستأنف حديثه :

« وظل لويكو يجر قدميه ، واحدة بعد الاخرى ، وهو سائر وقد نكس راسه على صدره ، وأرخى ذراعيه الى جنبيه ، وكأنهما سوطان . حتى اذا وصل الى شاطىء جدول صغير ، جلس على حجر وراح يئن انينا خافتا حزينا كاد يفتت قلبى . ولكننى لم أقترب منه .. فان الكلمات لاتخفف من حزن الرجل وآلامه .. اليس كذلك ؟ .. وكانت هذه هى المشكلة !

« وظل جالسا فى مكانه ساكنا .. ومضت عليه فى هذا الوضع ساعة ، ثم أخرى ، فثالثة ، دون أن تبدو منه حركة ما . وكنت مستلقيا غير بعيد عنه .. وكان الجو قد صفا ، واخذت المراعى تسبح فى ضوء القمر الفضى ، فأصبح فى الامكان رؤية الأشياء البعيدة

« وعلى حين غرة ، رايت رادا قادمة تهرول نحونا من المعسكر ، فغمرنى فرح طاغ ، وقلت لنفسى : « هذا جميل منك يارادا الباسلة ! » .. وتقدمت الفتاة نحو زوبار ، فبلغته دون أن يسمع وقع قدميها ، ثم وضعت يدها على كتفه .. واجفل الشاب ، فأنزل يديه ورفع راسه . وفجأة ، انتصب واقفا على قدميه وشهر مديته ! .. ياالله ! .. لقد خلت انه سيقتلها ، وهممت بأن أقفز لاتدخل بينهما واستغيث بالقوم ، لولا اننى سمعت رادا تقول له : « الق هذه المدية والا الهبت راسك ! » .. ودققت النظر ، فرايت رادا تحمل مسدسا فى

يدها وقد صوبته الى راس لويكو ، فقلت لنفسي : « يالها من شيطانة بنت شيطان .. انهما متكافآن فى القوة ، على الأقل!»
.. وانتابتنى الحيرة وأنا أفكر فيما قديحدث بعدذلك . وسمعتها تقول : « اننى لم آت لاقتلك ، وانما جئت أسالك ! » .. ثم وضعت المسدس فى حزامها ، وقالت : « ابعد هذه المدية !» .. فأبعدها ، ونظر اليها بعينين ينبعث منهما الشرر . وكان منظرا رهيبا فى الواقع . فقد كانا حيوانين هائجين ، وكان كل منهما بديعا ، وجريئا .. ولم يكن ثمة من يراهما غير القمر الساطع وأنا !

« وعادت رادا تقول للشاب : « اصغ الى يا زوبار .. اننى احبك ! » .. على أن الشاب اكتفى بهز كتفيه ، وكأنه مقيد اليدين والقدمين ، فمضت هى تقول : « لقد رأيت رجالا عديدين ، ولكنك أشجعهم واجملهم ! .. ولقد كان كل منهم على استعداد لأن يزيل شاربيه لو اننى طلبت ذلك منه ! بل ولان يجثو تحت قدمى اذا أردت ذلك .. ولكنى لم أحفل بهم ، فلم يكن بينهم واحد شجاع .. كانوا بالنسبة لى كالنساء ، ولم أجد بين الفجر غير قليلين من البواسل . اجل ، لم يبق يازوبار بين الفجر غير عدد ضئيل من الشجعان .. **ولم يسبق لى أن أحببت أحدا يازوبار ، ولكنى أحبك أنت .. كما أحب حريتى أيضا ! .. ومع اننى أحب حريتى أكثر من حبى لك ، الا أننى لا أستطيع العيش دونك ، كما أنك لاتستطيع العيش دونى ! .. اننى أريد أن تكون لى ، وأن تكون لى بروحك وجسدك !..** أتسمعنى ؟ »

« فضحك زوبار وقال : « انى مصغ اليك ، فان الاصغاء اليك يشرح صدرى .. امض فى حديثك ! » .. فقالت :« ليس لدى شيء آخر أود أن أقوله سوى : افعل ماشئت ، ولكن ثق من انك لى . فلا تضيع مزيدا من الوقت . ان قبلاتى وعناقى ينتظرانك .. سأقبلك في وجد ، ولسوف تنسي ـ تحت سحر

قبلاتى ! ـ حياة المغامرات الماضية .. لن تتردد اغانيك المرحة التى يشغف بها الفجر ، فى المراعى ، لانك ستغنى أرق الاغانى الناعمة لى وحدى .. لرادا ! .. لاتضيع مزيدا من الوقت ، فقد قلت لك ماعندى ، وهو يعنى انك ستكون منذ الغد فى خدمتى وحدى ، باخلاص وولاء ، كما يخدم الشاب رفيقا يكبره سنا . **وعليك أن تنحنى عند قدمى غدا ، وأمام المعسكر باسره ، فتقبل يدى اليمنى . وعندئذ فقط أكون زوجة لك!»**
.. اذن ، فهذا ماكانت الشيطانة تسعى وراءه !.. ومن الصحيح أن الشيوخ ذكروا أن هذه العادة كانت متبعة فى قديم الزمان، بين أهل الجبل الاسود ، ولكنها لم تقم مطلقا بين الفجر . فهل تتصور أيها الشاب شيئا أكثر مهانة من ذلك ؟ .. لا .. ولو اعتصرت مخك عاما بأكمله !

« ورددت البرارى صيحة انبعثت من زوبار .. وكانت صيحة جريح مشرف على الموت . وارتجفت رادا ، ولكنها لم تظهر مشاعرها ، وانما قالت : « أستودعك الله الى الغد .. وغدا سوف تفعل ماقلته لك .. هل تسمعنى يازوبار ؟ » .. فزمجر زوبار وقال : « لقد سمعت وسأفعل ما أردت » .. ومد ذراعيه لها ، ولكنها تركته وانصرفت دون أن تتكبد أكثر من مجرد القاء نظرة عليه ، فترنح وكأنه شجرة اقتلعتها الرياح ، ثم سقط على الارض وهو يشهق ويبكى ويضحك .. فى وقت واحد ! »

* * *

. **وصمت** شودرا لحظات ، ثم قال : « هذا مافعلته به تلك اللعينة رادا . ولقد هرعت اليه محاولا أن أرده الى رشده، ولكنى أخفقت .. **ترى لماذا يتعين على الناس أن يتالموا هكذا ؟ .. هل هناك من يجد متعة فى سماع أنين شخص كسير القلب ؟ .. ان هذا لغز يستعصى ـ للاسف ـ على العقول !**

« وعندما عدت الى المعسكر ، أبلغت الشيوخ بما حدث ، فأخذنا نفكر فى الامر ، ونقلبه على بساط البحث . ثم استقر رأينا ــ فى النهاية ــ على أن ننتظر ما قد يحدث ! .. وهأنذا سأقص عليك ما حدث : فقد اجتمعنا فى المساء التالى حول النار كالمعتاد ، وانضم الينا زوبار . وكان يبدو ذليلا وقد تهدم فى ليلة واحدة ، فغارت عيناه فى محجريهما ، وظلتا منكستين نحو الارض ، فلم يرفعهما ، حتى عندما شرع يقول : « اليكم ماحدث أيها الرفاق . لقد فتشت قلبى فى هذه الليلة فلم أجد فيه متسعا لحياة الحرية ــ التى كنت أهواها وأحياها دائما ــ اذ احتلت رادا كل ركن فيه .. **وهاهى ذى رادا الجميلة تبتسم فى كبرياء وكأنها ملكة .. انها تحب الحرية أكثر مما تحبنى ، ولكنى أحبها أكثر مما أحب الحرية ، ولهذا قررت أن أنحنى أمامها كما أمرتنى أن أفعل ، وسوف يرى الجميع كيف استعبد جمالها لويكو زوبار الباسل ، الذى كان ــ قبل أن يلقاها ــ يلعب بالنساء كما يلعب القط بالجرذان !.. ولهذا فستصبح زوجتى وتقبلنى وتعانقنى .. وعلى أن أعزف عن كل رغبة فى الغناء اليكم ، وان لا أتحسر على ضياع حريتى .** أليس هذا ما ينبغى أن يكون يارادا ؟ » .. ورفع عينيه نحوها فى اكتئاب ، فأحنت رأسها دون أن تنبس بكلمة ، وأشارت الى الارض الممتدة أمامها . ولم يكن فى امكاننا أن نتصور ماوقع ، بل لقد شعرنا بحافز يدفعنا الى الابتعاد عن المكان ، حتى لانرى لويكو زوبار وهو يلقى بنفسه عند قدمى فتاة .. ولو كانت هذه الفتاة هى رادا .. فقد كان فى ذلك مايدعو الى الخزى .. بل كان أمرا شديد الايلام !

« وصاحت رادا بزوبار : « هيا ! » .. فضحك زوبار ! ويالها من ضحكة كان لها رنين الصلب ! .. وقال : « لاتكونى متسرعة الى هذا الحد ، ففى الوقت متسع .. متسع يكفى لان يبعث الملل منى ! » .. ووجه الينا الحديث قائلا : « اذن ،

فهذا هو الوضع يارفاق ؟ .. مالذى بقى فى وسعى أن أفعله ؟ .. ان الشىء الوحيد الباقى هو أن أرى ماذا كان قلب حبيبتى رادا صلبا الى الدرجة التى تريدنا أن نتصوره عليها .. وسوف أجرب ذلك ، فاغفروا لى يارفاق ! »

« **وقبل أن يتسع لنا الوقت لنحدس ما كان يجول بخاطره ، رأينا رادا ملقاة على الارض ، وقد غابت مدية زوبار المقوسة فى صدرها حتى المقبض** . فأصابنا الذهول ، ولكن رادا انتزعت المدية وألقت بها جانبا ، ودست خصلة من شعرها فى الجرح ، ثم ابتسمت وهى تقول فى صوت عال واضح النبرات : « الوداع يازوبار .. لقد كنت أعرف انك ستفعل هذا ! » .. وكانت هذه آخر عبارة فاهت بها قبل أن تسلم الروح . فهل رأيت من أى طراز كانت هذه الفتاة أيها الشاب ؟ .. كانت شيطانه ان كان بين الشياطين اناث .. فليحمنا الله !

« **وقال زوبار بصوت دوى فى أرجاء البرارى : « الآن ، ألقى بنفسى عند قدميك يامليكتى المتغطرسة ! » . ثم ألقى بنفسه على الارض ، وضغط بشفتيه على قدمى رادا الميتة ، ورقد دون حراك ، فخلعنا ما على رؤوسنا ووقفنا صامتين !**

« ماذا كان يمكن أن يقال فى لحظة كهذه ؟ لاشىء ! .. ومالبث « نور » ان غمغم قائلا : « قيدوا هذا الشاب ! » .. ولكن لم يكن هناك من يستطيع أن يرفع يدا ليقيد بها لويكو زوبار .. لم يكن فى وسع أى مخلوق أن يفعل ذلك . وكان « نور » يعرف هذا .. ولهذا فانه لم يلبث أن تحول وانصرف عن المكان . واذ ذاك انحنى دانيلو والتقط المدية التى انتزعتها رادا من صدرها وقذفت بها بعيدا عنها ، ثم وقف برهة يتأملها — وكان نصلها الحاد ، المقوس ، ما يزال ملطخا بدم رادا — ثم تقدم نحو زوبار واغمد المدية فى ظهره ، فى مقابل القلب . وربما كان ذلك من حقه ، فهو قبل كل شىء والد رادا ، وهو أيضا الجندى دانيلو الذى حارب تحت امرة كوسوت !

« وتحول لويكو نحو دانيلو وقال : « أحسنت صنعا ! » ، ثم لحق برادا ..

« ووقفنا ننظر اليهما : فهذه رادا ملقاة على الارض، قابضة على خصلة من شعرها كانت تضغطها الى صدرها فى مكان الجرح ، وعيناها مفتوحتان تحملقان فى السماء الزرقاء .. وعند قدميها ، رقد لويكو زوبار الباسل ، وقد تهدل شعره المجعد وغطى وجهه فأخفاه عنا . ولبثنا واقفين فترة نهبا لافكارنا ..وكان دانيلو يقف وكل جسمه يرتجف ، وقد أخذ يتطلع الى السماء ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. أما الشيخ « نور » ـ الذى عاد ثانية الى المكان ـ فقد ألقى بنفسه على الارض ، وأخذت شهقاته تهز جسده هزا . .وكان له العذر كل العذر فى البكاء !

« والخلاصة هى هذه : **لاتدع شيئا يغريك على التحول عن السبيل الذى طرقته ، بل سر فيه قدما ، لاتحد عنه ، وبهذا قد تتجنب أية نهاية سيئة !**

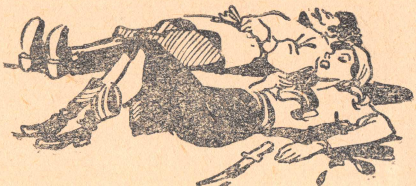
« هذه هى القصة كلها أيها الصقر الصغير ! »

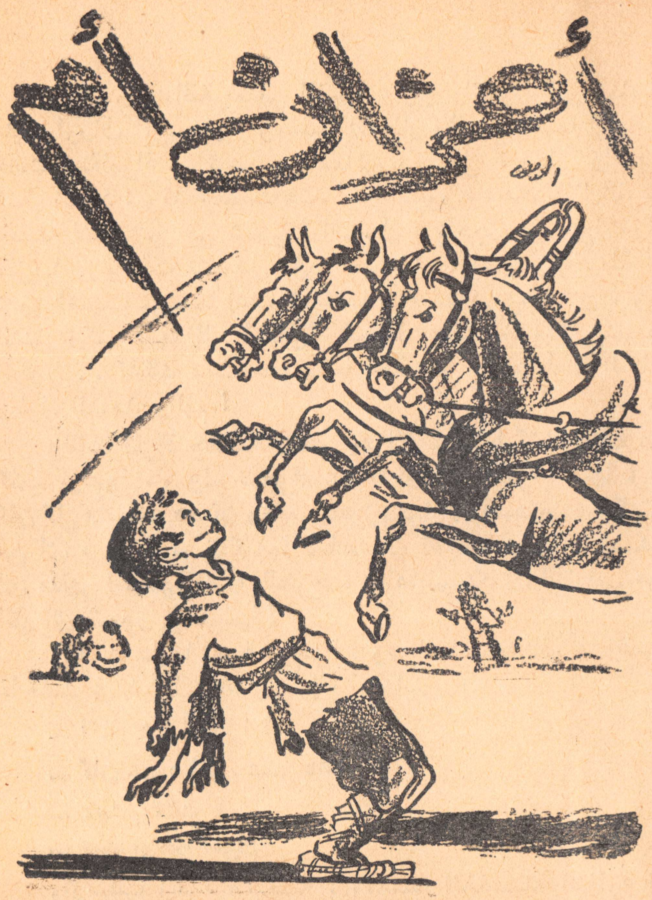
***

• **وتوقف** مقار عن الكلام ، ووضع غليونه فى كيس التبغ، ثم ضم معطفه ليغطى صدره .. وكان المطر قد بدأ يهطل رذاذا ، واشتدت الرياح ، وأخذت الامواج تتكسر وهى ترسل هديرا غاضبا . وعادت الجياد ، واقتربت من النار التى أخذت تخمد أمامنا ، ثم نظرت الينا بأعين تسطع بالذكاء ، ودارت حولنا محيطة بنا كالسوار .. وصاح مقار يرحب بها ، ثم ربت على عنق جواده الاسود المفضل ، وتحول يقول لى : «لقد حان وقت النوم ! » . وتدثر من قمة رأسه الى أخمص قدميه فى معطفه القوقازى ، ثم تمدد على الارض واستكان .. وسكنت حركاته . ولكننى لم أجد رغبه فى النوم ، فجلست

أحملق فى الظلام المخيم على البرية الممتدة أمامى .. وأخذت صورة رادا تطوف أمام مخيلتى ، وقد تجسمت لى فى كبريائها، وسموها ، وفتنتها .. ورأيتها تضغط يدها القابضة على خصلة شعرها الى صدرها ، وقد ظهرت من خلال أصابعها الرقيقة ، القاتمة اللون ، قطرات من الدم أخذت تتساقط وتتحول — عندما تصطدم بالارض — الى نجوم ملتهبة . وتراءى لى شبح لويكو زوبار الباسل وهو يطوف وراءها ، وخصلات شعره المجعد تغطى وجهه ، وتتساقط من تحت هذا الشعر قطرات كبيرة من الدموع الباردة !

وازداد تساقط المطر ، وغنى البحر أغنية حزينة لهذين الغجريين الجميلين : لويكو زوبار ، ورادا ابنة الجندى الشيخ، دانيلو . وأخذ الشبحان يدوران ويدوران فى رقص بديع ، ودون ماصوت ، فى ظلام الليل البهيم . ولكن زوبار الجميل لم يتمكن — برغم محاولاته — من اللحاق برادا المتكبرة !





KOLUSHA

• في ركن الفقراء من المقبرة ، وبين القبور التى تناثرت عليها أوراق الاشجار ، وخلفت الامطار والرياح عليها آثارها ، كانت ثمةامرأة فى ثوب من قماش رخيص ، وعلى رأسها شال اسود ، وقد جلست عند أحد القبور ، تحت ظلال الفروع القليلة لشجرتين من شجر « التامول » ، مجردتين من الاوراق تقريبا . وكانت تنسدل على أحد خديها الذابلين خصلة من شعر أشيب ، بينما بدت شفتاها الرقيقتان مزمومتين ، وقد انثنى ركنا فمها الى أسفل ، تحيط بهما تجعدات تنم عن الحزن .. كذلك كانت جفونها مقرحة تشي بالافراط فى البكاء ، وطول السهد والهم !

وظلت المرأة جالسة لاتحير حراكا ، بينما كنت أقف على كثب أرقبها .. ولم تتحرك عندما ازددت اقترابا منها ، بل كان كل مافعلته هو أن رفعت نحوى عينين واسعتين ، خاليتين من أى بريق ، ثم تركتهما تنخفضان ثانية ، دون أن تبدى اى مظهر للفضول ، أو الحرج ، أو ماينم عن أن اقترابى منها أثار أي شعور فى نفسها !

والقيت عليها تحية موجزة ، وسالتها عمن دفن فى القبر ، فاجابت فى غير اكتراث ورصانة : « ابنى »

ـ أكان شابا كبيرا ؟

ـ كان عمره أثنى عشر عاما

ـ ومتى مات ؟

ـ منذ أربعة أعوام

وارسلت زفرة عميقة ، ودست الخصلة النافرة الى موضعها تحت الشال . وكان اليوم حارا ، والشمس تصب شواظها دون ما رحمة على مدينة الموتى تلك .. حتى لقد استحال لون العشب القليل ، النابت على القبور ، بنيا أسمر ،

لفرط الحرارة والتراب ، بينما سكنت أوراق الشجيرات المغبرة الخشنة ، التى كانت تقوم كئيبة بين الصلبان ، وكأنها هى الأخرى ميتة !

وعدت أسأل المرأة وانا أشير برأسى نحو قبر الصبى : « وكيف كان موته ؟ » . فأجابت فى اقتضاب ، وهى تمد يدا مغضنة لتربت القبر : **« لقد ديس بسنابك الخيل حتى مات ! »**

ـ وكيف كان ذلك ؟

وكنت أعلم أنى أجافى الذوق والمجاملة ، ولكن اعراض المرأة وهدوءها أثارانى وحرضانى ، حتى لقد وسوست لى نزوة لم أدر لها مبررا ، بالرغبة فى أن أرى الدموع فى عينيها ! .. كان ثمة شىء غير طبيعى فى سكونها ، وان لم يفتنى ـ فى الوقت ذاته ـ أن أتبين أنه لم يكن مصطنعا ! .. وحملها سؤالى على أن ترفع عينيها مرة أخرى نحوى ، فلما تأملتنى متفحصة من رأسى الى قدمى ـ فى صمت ـ أرسلت زفرة قصيرة ، وبدأت تروى قصتها فى صوت وقور ، هادىء ، مفعم بالشجن :

« اليك ما جرى .. كان أبوه فى السجن جزاء الاختلاس ، وقد قضى عاما ونصف العام . وكنا فى تلك الفترة قد أتينا على كل ما كان مدخرا لدينا من مال .. وما كان هذا المال المدخر بالكثير . وما أن خرج زوجى من السجن ، حتى كنا قد بلغنا من الادقاع درجة اضطررت معها الى أن اتخذ من ثمار اللفت الليفى وقودا للتدفئة . فلقد أعطانى بستانى ـ كنت أعرفه ـ ملء عربة من ثمار اللفت الليفى التالفة ، فجففتها ، وأخذت استعملها مع الروث المجفف كوقود ، فكانت ترسل دخانا فظيعا ، وتفسد مذاق الطعام ! »

***

• **واستطردت المرأة قائلة : « وكان كولوشا ـ ابنى ـ** يذهب الى المدرسة . وكان صبيا خفيف الحركة ، حاضر

البديهة ، جد مدبر ومقتصد ، حتى أنه كان يحضر معه الى البيت دائما كل مايصادفه من قطع الخشب والوقود التى يعثر عليها أثناء عودته من المدرسة . وكنا اذ ذاك فى فصل الربيع ، وقد أخذ الجليد فى الذوبان ، ولم يكن لدى كولوشا ماينتعله سوى حذاءين من اللباد . وكان اذا ماخلعهما ، بدت قدماه شديدتى الاحمرار . وفى تلك الاثناء ، أطلقوا سراح أبيه ، فأخرجوه من السجن ، ونقلوه الى البيت فى عربة ، اذ كان قد أصيب بالشلل . وظل راقدا فى البيت ، يرمقنى وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة ، فكنت أرمقه وأنا أقول له فى نفسى : « **انك أنت الذى جلبت على كل هذا .. والآن ، هل ترانى سأطعمك ؟ .. انك لجدير بأن تلقى فى مستنقع قذر ، وهذا ما أتمنى أن أفعله بك !** » .. ولكن كولوشا بكى حين رآه ، وشحب وجهه حتى صار فى بياض غطاء الفراش ، وتدافعت الدموع غزيرة ، كبيرة ، على خديه ، وسألنى : « ماذا جرى له يا أمى ؟ » . فقلت له : « لقد أخذ حظه من الحياة ! » .. ومنذ ذلك اليوم أخذت الامور تسير من سىء الى أسوأ . ورحت أعمل حتى أصبحت جلدا على عظم ، ولكننى كنت ، مهما أضننى نفسى ، لا أحصل على أكثر من عشرين كوبيكا .. ولا يحدث هذا الا فى الايام التى يوالينى فيها الحظ !

« كانت حياة أسوأ من الموت ، حتى اننى كثيرا ما فكرت فى أن أقضى على نفسى بيدى . ولقد فطن كولوشا الى حالى هذه ، فساءت حالته النفسية . وعندما خيل لى مرة اننى لم أعد أحتمل ، هتفت فى أسى : « يالهذه الحياة اللعينة التى أحياها ! . الا ليتنى أموت .. أو ليت أحدكما يموت ! » .. وكنت أوجه الخطاب الى كولوشا وأبيه . **واكتفى الاب بان هز رأسه ، وكأنه يقول : « لسوف أرحل عما قريب ، فلا تتململى ، ولكن اصبرى ! » .. أما كولوشا ، فقد رمقنى بنظرة طويلة ، ثم أشاح عنى ، وغادر البيت** . وما أن خرج ، حتى شعرت بالندم للكلمات التى

قلتها ، ولكن وقت الندم كان قد فات .. ولم تعد ثمة فرصة لتداركه . فلم تنقض ساعة حتى أقبل شرطى فى مركبة ، وقال : « أ أنت جوسبوشا شيشينينا ؟ » . وغاص قلبى بين ضلوعى ، بينما عاد الشرطي يقول : **« انك مدعوة الى المستشفى ، فان جياد التاجر أنوخين قد داست ابنك »** .. وركبت لتوى الى المستشفى ، وكأنما كان ثمة من نشر على مقعد العربة جمرا من نار متقدة . وظللت طيلة الطريق أقول لنفسى : « ما الذى فعلته أيتها المرأة التعسة ؟ »

« ووصلنا أخيرا ، فاذا كولوشا راقد فى سرير ، وجسمه ملتف كله فى الضمادات . وابتسم لى ، وانحدرت الدموع على خديه .. وقال هامسا : « اغفرى لى يا أماه .. لقد أخذ الشرطى النقود » . فقلت : « عن أية نقود تتكلم ياكولوشا ؟ » .. فقال : « النقود التى أعطانيها المارة فى الطريق ، وأنوخين أيضا ! » .. قلت : « ولاى شيء أعطوك النقود ؟ » ، فقال : « لهذا » ، ثم أرسل أنينا خافتا قصيرا .. واتسعت عيناه ، فقلت : « كيف لم تر الجياد وهى مقبلة عليك ياكولوشا ؟ » . واذ ذاك قال فى بساطة وجلاء : **« بل رأيتها يا أماه ، ولكننى لم أشأ أن أتحول عن طريقها ، اذ خطر لى أن الناس سيمنحوننى نقودا ، اذا هى داستنى .. وقد منحونى فعلا ! »** .. تلك كانت عين كلماته ، بالنص ! »

***

• **وتابعت** المرأة قصتها قائلة : « اذ ذاك تبينت كل شيء ، وأدركت مافعله ملاكى بنفسه ، ولكن الاوان كان قد فات . اذ مات فى الصباح التالى . وقد ظل محتفظا بصفاء ذهنه حتى اللحظة الاخيرة ، ولم ينفك عن القول : **« اشترى لابى هذا .. واشترى له ذاك .. وابتاعى شيئا لنفسك أنت الاخرى ! »** ، وكأنما كانت هناك أموال طائلة . وكانت هناك فى الواقع سبعة

واربعون روبلا .. فذهبت الى التــاجر أنوخين ، ولـكنه لم يمنحنى أكثر من خمسة روبلات ، وهو يزمجر ويعترض ، ويقول : « لقد ألقى الصبى بنفسه تحت الجياد ، وقد رآه الكثيرون . فلأى شيء جئت تستجديننى مالا ؟ »

« ولم أذهب اليه بعد ذلك قط .. وهذا كل ماحدث أيها الشاب »

وكفت عن الكلام ، ثم استعادت ما كانت عليه من برود وجمود ..

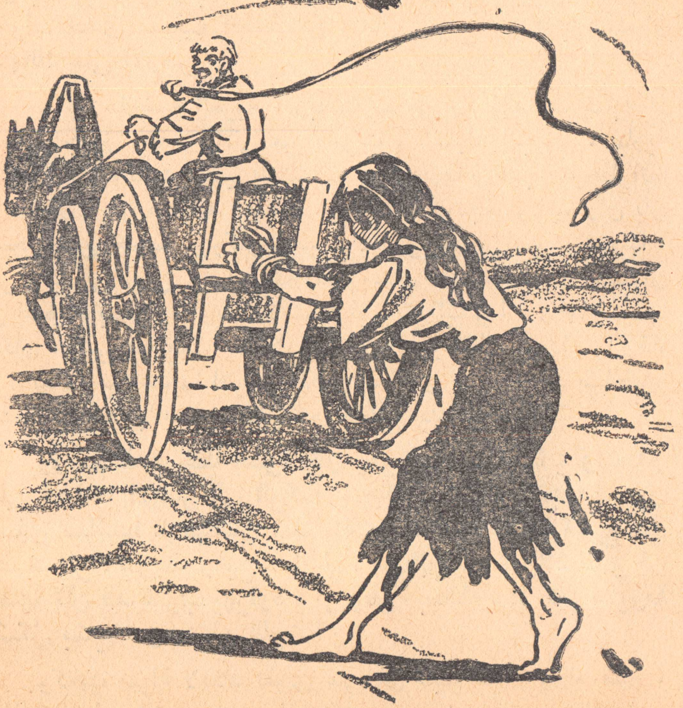
وكانت المقبرة هادئة ، خالية من الناس . وكانت الصلبان، والأشجار الذابلة ، وكثبان التراب التى كانت القبور تتألف منها ، وهذه المرأة الجامدة الواجمة التى جلست على القــبر فى ذلك الوضع الحزين .. كانت كل هذه الاشياء تجعلنى أفكر فى الموت ، وفى الآلام التى يعانيها البشر !

ولكن السماء كانت خالية من السحب ، وقد أخذت تسكب على الارض قيظا حارقا .. فتناولت بعض قطع النقود من جيبى ، وقدمتها للمرأة التى كانت باقية على قيد الحياة ، رغم أن النكد وسوء الحظ والتعاسة كانت كفيلة بقتلها ! .. ولكنها هزت راسها وقالت فى تؤدة غريبة :

ـ لاتزعج نفسك أيها الشاب ، فقد نلت كفايتى اليوم ، ولم أعد أرغب فى مزيد . اننى وحيدة فى الحياة .. وحيدة تماما !

وأرسلت زفرة حرى ، وعادت تزم شفتيها الى الدرجة التى كان فمها ينثنى عندها بذلك الشكل الحزين الذى رأيتها عليه فى البداية !

موكب العار!



EXPOSURE

• كان الحشد يتحرك ، مارا بالاكواخ الطينية البيضـاء ، فى شارع القرية ، وأفراده يصيحون بأصوات عالية .

وكان الموكب يتحرك فى بطء ، وكأنه موجـة عارمة ، وقد سار فى مقدمته حصان أجرب ، منكس الرأس .. كلما رفع احدى ساقيه الاماميتين ، مال رأسه الى الامام وكأنه يوشك ان ينكفىء على وجهه فيدفن أنفه فى رغام الطريق .. واذا حرك احدى ساقيه الخلفيتين ، مال وترنح وكأنه يوشك أن يتهالك على الارض !

والى عارضة العربة ، ربطت ـ من رسفيها ـ شابة لم تكد تتجاوز العقد الثانى من عمرها ، ضئيلة الجسم ، عارية تماما ! .. وكانت تسير بجنب ـ أى وجهها فى اتجاه،وخطواتها فى اتجاه آخر متعامد عليه ـ وركبتاها ترتجفان وتنذران بأن تتخليا عن حملها . وكان رأسها المكسو بشعر أسود أشعث ، مرفوعا الى أعلى ، وعيناها المفتوحتان على سعتهما تحملقان فى الفضاء بنظرة خاوية ، لاتشبه نظرات البشر ! .. أماجسمها فكان موشى بعلامات تمثلت فى خطوط ونقاط سوداء وزرقاء .. بينما كان ثديها الايسر المكور ـ الذى ينم عن أن صاحبته عذراء ـ مصابا بجرح غائر ، راح الدم يتدفق منه !

ورسم الدم خطا أسود كان يمر فوق بطنهـا ، وينحدر على فخذها الايسر الى الركبة . وكان التراب متجمدا حول أسفل ساقيها الرفيعتين المتناسقتين . وبدا كأنما انتزع من جسد المرأة شريط رفيع ، طويل ، من الجلد .. ولاشك فى ان بطنها كان قد ضرب بهراوة ، أو وطىء بحذاء ، اذ كان متورما بشكل بشع ، ومحتقن اللون !

وكانت المرأة لاتكاد تقوى على ان تجر قدما وراء قدم ، خلال التراب الاسمر .. فقد كان جسـدها بأسره ملتويا . ولم يكن يسع المرء سوى ان يعجب من ان ساقيهـا ـ اللتين

كانتا حافلتين بالكدمات كجسدها ـ كانتا تقويان على حملها ، ومن انها كانت تتمالك نفسها من ان تقع وتجر على الارض !

***

• **وكان** يقف فى العربة فلاح يرتدى قميصا روسياأبيض ، وقبعة من فراء (الاستراخان) الاسود ، افلتت من حافتها خصلة من شعر أحمر لامع ، تدلت على جبينه . وامسك بعنان الجواد باحدى يديه ، بينما أمسك باليد الاخرى سوطا كان يلهب به الجواد أولا ، ثم المرأة الصغيرة ـ التى تلقت من الضرب حتى ذاك الوقت مايفوق الوصف ـ فى توال متناسق رتيب ! .. وكانت عينا الرجل محمرتين ـ كأنهما كأسان من دم ـ وقد راحتا تومضان بنصر كان يعتقد انه من حقه ! .. وكان كما قميصه مرفوعين ، يكشفان عن ساعدين مفتولى العضلات ، مكسوين بشعر أحمر .. أما فمه ، فكان مفتوحا ، يكشف عن صفين من الاسنان البيضاء الحادة ..

وكان يصيح من وقت الى آخر ، بصوت أجش : « اليك هذه الضربة أيتها الفاجرة ! .. ها .. ها ! .. وهذه أيضا » .

وكان الحشد يسير وراء المرأة والعربة ، وقد أخذ أفراده يصرخون ، ويضحكون ، ويصيحون ساخرين ، ويصفرون ، ويستحثون الرجل ، ويهزأون من المرأة !.. وكان السباب المقذع يتعالى من هنا ومن هناك .. وقد يجرى فرد من الجمع ـ بين وقت وآخر ـ ويلقى فى وجه المرأة بكلمات بذيئة فاحشة ، واذ ذاك كان الجمع ينفجر ضاحكا ، فيطغى ضجيج الضحك على فرقعة السوط وهو يمرق فى الهواء . وكانت وجوه النساء المندسات فى الجمع ، مسارح لشتى الانفعالات ، بينما كانت عيونهن تومض سرورا !.. أما الرجال ، فكانوا سادرين فى توجيه فاحش التعليقات الى الفلاح الواقف فى العربة .. وكان يلتفت اليهم ، ويقهقه فاغرا فاه على سعته ، ثم يهوى بالسوط فجأة

على جسد المرأة .. وكان السوط الطويل ، الرفيع ، يلتف حول كتفيها ، ويلذعها تحت ابطها .. وأذ ذاك كان الفلاح يجذبه بشدة مفاجئة ، فتصرخ المرأة ، ثم تقع على ظهرها .. ويقفز أفراد من الجمع نحوها ، فيحجبون جسدها عن الابصار وهم ينحنون عليها

ويقف الجواد . ولكنه لا يلبث أن يعاود سيره المتخطر بعد لحظة ، والمرأة الرازحة تحت عارها تسير وراءه .. **وكان الحصان لا ينفك يهز رأسه الاجرب ، وكأنه يقول : ((ما أبشعه من مصير أن تكون جوادا يسخره الناس فى مهامهم المزرية !))**

وكانت السماء ـ سماء الجنوب ـ خالية من أية شائبة ، لايرى خلالها أى أثر لسحاب ، والشمس تصب شواظ لهيبها على الارض

* * *

• **أن** هذا الذى كتبته ليس صورة لقصاص عادل ، من وحى الخيال .. وهذه الصورة ـ لسوء الحظ ـ ليست من ابتداعى ، وانما هى صورة واقعية لمايسمونه ((اعلان الفضيحة)) ، وهى وسيلة يعاقب بها الازواج الزوجات الخائنات .. انها صورة نقلت عن الحياة .. انها من عاداتنا ، وقد شهدتها بعينى فى ١٥ يوليو سنة ١٨٩١ ، فى قرية (كانديبوفكا) ، بمنطقة (خيرسون جوبرنيا) ، باقليم (نيكولايفسكى)

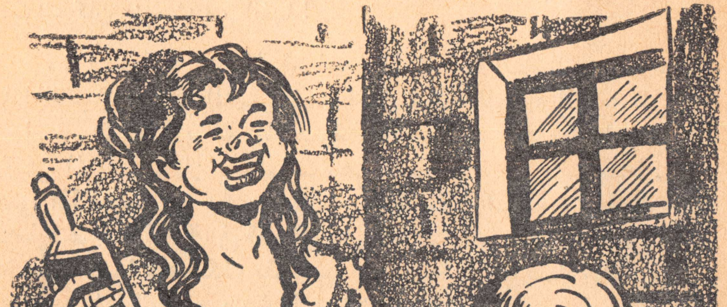
ولقد سمعت أن النساء اللاتى يقدمن على خيانة أزواجهن فى اقليم الفولجا ـ الذى جئت منه ـ تطلى أجسادهن بالقار ، ويلصق بها ريش !.. ولقد عرفت حالات كان الازواج وآباء الازواج يعمدون فيها الى التجديد ، فيطلون أجساد الزوجات الخائنات بالدبس ـ العسل الاسود السميك ـ فى وقت الصيف ، ويربطونهن الى الاشجار ، لكى تلدغهن الحشرات وتمرصهن ! .. كذلك سمعت فى بعض احيان عن نساء كن

يوثقن ، ويلقى بهن الى التلال الموبوءة بالنمل !

ولقد أثبت لى هذا الذى رأيته بعينى ، أن مثل هذه الامور محتملة الوقوع حقيقة بين الجهلة ، عديمى القـــلوب ، الذين أحالتهم البغضاء المسعورة ـ المتفشية فى حياتهم ـ الى وحوش ضارية ، يستبد بها الجشع والحسد !



وكر العاهرة



LULLABY

• فى احدى ليالى الصيف ذات الجو المشبع بالرطوبة ، رايت فى حارة جانبية ضيقة ، عند أطراف المدينــة ، منظرا غريبا .. منظر امرأة وقفت وسط بركة ماء كبيرة ، وهى تدب بقدميها فتنثر الوحل حولهـا ، على غرار ما يفعـل الاولاد الصغار .. وفيما كانت تفعل ذلك ، راحت تردد أغنية بذيئة، بصوت كان ينبعث من أنفها !

.. كانت ثمة عاصفة قد اجتاحت المدينة أثناء النهـار ، فاذا السيل الغزير المنهمر قد أحال أرض الحارة المتربة الى وحل .. وكانت بركة الماء عميقة ، حتى لقد كاد ماؤها يبلغ ركبتى المرأة . وكان صوتها – وهى تغنى – يوحى بأنهاثملة.. **حتى اذا تعبت من رقصها هذا ، جلست فى البركة ، مما كان يجعلها عرضة للغرق فى الماء الموحل .. فرفعت عنقى حذاءى ، وخضت اليها فأمسكت بذراعيها وجررتها الى بقعة جافة .** وتبدى جليا أنها ذعرت فى أول الامر ، فأسلمت قيـادها لى طائعة ، دون أن تنبث ببنت شفة . ولكنها ما لبثت أن انتزعت ذراعها اليمنى – من قبضتى – بحركة عنيفة من جسمها كله ، وضربتنى بكفها على صدرى ، وصرخت : « الغوث ! » . ثم عادت تسعى الى وسط البركة فى اصرار ، وهى تجرنى معها ، صائحة فى عبارات متلعثمة : « أيها الشيطان !.. لن أذهب !.. سأمضى فى حالى .. وامض فى حالك .. النجدة ! »

وبرز حارس الليل من جوف الظلام ، فوقف ، على بعـد خمس خطوات منا ، وقال فى لهجة ارتياب : « من الذى يحدث هذا الشغب ؟ » . فذكرت له اننى خشيت على المرأة أن تغرق فى الوحل ، فسعيت لانتشالها . وتفرس الخفير فى المرأة الثملة عن كثب ، ثم بصق بصوت عال ،وصـاح آمرا : « اخرجى يا ماشكا ! » ، فقالت المرأة : « لن أخرج ! » .. وعاد يقول : « قلت لك اخرجى » ، فكان جوابها : « لن أخرج ! » . واذ

ذاك قال ، فى غير ما غل أو ضغينة : « لسوف أضربك أيتها الفاجرة ! » ، ثم التفت الى وقال فى صوت خافت : « انها تعيش على مقربة من هنا .. وهى تتعيش من جمع فضلات الثياب البالية . واسمها ماشكا .. هل معك سيجارة ؟ »

وأشعلنا سيجارتين ، بينما أخذت المرأة تخوض البركة فى عناد ، وهى تصيح بين آن وآخر : **« أيها السيدان .. اننى سيدة نفسى ! لسوف أستحم هنا ، مادمت راغبة فى ذلك ! » ..**

فقال الخفير ـ وكان شيخا ملتحيا متين البنيان : « سأهيىء لك حماما ! » .. ثم التفت الى قائلا : « هكذا تفعل هى فى كل ليلة تقريبا .. مع أن لها ابنا مقعدا فى البيت ! »

ـ وهل هى تعيش بعيدا عن هنا ؟

فلم يجبنى ، وانما مضى يتابع حديثه الاول : « انها خليقة بأن تعدم رميا بالرصاص ! » . فقلت : « بل هى أهل لان تنقل الى دارها » ..

فأخفى وجهه فى لحيته وضحك ، ثم رفع سيجارته نحو وجهى .. وما لبث أن ابتعد سائرا فى الحارة الموحلة وهو يقول : « خذها ، ولكن .. تأمل خلقتها أولا ! »

وفى تلك الاثناء ، كانت المرأة قد جلست فى الوحل وراحت تنثره بيديها ، وهى تغنى مرسلة صراخها العالى من أنفها : « على صفحة البحر العميـ ـ يـ ـ يـ ـ ق ! .. »

***

• **وبزغت** نجمة خلال الفراغ المعتم الذى كان يمتد فوقنا ، فانعكست صورتها على الماء الموحل السميك ، غير بعيدة عن البقعة التى جلست فيها المرأة . وكان انعكاس النجمة يتلاشى كلما تحرك سطح الماء . وعدت أخوض البركة ، ثم وضعت يدى تحت ابطى المغنية ورفعتها ، واستعنت بركبتى على دفعها الى خارج الماء . وراحت هى تتشبث بمكانها ،



وتلوح بذراعيها ، وتهددني صارخة : « **حسنا .. اضربني ! اضربني !.. لا بأس ، اضربني !.. آه ، يالك من وحش !.. آه ، يالك من جزار !.. امض في ضربي !** »

وأسندتها الى سياج ، وسألتها عن عنوان مسكنهما ، فرفعت رأسها المثقل بالخمر ، وتأملتني بالبقعتين السوداوين اللتين كانتا تمثلان عينيها ، فلاحظت أن أنفها كان غائرا في البقعة المخصصة له من وجهها ، حتى أنه لم يكن يبدو كأكثر من زر ! .. **وكانت شفتها العليا مشقوقة وملتوية بتأثير جرح قديم ، وقد كشفت عن أسنان دقيقة .. وكانت على وجهها المشوه الصغير ابتسامة عنيدة ، متمردة .** وقالت أخيرا : « فليكن .. لنذهب الى البيت ! »

وسرنا معا ، وقد التزمنا جانب السياج .. وكان طرف ثوبها المبتل لا ينفك يلفح ساقي .. وأخذت تغمغم وكأنها أفاقت من سكرها : « هيا ياعزيزي .. سأدعوك الى البيت وسأريحك ! »

وانتهت بي الى ساحة دار كبيرة ، ذات طابقين .. وسارت في حذر ــ كما يتحسس الاعمى طريقه ــ بين عربات وبراميل وصناديق وأكوام من خشب الوقود ، ثم وقفت أمام ثغرة في

أسفل المبنى ، ودعتني قائلة : « تفضل . . ادخل ! » . . وهبطت الدرجات الزلقة ، وأنا أستند الى الجدارين الضيقين اللذين كانا يحفان بها ، وقد أحطت خصر المرأة بذراعي لاقيها السقوط ، وأنا لا أكاد أقوى على تلك المهمة . . حتى التقت قدماي بشريط اللباد القائم أمام الباب ، فتلمست مقبض الباب وفتحته ، ووقفت على عتبة فجوة سوداء ، دون أن أجد من نفسي جرأة على التقدم خطوة واحدة . .

وانبعث من الظلام صوت ناعم متسائلا : « أهذه أنت يا أماه ؟ » . . فأجابت المرأة الثملة في رفق : « أجل . . هذه أنا ! »

وتصاعدت الى خياشيمي رائحة التراب المثقل بالرطوبة ، وعبير القار . واشتعل عود ثقاب ، فكشف لهبه الضئيل — في لحظة اتقاده — عن وجه صبي شاحب . ثم خبا الضوء . وقالت المرأة وهي تترنح : « ومن سواي يفد عليك ؟ . . أجل ، هذه أنا ! » . . واشتعل عود ثقاب آخر ، وسمعت رنين زجاج ، ثم أوقدت يد نحيلة ضامرة مصباحا صغيرا من الصفيح . وقالت المرأة : « ياحبيبي ! » ، ثم تمايلت ، وتهالكت في ركن الغرفة . . وكان ثمة سرير عريض ، لا يكاد يرتفع عن الارض المرصوفة بالطوب !

وقرب الطفل — الذي كان في الغرفة — وجهه من المصباح متفحصا اللهب ، ثم أصلح من فتيل المصباح حين رآه وقد بدأ يبعث دخانا . وكان له وجه صغير حزين ، ذو أنف حاد ، وشفتين ممتلئتين كشفتي الفتاة . . كان وجها صغيرا كأنما رسم بريشة دقيقة ، وما كان أحراه بأن يوجد بعيدا عن مثل هذا الجب الرطب المظلم ! . . وما أن أصلح الصبي المصباح ، حتى تطلع الى بعينين تحف بهما أهداب كثيفة ، وسألني : « أمخمورة هي ؟ »

وكانت أمه — المستلقية على عرض السرير — تغص بالفواق (الزغطة) وترسل غطيطا . فقلت : « يحسن تجريدها من

ثيابها » . ففض الصبى بصره وأجاب : « جردها ! » . فلما شرعت أرفع ثوب المرأة المبتل ، سألنى فى هدوء ، وفى لهجة تجارية : « المصباح .. هل أطفئه ؟ » . فقلت وأنا خالى البال : « ولماذا ؟ » .. ولكنه لم يجب ، وأخذ يراقبنى وأنا أقلب أمه وكأنها كيس ملىء بالدقيق !

* * *

• **وكان** الصبى يجلس على الارض ، فى صندوق صنع من ألواح من الخشب السميك ، وقد نقش عليه بحروف سوداء: « يحمل بحذر . شركة ن . ر . وشركاؤه » .. مما نم عن انه من الصناديق التى توضع فيها السلع التجارية . وكانت كتفا الصبى تحجبان الحافة الدنيا من فراغ النافذة .. وكانت ثمة أرفف عدة مثبتة الى الجدار ، وعليها أكوام من علب السجاير وعلب الثقاب . والى جوار الصندوق الذى جلس فيه الصبى ، كان ثمة صندوق آخر ، مغطى بورق أصفر ، يدل مظهره على أنه يستخدم كمنضدة ! .. وراح الصبى يتطلع الى زجاج النافذة ــ الذى كان يعكس ظلام الليل ــ وهو يحيط عنقه بيديه الصغيرتين المثيرتين للاشفاق .

واذ خلعت عن المرأة ثيابها المبتلة ، ألقيت بهذه الثياب على المدفأة ، وغسلت يدى فى حوض من الفخار كان فى أحد الاركان ، ثم جففتهما فى منديل ، وقلت للصغير : « والآن ، وداعا ! » . فتطلع الى ، وسألنى وهو يتكلم فى لثغة بسيطة : « هل أطفىء المصباح الآن ؟ » . فأجبت : « اذا راق لك ذلك »

ــ وانت .. هل ستنصرف ؟ .. ألن تأوى الى الفراش .. معها !

وأشار بيده الصغيرة الى أمه ، فقلت مذهولا ، متبلد الفهم : « ولماذا ؟ » . واذا به يقول فى بساطة مؤلمة : **« انت أدرى »** ، ثم تمطى وأردف قائلا : **« كلهم يفعلون هذا ! »** .. وتلفت حولى

وقد عرانى الخجل ، فاذا الى اليمين فوهة مدفأة قبيحة الشكل ، وقد تناثرت على رفها أطباق قذرة .. وفى ركن الحجرة ـ خلف صندوق ـ تراكمت قطع من الحبال المطلية بالقار ، وكومة من الاسمال البالية ، وقطع من خشب الشجر للوقود ، وحامل لرفع دلاء الماء .. وعند قدمى ـ على السرير المنخفض ـ كانت المرأة الشاحبة اللون مستغرقة فى النوم والغطيط !

وسألت الصبى : « أتأذن لى بالجلوس برهة ؟ » .. فتطلع الى من تحت حاجبيه ، وقال : « ولكنها لن تستيقظ قبل الصباح » . فقلت : « ولكننى لا أريدها فى شىء » . ثم تهالكت على الارض بجوار صندوقه ، ورويت له كيف التقيت بأمه . وحاولت فى البداية أن أخفف من وقع القصة ، بأن أرويها بأسلوب فكاهى فقلت : « كانت جالسة فى الوحل ، تجذف بيديها وتغنى ... » ، وهز الصبى رأسه ، وابتسم ابتسامة باهتة ، ثم قال وهو يحك صدره : **« كانت ثملة .. وهذا هو السبب . انها تحب هذا العبث ، حتى وهى كاملة الوعى .. انها كالطفلة ! »**

واستطعت اذ ذاك أن أرى عينيه بجلاء . كانت أهدابه طويلة الى درجة عجيبة ، وكان جفناه هما الآخران مكسوين بشعيرات كثة ، مقوسة ، ذات شكل بديع . وكانت الهالات الزرقاء ـ تحت عينيه ـ تزيد من شحوب بشرته التى كانت تفتقر الى الدم .. كما كانت تتخلل جبينه العريض تجعدات فوق الانف ، وقد توج هذا الجبين شعر كثيف ، مجعد ، ذو لون يضرب الى الحمرة . ولا سبيل الى وصف التعبير الذى كان يتجلى فى عينيه اللتين كانتا تنمان عن يقظة وهدوء . وشعرت بأن من العسير أن احتمل تلك النظرة غير الآدمية التى كانت تنبعث منهما ! .. وقلت أخيرا : « ساقاك .. ماذا بهما ؟ »

فعبثت يده بالاسمال حتى خلصت من بينها ساقا ذاوية ، بدت كعنق الكرنبة .. ورفعها بيده فوضعها على حافة الصندوق ، وقال : « انهما بهذا الشكل .. الساقان معا .. منذ أن ولدت ! .. فهما لاتقويان على السير .. انهما عديمتا الحياة .. هذا غاية ما فى الامر ! »

ـ وماذا يوجد فى هذه العلب ؟

وأشرت الى العلب المتراكمة على الارفف ، فأجاب : « انها مجموعة الحيوان » . ورفع ساقه بيده ـ كما لو كانت قطعة من خشب ! ـ فدسها بين الاسمال فى قاع الصندوق ، ثم قال فى ابتسامة رزينة ، تنم عن مودة : « هل أريكها ؟ .. اطمئن ، فانك لم تر لها شبيها على الاطلاق » . وبادر الى رفع جسده قليلا بذراعيه اللتين امتازتا بطول ونحول غير عاديين . وجلس على حافة الصندوق ، ثم شرع يرفع العلب عن الارفف وناولنى علبة اثر أخرى ، وهو يقول : « حذرا .. لاتفتحها ، والا جرت الحيوانات هاربة . قرب علبة من اذنك واستمع .. ماذا تسمع ؟ » . فقربت احدى العلب من اذنى وأنصت ، ثم قلت : « ان بداخلها شيئا يتحرك »

ـ آها ! .. بها عنكبوت .. وغد ! .. ان اسمه «الطبال» .. قارع الطبل ! وهو ذكى ماكر !

***

• **وأومضت** عينا الطفل البديعتان بحيوية وحنان ، بينما تراقصت على وجهه الشاحب ابتسامة ، وهو ماض فى رفع العلب عن الارفف بيديه السريعتى الحركة . وكان يقربها الى اذنه أولا ، ثم الى أذنى ، وهو يتحدث فى تحمس : « أما هذا ، فهو (أنيسيم) الصرصار .. ان له منظرا مهيبا كالجندى ! .. وهذه ذبابة .. زوجة مفتش ، وهى امرأة شريرة ، انها أسوأ النساء ! فهي تطن طيلة النهار ، وهي تنهر

كل امرىء ، وتشد أمى من شعرها .. لست أعنى الذبابة طبعا ، وانما زوجة المفتش التى تشبهها .. ان لمسكنها نوافذ تطل على الطريق . وهى لاتبدو الا كالذبابة ! .. أما هـذا ، فصرصار أسود ، هائل .. انه « السيد » . لابأس به ، ولكنه سكير ، عديم الحياء . فهو اذا ثمل تسلل الى ساحة الـدار عاريا الا من شعر كثيف ، فكأنه كلب أسود ! .. وهذه بقة اسمها « العم نيكوديم » ، أمسكت بها فى ساحة الدار .. **ان « العم نيكوديم » من الحجاج الذين يتنقلون بين الاماكن المقدسة! وهو من الاشرار .. رغم أنه يزعم أنه يجمع الصدقات للكنيسة. ان امى تدعوه « الغشاش » . وهو عشيقها كذلك . ان لها من العشاق فوق ماتستطيع أن تحصى .. انهم كثيرون كالذباب ، رغم انها بلا أنف ! »**

ـ ألا تضربك أمك ؟

ـ تضربنى ؟ .. انك عبيط ! .. انها لاتستطيع العيش دونى ، فهى طيبة القلب ، وان كانت سكيرة ! .. على أن كل امرىء فى شارعنا هذا سكير . وهى رشيقة ، وخفيفة الروح ايضا .. لايعيبها سوى ادمانها الشراب .. يالها من مومس !! اننى لا أفتأ أقول لها : « كفى عن تجرع الفودكا أيتها الحمقاء .. فلو انك انصرفت عنها لغدوت غنية » . ولكنها تضحك منى . انها امرأة .. فلا عجب فى أن تكون حمقاء ! .. الا انها فتاة طيبة . حسنا ، لسوف يفيقها النوم من سكرها ، وسـترى بنفسك »

وكانت ابتسامته ساحرة ، تجعلك مشوقا الى أن تئن عجزا عن احتمال نيران الاشفاق التى تكوى ضلوعك ، أو عن أن تصرخ بصوت مدو تسمعه المدينة بأسرها . وكان رأسه الصغير الجميل يتأرجح على عنقه النحيل كزهرة عجيبة ، وعينـاه تتألقان بتحمس مطرد ، وترسلان وميضا اجتذبنى بقوة لم أجد فى وسعى مقاومة لها !

وفيما كنت أنصت الى حديثه المؤلم - رغم سذاجته الصبيانية - نسيت لبرهة المكان الذى كنت أجلس فيه . ولكننى سرعان مافطنت الى النافذة التى كانت تشبه الكوة ، والتى كان الوحل يتناثر عليها من الخارج ، والى المدفأة بفوهتها السوداء ، وكومة الأسمال البالية المتراكمة فى أحد الاركان ، وجسد المرأة المستلقية على سرير تألف من كومة من الاسمال .. جسد الأم .. الجسد الذى كان فى صفرة الزبد !

وتساءل الصبى مزهوا : « هل أعجبك معرض الحيوان ؟»

- انه بديع جدا !

- **ولكنى لا أملك نحلة واحدة .. ولا فراشة كذلك**

- ما اسمك ؟

- **لينكا**

- انه اسمى أنا الآخر

- **أحقا ؟ .. ولكن .. أى نوع من الرجال أنت ؟**

- لست من أى نوع !

- **آه ، انك تكذب .. كل امرىء ينتمى الى نوع معين .. على أن بوسعى أن أعرف .. انك شاب طيب !**

- ربما !

- **آه ، ان بوسعى أن أعرف .. انك كذلك « قطهارب»!**

- ما الذى يحملك على هذا الظن ؟

- **حسنا .. مجرد جلوسك معى هنا يعنى انك خائف من أن تعود الى دارك فى بهيم الليل**

- ولكن ضوء النهار انبثق بالفعل

- **اذن ، فهل أنت تعتزم الانصراف ؟**

- لسوف أعود ثانية !

***

• **ولم يصدقنى** ، بل غطى عينيه البديعتين بأهدابه الطويلة

.. وبعد فترة من الصمت سألنى : « ولماذا ؟ »

ـ لماذا ؟ ! .. لمجرد أن أراك .. انك صبى لطيف ، فهل تأذن لى فى الحضور ؟

فقال : « ان لكل امرىء الحق فى المجىء الى هنا ! » .. وتنهد ، ثم أردف قائلا : « انك تكذب على »

ـ بل أقسم أن أجىء

ـ أجل ، تعال .. تعال لتزورنى أنا ، لا لتزور أمى .. ليخطفها الشيطان !.. لنصبح صديقين ، أنا وانت .. هه ؟

ـ فليكن !

ـ حسنا .. لايهم أن تكون كبيرا .. ماعمرك ؟

ـ عشرون عاما

ـ اننى فى الحادية عشرة ، وليس لى من أنداد ولا أصحاب ، اللهم الا « كانكا » ابنة السقاء .. ان أمها تضربها ، لانها تأتى لزيارتى .. أفأنت لص ؟

ـ لا .. ولكن ، لماذا تظننى لصا ؟

ـ وجهك .. انه فظيع .. جلد على عظم .. ثم ان لك أنفا كأنف اللص ! .. هناك لصان يترددان علينا هنا ، احدهما ـ ويدعى اللص ساشكا ـ أحمق ، غبى ، سخيف .. أما الآخر ـ ويدعى فانيشكا ـ فطيب القلب .. فى طيبة الكلب ! .. هل لديك علب صغيرة !

ـ سأحضر لك بعض العلب

ـ ألا أفعل ! .. ولن انبىء أمى بأنك قادم

ـ ولم لا تنبئها ؟

ـ هكذا أرى .. انها تسر دائما بمقدم الرجال . بل ان الفاجرة تحب الرجال ! .. المسألة بسيطة .. ان أمى فتاة عجيبة ، فهى مشغوفة بالرجال .. لقد استطاعت وهى فى الخامسة عشرة أن تنجبنى .. وهى نفسها لا تدرى حتى الآن كيف حدث ذلك ! .. ومتى ستأتى ؟

ـ فى مساء غد

ـ فى المساء ؟ .. انها اذ ذاك ستكون سكرانة .. وماذا تراك تعمل مادمت لست لصا ؟

ـ انني أبيع الجعة البافارية

ـ أحقا ؟ .. اذن فاحضر لى زجاجة .. هل تعدنى ؟

ـ بالتأكيد . سأحضر لك زجاجة . والآن ، لابد لى من الانصراف

ـ اذن فاسرع .. هل ستأتى ؟

ـ بلا شك

ومد يديه الطويلتين معا نحوى ، فضغطت العظام النحيلة الباردة ، وهززتها ، ثم صعدت الدرجات المفضية الى ساحة الدار ، دن أن التفت خلفى ، وخرجت أترنح كالسكران ..

وكان الفجر قد بزغ .. وفوق عدد من البنايات التى كانت الرطوبة تلفها بغلالة تجعلها لاتبدو واضحة ، كان كوكب الزهراء يرتجف وهو يغرب ! .. ومن ثغرة فى أسفل جدار البيت ، كانت ألواح نافذة الغرفة تحملق فى بعيون مربعة ، معتمة ، ملطخة ، كعيون السكارى ! .. وكان ثمة فلاح أحمر الوجه ينام على عربة بجوار الباب الخارجى ، وقد باعد مابين قدميه العاريتين الضخمتين ، واشرأبت لحيته الكثة المهوشة نحو السماء ، وبدت أسنانه ـ خلال فمه الفاغر ـ ناصعة ، لامعة .. وخيل الى أن الفلاح كان يضحك ساخرا ، وهو مغمض العينين ! .. وتطلع الى كلب هرم تتوسط ظهره بقعة عارية من الشعر ، لعلها أثر ماء ساخن سكب عليه .. وتشمم رجلى ، ثم زام فى رفق وجوع ، فملأ قلبى رثاء له

وكانت سماء الصباح ـ التى شاع فى شحوبها لون وردى ـ تنعكس على صفحات البرك المائية الراكدة ، فاذا هذه الانعكاسات تضفى على البرك القذرة جمالا لا داعى له .. جمالا وقحا يؤذى النفس ويعكر صفاءها !

***

• وفى اليوم التالى سألت صبية البيت الذى أقيم فيه أن يصيدوا لى بعض البق والفراش ، ثم ابتعت عددا من العلب الصغيرة الجميلة من مخزن للادوية ، وذهبت لزيارة «لينكا» حاملا زجاجتين من الجعة ، وبعض الخبز المخلوط بالزنجبيل ، وبعض الحلوى والفطائر . وتقبل لينكا هداياى فى عجب بالغ ، وقد فتح عينيه الجميلتين على سعتهما .. وكانتا تبدوان فى ضوء النهار أبدع وأجمل مما كانتا فى الليل !

وراح يصيح فى صوت خفيض ، لايمت الى الطفولة:«آه ، آه ، آه ! ما أبدع جميع الاشياء التى أحضرتها ! أغنى أنت ؟.. ولكن ، كيف يتسق أن تكون غنيا ، وان تكون رث الثياب .. ومع ذلك فأنت تقول انك لست لصا ! .. ثم ، ما أبدع هذه العلب الصغيرة !.. آه ، آه ، آه !.. اننى لأخجل من ان امسها، فان يدى غير نظيفتين .. ((من)) الذى فى هذه العلبة ؟ .. آها .. هذه بقة ! .. ان لونها يبدو كلون النحاس الذى يعلوه صدأ أخضر .. يالك من شيطانة ! .. وهل تراها ستجرى وتطير هاربة ! .. رحماك يارب ! »

وفجأة ، صاح فى طرب : « أماه .. اهبطى وتعالى فاغسلى يدى .. وانظرى أيتها البطة الى ما أحضره لى ! .. انه نفس الشاب الذى جرك الى هنا فى الليلة الماضية ، وكأنه شرطى .. انه نفس الفتى ! .. وهو الآخر يدعى لينكا ! » .. فسمعت من خلفى صوتا غريبا ، منخفضا ، يقول : «يجب عليك أن تشكره » .. فهز الصبى رأسه بسرعة ، وقال : « شكرا لك .. أشكرك ! » .. وكانت تتطاير فى فضاء الغرفة عاصفة كثيفة من غبار تصاعد من الاسمال القديمة .. واستطعت بعناء أن أبصر خلال هذه العاصفة رأسا مشعثا ، ووجها مشوها لامرأة .. ولمعان أسنانها وهى تبتسم ابتسامة

طبيعية لاتفارقها ، ولا تغيب عن محياها !

وقلت : « كيف حالك ؟ » ، فردت قائلة : « كيف حالك أنت ؟ » .. وبدا صوتها المنبعث من أنفها مبحوحا ، ولكنه كان مرحا ، طروبا .. ورمقتني بنظرة فيها شيء من الحول ، كما كان فيها الكثير من السخرية . وكان لينكا فى تلك الاثناء قد أقبل على خبز الزنجبيل يقضمه ، ويهمهم لنفسه وقد نسي وجودي ، وانصرف يفتح العلب الصغيرة فى حذر ،ليتفقد ماكان بها . وكانت أهدابه الطويلة تلقى على خديه ظلالا ، وتضاعف من دكنة الهالات التى كانت تحيط بعينيه . وأطلت الشمس خلال زجاج النافذة القذرة ، فبدت كئيبة كوجه رجل مكتهل .. وسقط شعاع متأرجح على شعر الصبى الاحمر - وكان قميصه مفتوحا - فكشف عن صدره .. واستطعت أن أرى قلبه يخفق بعنف خلف عظامه الرقيقة ، فيرفع الجلد الشاحب ، وحلمة ثديه الصغيرة

وكانت أمه فوق المدفأة ، فما لبثت أن هبطت ، فبللت طرف منشفة فى الحوض ، ثم اقبلت على لينكا فتناولت يده اليسرى . واذ ذاك صاح الصبى : « لقد هربت ! .. أمسكا بها ! .. لقد هربت ! » . وبدأ ينبش الصندوق بكل جسمه ، فألقى بالاسمال الكريهة الرائحة جانبا،وكشف بذلك عن ساقيه العاجزتين الزرقاوين .. وانفجرت المرأة ضاحكة وهى تفتش بين الاسمال ، وصاحت بدورها : « امسك بها ! »

واذ أمسكت البقة الهاربة ، وضعتها على ابهامها ، وأخذت تتأملها بعينيها المتألقتين اللتين كانتا بلون النرجس ، ثم قالت لى فى لهجة التى تعرفنى منذ زمن : « أن لديه كثيرا منها ! » .. بينما قال ابنها يحذرها فى حزم : « حذار .. لاتسحقيها! .. لقد جلست أمى مرة على معرضي - وهى ثملة - فقضت على عدد كبير من حيواناتى ! » .. فقالت أمه فى رفق : « هلا نسيت هذا الحادث ياعزيزى ؟ »

ـ لقد اضطررت الى أن أقوم بمجهود شاق لدفنها !

ـ أو لم أصطد لك سواها فيما بعد ؟

ـ سواها ! .. ان التى قضيت عليها كانت مدربة ، أينها الرعناء ! .. لقد دفنت الضحايا تحت موقد المدفأة .. زحفت الى هناك ، وتوليت دفنها ! .. ان عندى مقبرة تحت المدفأة .. أتعرف ذلك ؟ .. لقد كان عندى عنكبوت يدعى « مينكا »، كان جد شبيه بأحد عشاق أمى : شاب مرح ، بدين ، يقيم الآن فى السجن !

فهتفت المرأة وهى تتخلل شعر ابنها المجعد بأصابع قصيرة، غليظة ، سمراء : « أواه ، ياحبيبى الغالى ! » .. ثم لكزتنى بمرفقها وقالت وقد تهللت عيناها بالابتسام : « ما أبدع ابنى الصغير هذا ! .. انظر الى هاتين العينين .. ألا تراه جميلا؟» . فقال لينكا وهو يبتسم منصرفا الى فحص بقة : **« فى وسعك أن تأخذى احدى عينى ، على أن تهبينى فى مقابلها ساقين ! »** .. ثم هتف وهو ماض فى فحص الحشرة : « انها قوية .. كأنها خلقت من حديد .. ما أسمنها ! ألا ترين يا أماه انها تشبه الراهب .. ذلك الراهب الذى صنعت له السلم يوما .. هل تذكرينه ؟ »

فقالت المرأة : « اذكره ولا ريب » ، ثم التفتت نحوى ضاحكة ، وأخذت تقول : « حدث يوما أن هبط علينا هنا راهب بدين ، وقال : « اسمعى .. انك تجمعين الاسمال البالية ، فهل لك فى أن تجدلى لى منها سلما من حبال ؟ » .. وما كنت قد سمعت من قبل عن سلم من هذا النوع ، فقلت له : « لا .. لا أستطيع » . ولكنه قال : « اذن ، فسأعلمك » . وفتح صدر مسوحه ، فاذا بحبل طويل متين رفيع ملتف حول بطنه . وعلمنى .. ورحت أجدل الأسمال البالية ، وأزيد فى جدلها مرارا ، وانا أعجب فى نفسى مما يدعوه الى طلب مثل هذا السلم . ووسوست لى نفسى بأنه كان يريد أن يستخدمه

فى السطو على احدى الكنائس ! »

وقهقهت المرأة بصوت عال وهى تشد ذراعها حول كتفى ابنها ، وتربت ظهره طيلة الوقت . ثم استطردت قائلة : «آه .. ما أمكر هؤلاء الرهبان ! .. وجاء صاحبنا فى الموعد الذى حدده ، فدفعت اليه بالسلم قائلة : « هاك ، ولكن .. اذا كنت ستستخدمه فى السرقة ، فلا وزر على ! » ، واذ ذاك ضحك بخبث وقال : « لا .. انما هو لتسلق جدار . فان حول الدير سياجا جد مرتفع من الطوب . ونحن قوم ميالون للخطيئة .. والخطيئة تقع فى الجانب الآخر للسياج .. فهل فهمت ؟» .. وفهمت بالطبع ! .. كان فى حاجة الى السلم ليتسلل من الدير تحت جنح الظلام ، ويسعى الى النساء .. لكم ضحكت واياه من هذه الحيلة ! »

فقال الصبى فى لهجة الكبار : « حقا .. انك لتحبين الضحك بالتأكيد . ولكن ، يحسن بك أن تضعى الابريق على النار »

ـ ولكنا لانملك شيئا من السكر !

ـ ابتاعى قدرا منه

ـ ولكنا لانملك نقودا !

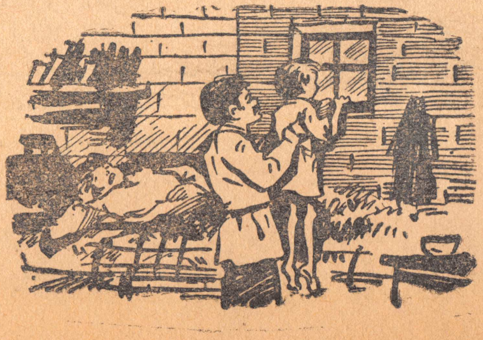
ـ ما هذا الا لأنك سكيرة لاترتوين من الخمر .. خذى بعض النقود منه !

والتفت نحوى متسائلا : « هل معك نقود ؟ » . فأعطيت المرأة مبلغا من المال . واذ ذاك قفزت مستوية على قدميها ، فتناولت من فوق المدفأة ابريقا صغيرا مشوه الشكل ، ثم اختفت من الغرفة وهى تهمهم خلال أنفها بأغنية . وصاح ابنها يلاحقها بصوته : « أماه ! .. اغسلى النافذة فاننى لاأقوى على أن أرى شيئا ! .. يالك من كسول صغيرة ، لاتجيدين سوى العبث ! » . ثم عاد يرتب علب الحشرات على الارفف بعناية . وكانت الارفف مصنوعة من الورق المقوى ، ومعلقة

فى الهواء ـ بجوار الجدار ـ بخيوط مشدودة الى مسامير دقت بين أحجار الجدار الرطب ..

وما لبث الصبى أن عاد يقول : « الحق انها مجتهدة وهى اذا شرعت فى ندف الاسمال المهلهلة ، أثارت غبارا يكاد لكثافته أن يخنقنى ، فأصيح بها : « أماه ، احملينى الى ساحة الدار والا اختنقت ! » ، ولكنها تقول : « تجلد واصبر .. اننى فى بعادك أغدو وحيدة ! » .. انها تحبنى ، وهذا كل ما فى الأمر .. وهى تجمع الاسمال وتغنى .. فهى تعرف ألف أغنية ! » .. وتملكه التحمس ، فأخذت عيناه البديعتان تتألقان ، ورفع حاجبيه الكثيفين ، وأنشد فى صوت عال ، خشن : « آرينا ترقد على فراش من الريش الناعم .. »

وأصخت السمع برهة ، ثم قلت له : « هذه أغنية بذيئة جدا » .. فقال مؤمنا على حكمى : « كل أغانيها على هذا الغرار ! » . ثم أرهف اذنيه فجأة ، وهتف : « انصت ! .. هذه هى الموسيقى ! .. ارفعنى بسرعة ! » . ورفعت عظامه الدقيقة الخفيفة التى كانت بشرته الرقيقة الداكنة كالكيس بالنسبة لها ، واذا به يدس رأسه ملهوفا خلال النافذة فيطل على الخارج .. وكف عن الحركة ، بينما كانت ساقاه الذاويتان تتأرجحان وتحتكان بالحائط ، وكأنهما ليس منه ! .. وكان



ثمة أرغن متنقل يدور فى ساحة الدار ، مرسلا أنغاما متقطعة من أحد الالحان ، فى صوت عال يثير الاعصاب . وصاح طفل ذو صوت عميق ، وقد استخفه الطرب .. ونبح كلب ! .. أما لينكا فقد راح يصغى الى الموسيقى وهو يغمغم باللحن بصوت خفيض مصاحبا الارغن فى توقيعه !

***

• **وكان** الغبار الذى ملأ جو الغرفة قد هدأ واستقر ، فازداد الضوء فى المكان . وكانت ثمة ساعة حائط رخيصة مثبتة الى الجدار فوق سرير الام ، وقد أخذ بندولها الصغير يزحف فى تراخ .. وعلى رف المدفأة ، كانت الاطباق تتناثر وهى محتفظه بقذارتها .. وكانت ثمة طبقة من التراب تكسو كل شىء ، وتتكاثف فى الاركان ــ بوجه خاص ــ حيث كانت العناكب تتعلق بأستار قذرة من نسجها . **كان مسكن لينكا أشبه الاشياء بحفرة لجمع الفضلات ــ أى «مقلب الزبالة» ــ وكان الفقر المدقع يطل ببشاعته من كل شبر فيها ، فيخنق المشاعر فى النفس !**

وبدأ ابريق الشاى يرسل ازيزا كئيبا ، وقد أخذ بخار الماء يبحث لنفسه عن منفث .. وارتفع صوت أجش فى ساحة الدار صائحا : « اخرج ! » ، فاذا الارغن يسكت فجأة ! .. واذ ذاك تنهد لينكا وقال : « أعدنى حيث كنت .. لقد طردوهم ! »

وأجلسته فى الصندوق ، فتجهم وجهه ، وراح يدلك صدره بيديه ، ويحاول أن يكتم سعالا انتابه . ثم قال : « ان صدرى يؤلمنى .. ليس من الخير فى شىء أن أستنشق الهواء الطلق طويلا .. ألا قل لى : « هل رأيت العفاريت يوما ؟ » .. فأجبت مأخوذا : « كلا »

ــ ولا أنا ! .. اننى أظل أرقب المدفأة فى الليل عسى أن يظهر لى واحد منها ، ولكنها لاتظهر .. أليست هناك أشباح

في المقابر ؟

ـ وما حاجتك الى ان ترى أشباحا ؟

ـ انها مخلوقات مثيرة للعجب .. ثم ، الا يحتمل أن أصادف عفريتا طيبا بينها ؟ ! .. لقد رأت ((كاتكا)) ـ ابنة السقا ـ عفريتا صغيرا فى مخزن ذات يوم ، ولكنها ذعرت منه . أما أنا فلست أرهب الاشياء المخيفة !

ولف ساقيه فى الاسمال البالية ، ثم قال مسترسلا وراء أفكاره : ((بل اننى أحب الاحلام المخيفة فى الواقع . ولقد رأيت فى أحلامى مرة ، شجرة تنمو فى وضع عكسى ، فكانت الاوراق على الارض ، والجذور متجهة نحو السماء . وغرقت فى العرق ، واستيقظت لفرط الرعب ! .. ورأيت أمى مرة ترقد عارية ، وقد جثم على صدرها كلب ينهش أحشاءها .. وكان كلما قضم قطعة بصقها ، وعاد ليقضم سواها ثم يبصقها ! .. وفى مرة أخرى ، رأيت فى الحلم أن بيتنا قد انتفض وتحرك من مكانه ، وشرع يسير فى الشارع منزلقا بينما كانت مصاريع الابواب والنوافذ تصطفق .. وكان قط زوجة المفتش يجرى وراءه !)) . وأحنى الطفل كتفيه الصغيرتين ، وكأنما سرت فى جسده قشعريرة ، ثم تناول قطعة من الحلوى ، ففض عنها الغلاف الورقى الملون ، وسواه فى عناية ، ثم وضعه على حافة النافذة ، وقال :

ـ لسوف أصنع من هذه الغلافات شيئا بديعا .. أو لاعطها لكاتكا ، فانها ـ هى الاخرى ـ تحب الاشياء الطريفة .. كقطع الزجاج ، وبقايا الخزف المهشم ، والورق ، وما الى ذلك . والآن ، قل لى .. هل يكبر الصرصار اذا عنيت بتغذيته ويصبح فى حجم الفرس ؟ !

وكان من الواضح انه يؤمن بهذه الفكرة ، فرأيت أن أجاريه . ومن ثم قلت : ((أجل .. اذا أنت أحسنت تغذيته !)) . فصاح فى طرب وابتهاج : ((بالطبع ! .. ولكن أمى الحمقاء تضحك

منى ! » . وأردف ناطقا بكلمة بذيئة يصف بها المرأة، ثم استطرد قائلا : « انها غبية !.. والقط ، هل اذا غذيته ليصبح فى حجم الفرس ، استغرق ذلك وقتا طويلا ؟ » .. فقلت : « لا .. من المحتمل أن لايستغرق ذلك زمنا يذكر ! »

– من المؤلم حقا أننى لا أمتلك غذاء كافيا .. لعمرى ، انه لعمل عظيم !

وأخذ يرتجف لفرط الانفعال ، وهو يضغط صدره بيده . ثم قال : « لو تسنى ذلك ، لوجدت ذبابات، فى حجم الكلب ! .. ولامكن استخدام الصراصير فى جر قوالب الطوب . لابد أن تكون قوية اذا ما صارت فى حجم الخيل .. هه ؟ »

– ولكن لا تنس أن لها شوارب !

– لاضير فى ذلك .. ان الشوارب تصلح أعنة لقيادة الصراصير اذ ذاك ! .. وكذلك من الممكن أن تصبح عندنا عناكب هائلة ، فى حجم .. ماذا ؟ .. عنكبوت فى حجم الدجاجة مثلا .. ان شكله فى هذا الحجم يكون مخيفا ! .. آه ، لو كانت لى ساقان ! .. اننى اذ ذاك كنت أجد وأعمل لكى أغذى كل « حيواناتى » ، ثم أتكسب من عرضها ، وابتاع دارا لامى فى الحقول الخضراء .. هل ذهبت مرة الى الحقول الخضراء ؟

– بالتأكيد

– هل لك أن تحدثنى عنها ؟

وشرعت أحدثه عن الحقول والمروج ، فراح يصغى فى لهفة دون أن يقاطعنى ، وقد أسبل أهدافه على عينيه ، وأخذ فمه ينفرج فى بطء ، وكأنما أخذته سنة من نعاس ! .. وتحولت أخفض من صوتى – حين رأيت ذلك – ولكن أمه مالبثت أن أقبلت ، فأمسكت بالابريق ، الذى كان ماؤه يغلى ، فى احدى يديها .. وكانت تحمل فى اليد الاخرى كيسا من الورق ، بينما دست بين ياقة ثوبها ونهديها زجاجة من الفودكا .. وهتفت : « ها أنا ذى ! »

وتنهد الصبى ، وفتح عينيه قائلا : « اننى أحب الاماكن التى تصفها .. أماكن خالية ، الا من الاعشاب والزهور !.. لماذا لاتستأجرين عربة وتأخذيننى الى الحقول الخضراء ؟ .. اننى بحيانى هذه لن ألبث أن أذوى وأموت ، دون أن أراها .. لعمرى ياأماه ، انك لمومس ! » .. وكانت لهجته قد ازدادت تثاقلا بالحزن والاسى . فزجرته أمه فى حنان قائلة : « لاتسب .. يجب أن لاتسب ، فانك لاتزال صغيرا ! »

فصاح فيها : « لاتسب ! .. هذا كل ما تملكينه لى .. انه سهل عليك .. انك تذهبين أينما تشائين ، كالكلب الهائم » .. ثم التفت نحوى قائلا : « انك لمحظوظ حقا .. اسمع .. هل الحقول الخضراء من صنع الله ؟ » .. فقلت : « بلا شك ! »

— ولماذا ؟ .. لاى غرض صنعها ؟

— حتى يستطيع الناس أن يخرجوا اليها ليروحوا عن انفسهم !

فابتسم الصبى وهو مستغرق فى التفكير ، ثم تنهد وقال : « الحقول الخضراء ! .. اننى لو استطعت أن أقيم هناك، لسرحت فيها معرضى .. لاطلقت « حيواناتى » فيها ، وقلت لها : هيا يا اخوتى ، اهرعوا حيث شئتم ! .. اسمع ، أين يصنعون الله .. أفى ملاجىء الفقراء ؟ » .. وضجت أمه بضحك عال ، واستلقت على الفراش وهى تصرخ وتركل الهواء بساقيها صائحة : « رحماك ياالله !.. ماذا.. ماهذا ياعزيزى؟ .. انما يصنعه رسامو الايقونات ! . . اعذره فان أفقه محدود ! . . وتطلع اليها مبتسما ، ثم رماها بلفظ من الفاظه البذيئة ، فى مداعبة حنون ، وقال : « انها تتصرف كالطفل .. فهى تحب الضحك » .. وعاد يكرر السبة البذيئة ، فقلت له : « دعها تضحك .. هل يضيرك هذا ؟ » .. فأقرنى قائلا : « لا ، لايضيرنى .. انما أغضب منها عندما تهمل تنظيف النافذة .. اننى أرجوها مرارا وتكرارا أن تنظف النافذة ،

لانني لا أستطيع ان أرى نور الله .. ولكنها تمعن فى النسيان!»

واخذت المراة تنظف أقداح الشاى ، وهى تضحك من آن لآخر ، وتغمزنى بعينيها ذات الزرقة الخفيفة ، وتقول : « الا ترى أن لى ابنا جميلا حبيبا ؟ .. لولاه ، لكنت قداغرقت نفسى منذ زمن طويل .. اقسم لك على صدق هذا .. لولاه لشنقت نفسى ! »

وكانت تبتسم وهى تقول هذا . وبغتة ، سالنى لينكا : « افأنت أحمق ؟ »

ـ لست أدرى . لماذا ؟

ـ لان أمى تقول انك أحمق !

وصاحت المراة فى غير حرج أو ارتباك : « ولكنك لم تذكر السبب فى اننى قلت هذا .. لقد تجشم عناء احضار امراة ثملة من الطريق ، فأسلمها الى فراشها ، ثم تركها وانصرف .. هذا كل مافى الامر ، وما قصدت أية اساءة .. ومع ذلك كيف تسول لك نفسك أن تشى بى ، أيها الوضيع ! » .. كانت تتكلم وكأنها هى الاخرى صغيرة ، فقد كانت لهجتها وأسلوبها كلهجة وأسلوب فتاة فى العقد الثانى من عمرها . وكان فى عينيهــا صفاء الفتيات أيضا ، مما جعل وجهها ـ بأنفه الافطس، وشفته المشقوقة ، وأسنانه المكشوفة ـ يزداد قبحا .. كان وجهها ينبسط دائما فى ابتسامة قبيحة ، ولكنها كانت ابتسامة مرحة طروب !

* * *

وقالت أخيرا فى جد : « لنتناول الشاى » . وحملت الابريق الى الصندوق المجاور للينكا ، فمس البخار المنبعث من تحت غطاء الابريق كتف الصبى ، واذ ذاك وضــع يده الصغيرة فوق البخار ، حتى اذا ابتل كفه مسح به على شعره ، وهو يسبل أجفانه فى هدوء حــالم . وما لبث أن قال : « ستصنع لى أمى ـ عندما أكبر ـ عربة أزحف بها فى الطرقات

لاجمع الصدقات . فاذا ما جاد الناس على بمايكفى ،فسأزحف مغادرا المدينة الى الحقول الخضراء ! ») . واذ ذاك تنهدت أمه ، وهتفت : « هو ـ هو ! » . ثم ضحكت فى لطف وقالت : «ان الريف يبدو له كالجنة .. ولكن ، ماذا تجد فى الريف ؟ .. معسكرات ، وجنودا قساة ، وفلاحين سكارى ! »

واذ ذاك قاطعها لينكا وهو يصيح عابسا : « انك تكذبين .. سليه عن الريف ، فقد رآه » .. وأشار نحوى .. فقالت أمه : « وأنا ؟ .. أفلم أره أنا الاخرى ؟ »

ـ أجل .. رأيته وأنت ثملة !

وشرعا يتجادلان كطفلين ، فى حرارة ، ودون منطق . وفى تلك الاثناء ، كان المساء قد غشى ساحة الدار ، وانتشرت فى السماء سحابة راكدة تسرى خلالها آثار حمرة الشفق . وازداد الظلام فى الحجرة المنزوية تحت سطح الارض .

واحتسى الصبى قدح الشاى ، ثم أخذ العرق يتفصد منه . ونظر نحوى ، ثم نظر الى أمه وقال : « لقد أكلت ، ولقد شربت .. ولقد آن لى الآن أن أنام ! » ، فقالت أمه محبذة : « أجل .. نم ! » .. فأشار نحوى قائلا : « وهو .. هل سينصرف ؟ » .. ثم التفت الى متسائلا : «هل ستنصرف؟» . فأجابته المرأة وهى تلكزنى بركبتيها : « لا تشغل بالك .. لن أدعه ينصرف ! »

فقال لينكا فى رجاء : « لاتذهب ! » . ثم أغمض عينيه ، وتمطى باسطا جسمه ، وغاص فى الصندوق . ولكنه مالبث أن رفع رأسه فجأة وقال لامه معاتبا : « لم لاتتزوجينه ؟ .. لم لا تتزوجين كبقية النساء ؟ .. انك بهذا تصبحين مثل غيرك من الناس .. انك لاتلقين منهم سوى الضرب ، أما هذا .. فشاب طيب ! » . وقالت الام فى هدوء ، وهى تنحنى على قدح الشاى : « صه ! .. استسلم للنعاس ! » .. ولكن الصبى عاد يقول فى صوت ناعس : « انه غنى ! »

وظلت المرأة صامتة فترة من الزمن ، وهى تحتسى الشاى بشفتيها المشوهتين . ولكنها لم تلبث أن التفتت نحوى قائلة ، وكأننا على تعارف منذ زمن بعيد : « هكذا نعيش فى هدوء ـ أنا وهو ـ ولا شريك لنا . ان بقية السكان فى ساحة الدار يهينوننى وينعتوننى بأننى امرأة ساقطة . والحق اننى لا أخجل من ذلك ! .. ثم انك ترى مدى حاجتى .. ومدى حظى من التشوه ، فليس هناك من يرغب فى غير جسدى . آه .. لقد نام ابنى الحبيب .. ألا تراه طفلا طيبا ؟ »

ـ حقا .. ما أطيبه !

ـ اننى لا أملك أن أفيه حقه من الرعاية .. ويا للعقل الذى أوتيه !

ـ أجل .. انه صبى موفور الذكاء !

ـ هذا صحيح .. لقد كان أبوه من السادة ، وكان كبير السن .. كان من أولئك الذين يسمونهم .. لست أدرى .. أولئك الذين ينشئون مكاتب لانفسهم .. يا الهى ! .. لست أذكر الاسم .. ان عملهم ينحصر فى الاوراق ..

ـ لعلك تعنين أنه كان مسجلا للعقود ؟

ـ أجل ، هذا هو .. وكان شيخا لطيفا ، رحيما .. أحبنى .. وكنت خادما فى الدار !

***

• وغطت ساقى ابنها العاريتين ببعض الاسمال ، وسوت الوسادة تحت رأسه ، ثم استأنفت الحديث فى لهجة مسترخية : « ولكنه لم يلبث أن مات فجأة .. كان ذلك أثناء الليل ، وكنت قد فارقته لتوى ، فاذا به يهوى الى الارض .. وكانت تلك خاتمة حياته ! .. ولكن ، أتبيع الجمة حقا ؟ » .. قلت : « نعم ! »

ـ وهل المتجر ملك لك ؟

ـ لا ، وانما أعمل أجيرا !

فازدادت التصاقا بى ، وهى تقـــول : « لا تشمخ بأنفك وتصدف عنى أيها الشاب . انك لن تصاب بمرض منى ، فقد شفيت .. سل أى مخلوق فى الشارع ، فكلهم يعرفون ! »

ـ ولكنى لا أترفع أو أصدف عنك !

وألقت راحتها الصغيرة على ركبتى ، فرأيت آثار العمل والكد على بشرتها ، وفى أظفارها المحطمة . واستطردت تقول فى ود وحرارة : « اننى شاكرة لك ماقدمت للينكا . لقد كان اليوم عيدا بالنسبة له » .. فقلت : « لقد آن لى أن أنصرف » .. ولكنها تساءلت مذهولة : « والى أين ؟ »

ـ لدى مهام أريد أن أنجزها

ـ بل امكث !

ـ لا أستطيع

ونظرت نحو ابنها ، ثم نحو النافذة ، وتأملت السماء ، وما لبثت أن قالت فى صوت خافت : « ألا امكث .. سأغطى وجهى المشوه بمنديل . انما أريد أن أبدى لك شكرى لمـــا أوليت ابنى .. سأغطى وجهى . هه ؟ »

وكانت تتكلم فى اغراء ، وفى شعور حار ، وود صادق .. وكانت عيناها ـ عينا الطفل فى وجه مشوه ـ تتألقان بابتسامة لا أثر للتسول أو الطمع فيها .. ابتسامة شخص غنى ، يريد أن يعرب عن عرفانه للجميل ، فيقدم من ثروته جزاء عينيا لقاء الصنيع !

وصاح الصبى فجأة وهو يرفع جسده عن مرقده ، مجفلا: « أماه .. انهم يزحفون ياأماه !.. تعالى ! »

فهمست وهى تنحنى عليه فى حنو : « انه يحلم »

وتسللت أنا الى ساحة الدار ، فوقفت فيهـــا مستغرقا فى التفكير . وتناهى الى أذنى ـ من نافذة الغرفة ـ صوت ينبعث من الانف ، مرددا احدى الاغانى فى صوت طروب .. وكانت

الأم تغنى لابنها اغنية غريبة كى ينام :
لسوف تفد العواطف المشبوبة فتجلب ..
كل لون من ألوان الشقاء ..
والمتاعب التى تشتت الفكر ..
وتمزق القلب اربا !
فيا للمتاعب والحزن والهم !
وأين ترانا نختفى منها .. آه ، أين ؟
واسرعت مبتعدا عن ساحة الدار ، وأنا أضغط اسنانى حتى لا انفجر باكيا !



جوع الطاهية!



FOR WANT OF SOMETHING BETTER TO DO

• أخذ قطار الركاب ينهب الارض نهبا وكأنه حية رقطاء هائلة الحجم ، تنفث سحبا كثيفة من الدخان الاشهب. وسرعان ما ابتلعته السهول الشاسعة ، وغاص فى بحر يموج بسيقان الحنطة الصفراء . ثم أخذ الدخان يتحلل ويتلاشى فى الهواء الساخن ، كما تضاءل هديره الصاخب المجلجل ، بعد أن ظل لحظات يعكر سكون السهل الفسيح المنبسط الذى قامت فى وسطه محطة صغيرة للسكك الحديدية ، كانت فى عزلتها محفوفة بالكآبة والاسى !

وعاد السكون الثقيل الوطأة يجثم على المحطة ، عندما تبدد ضجيج القطار .. ذلك الضجيج الذى كان رغم ضوضائه المزعجة ، مفعما بالحياة والحركة !

وكانت السهول فى صفرة الذهب ، والسماء صافية الزرقة ، وقد انبسطت كل منهما الى ما وراء مرامى البصر . وفى وسط هذا الفراغ الشاسع قامت بنايات المحطة القاتمة اللون ، كأنها خطوط رسمتها عفوا فرشاة رسام عقيم الخيال ، فأتلفت لوحة مؤثرة تبعث فى النفس الاسى ..

وكانت القطارات تفد من السهل مرتين فى كل يوم — فى الثانية عشرة ظهرا وفى الرابعة — فتقف لدى المحطة دقيقتين كاملتين . **وكانت هذه الدقائق الاربع ، تمثل التحول الرئيسى — بل الاوحد — فى حياة مستخدمى المحطة ، فهى وحدها التى تجلب لهم أية مشاعر وأفكار جديدة .. ذلك لان كل قطار كان يضم كافة أنواع الناس فى جميع أصناف الثياب . ولم يكونوا يظهرون فى نوافذ العربات لاكثر من برهة وجيزة ، وكأنهم لوحة متحركة لوجوه أثقلها التعب ، والملل ، وعدم الاكتراث .. ثم ينبعث رنين ناقوس ، وصفير ، ولا تلبث الصورة أن تنزلق فى السهل ، مبتعدة نحو المدينة ، حيث تموج الحياة وتصطخب !**

وكان موظفو المحطة يتطلعون الى تلك الوجوه فى فضول ، فاذا ما غاب القطار ، أخذ كل منهم يحدث الآخر عماخلفهالمنظر فى نفسه من آثار .. والسهل الساكن يمتد حولهم من جميع النواحى ، والسماء تعلو رؤوسهم بقبتها الزرقاء التى لا قرار لها .. وكان الحسد يدب فى قلوبهم نحو أولئك الناس الذين كانوا ينطلقون فى كل يوم نحو غايات مجهولة ، مخلفين هؤلاء الموظفين كالسجناء فى هذه الفلاة الممتدة وراء هامش الحياة ، أن صح هذا التعبير !.. ومن ثم كانوا يقفون على رصيفالمحطة يرقبون الشريط الاسود الذى يمثل القطار الراحل وهويختفى فى أمواج الحنطة الذهبية .. وكانوا يخلدون الى الصمت وهم مستغرقون فى المشاعر التى تثيرها فى أنفسهم هـــذه اللمحة الخاطفة للحياة !

وكان هؤلاء الواقفون يشملون جميع الموظفين تقريبا : ناظر المحطة ـ وهو رجل ربعة القوام ، بشوش الوجه ، أصفر الشعر ، غير مقصوص السوالف كأبناء القوقاز ـ ومســاعده الشاب ، برأسه ذى الشعر الاحمر ، وسترته المصنوعة من جلد الماعز .. و « لوكا » خفير المحطة ، ذو الجسم الضئيل ، والحركةالخفيفة ، والملامح الماكرة .. وعامل للاشارة (محولجى) ـ يدعى « جوموزوف » ـ هادىء الطباع ، ممتلىء الجسم ،كث اللحية !.. وعلى مقعد بجوار باب المحطة ، كانت تجلس زوجة الناظر ، وهى امرأة قصيرة ، بدينة ، تعـــانى كثيرا من وطأة القيظ .. بينما ينام على ركبتيها طفل له وجه فى استدارةوجه أمه واحمراره !

* * *

• ولا يلبث القطار أن يهبط منطقة منحدرة من السهل ثم يختفى وكأنما ابتلعته الارض .. واذ ذاك ، يلتفت الناظر الى زوجته ، فيقول : « هل الشاى معد ياسونيا ؟ » . فتقول فى

صوت رقيق ، واهن : « طبعا ! »

ـ اذن ، فرتب كل شيء يالوكا !.. واكنس الرصيف وما بين القضبان .. انظر الى كل هذه الفضلات التى خلفوها !

ـ اننى أراها ياماتفى ايجوروفيتش

ـ حسنا ، هل نتناول الشاى يانيكولاى بتروفيتش ؟

فيجيب المساعد قائلا : « كالمعتاد ! »

كان هذا هو الحديث الذى يدور بعد قطار الساعةالرابعة. أما اذا كان قطار الظهر هو الذى مر ، فان ماتفى ايجوروفيتش كان يقول لزوجته : « هل الفداء معد ياسونيا ؟ » . ثم يلقى بتعليماته الى لوكا ، ويقول لمساعده الذى كان يقيم معه ومع زوجته : « حسنا ، هل نتناول الفداء ؟ » . فيجيب مساعده فى تحبيذ : « أجل ، كالمعتاد ! » . واذ ذاك ، يتركون الرصيف، ويذهبون الى حجرة تضم كثيرا جدا من النباتات ، وقليلا جدا من الاثاث .. حجرة تعبق برائحة الطهو وبخار الغسيـــل .

وحول المائدة ـ التى تمد فيها ـ يدور الحديث دائما حول ما لاحظوه فى القطار . فيقول ماتفى ايجوروفيتش لمساعده : « هل لاحظت تلك السمراء التى كانت ترتدى ثوبا أصفر ، فى مركبة الدرجة الثانية يانيكولاى بتروفيتش ؟ .. انها تحفة مغرية ، ان أردت رأيى ! »

فيقول المساعد : « لا بأس بها . ولكن ثوبهـــا لم يكن ملائما ! »

وكانت ملاحظات المساعد مقتضبة على الدوام،وتصدر فى لهجة التأكيد . فقد كان يفخر بأنه متعلم وذو تجربة . اذ أتم الدراسة فى معهد التربية البدنية . وكان يحتفظ بمفكرة ذات غلاف جلدى أسود ، يدون فيها ما كان يصـــادفه من أقوال المبرزين من الرجال ، فى الكتب والصحف التى كانت تقع بين يديه . وكان الناظر يأخذ برأيه فى جميع الامور الخارجة عن نطاق العمل ، ويصغى باهتمام الى كل ما كان يقوله ، ويعجب

ـ بوجه خاص ـ بجواهر الحكمة التى كانت توجد فى مفكرة نيكولاى بتروفيتش ، فكان يطيل التفكير فيها باستيعاب وسذاجة !

وتثير ملاحظة المساعد عن ذوق السمراء فى ملبسها ، بعض القلق فى نفس الناظر ، فيستريب فى حكمه ، ويتساءل : « ولماذا ؟ .. الا ينبغى للسمراوات أن يرتدين الثياب الصفراء ؟ » .

فيقول نيكولاى ، وهو ينقل بعض المربى من الطبق الزجاجى الكبير الى طبقه ، فى عناية متكلفة : « لم أكن أفكر فى اللون ، وانما كنت أرمى الى طراز الثوب » . واذ ذاك ، يوافق الناظر على قوله ، مردفا : « الطراز ؟ .. هذه مسألة أخرى ! »

وتنضم زوجة الناظر الى الحديث ، لان الموضوع قريب الى قلبها ، مستساغ لذهنها .. ولما لم تكن عقول هؤلاء القوم تتعرض لكثير من الصقل والتثقيف ، فان حديثهم كان يدور بفتور ، ولا يكاد يحرك مشاعرهم !

وخلال النوافذ ، كان السهل يتراءى وقد سيطرت عليه السكينة ، والسماء وقد تجلت رائعة فى صفائها .. ونادرا ما كانت تنقضى ساعة دون أن يمر بالمحطة قطار من قطارات البضاعة . وكان عمال هذه القطارات جميعا معارف قدماء لموظفى المحطة . وقد اعتاد حراس القطارات أن يركنوا الى الخمول ، وقد ذهبت بنشاطهم تلك الرحلات التى لا نهاية لها ، فى تلك السهول .. على أن الخمول لم يكن يحول بينهم وبين التندر ـ فى بعض الاحيان ـ بتكرار رواية ما صادفوا من حوادث فى البقاع التى كانوا يمرون بها .. كمقتل شخص ما ، فى مكان معين فى طريقهم .. أو كانوا يتحدثون عن العمل ، فهذا زميل قد جوزى بخصم جزء من مرتبه ، وذاك زميل نقل من منصبه . وما كانوا يطيلون النقاش فى هذه الموضوعات ، بل كانوا يخوضونها سريعا ، كأنهم اذا ما صادف صنفا شهيا نادرا من الطعام !

ولا تلبث الشمس أن تتهادى نحو حافة السهول ، ولونها يزداد تحولا كلما اقتربت من الارض حتى يصبح قرمزيا ، يضفى على كل شيء وهجا أحمر قانيا .. ويثير هذا فى النفوس حنينا مبهما ، هو — فى الواقع — شوق الى الحياة الصاخبة فى البقاع القائمة وراء هذه الفيـــافى .. وتمس الشمس — فى النهاية — حافة الافق ، ثم تهوى متثـــاقلة فى هذا الافق أو خلفه !.. وتظل نغمات الغروب تؤلف لحنا عذبا فى السماء ، لفترة طويلة بعد ذلك . ولكنها تخفت شيئا فشيئا ، اذ يرين على الكون غسق دافىء ، صامت .. وتبزغ النجوم ، متذبذبة، مرتعشة ، وكأنها فى جزع من وحشة المنظر !

ويبدو السهل وكأنه ينكمش فى طيات الفسق ، بينماتطبق ظلال الليل رويدا — وفى صمت — على المحطة من كل جانب . ثم يأتى الليل ذاته ، مظلما كئيبا ، فتضاء المحطة بأنوار أكثرها ارتفاعا وأشدها تألقا ، هو ضوء الاشارة (السيمافور) الاخضر الذى يشع وسط الظلام والسكون !.. ومن وقت الى آخر ، يرن ناقوس منذرا باقتراب قطار ، فيسرى الرنين فى المراعى ، ويتلاشى فى جوفها . ولا يلبث أن ينبعث من الفضـــاء المعتم ضوء أحمر ، يقبل مسرعا . ويقطع سكون السهل هدير قطار يشق طريقه نحو المحطة المنعزلة الملتفة فى الظلام !

* * *

• وكانت حياة الطبقة الدنيا من هذا المجتمع الصغير — مجتمع المحطة — تختلف عن حياة «أرستقراطييه» !.. كان «لوكا» خفير المحطة فى نضال دائم مع رغبته فى الفرار من هذا المكان ، الى زوجته وشقيقه اللذين كانا يقيمان فى قرية تبعد عن المحطة بحوالى سبعة كيلو مترات . وكان غالبا ما يسأل «جوموزوف» عامل الاشارة الرضين ، القليل الكلام ، أن يقوم بالحراسة بدلا منه ، كى يذهب فيرى « أهل بيته » ! .. وكانت عبارة « أهل

البيت » هذه ، تجعل جوموزوف يتنهد دائما ، ثم يقول للوكا : « حسنا . اذهب ، فان « أهل البيت » بحاجة الى من يرعاهم ، ولا شك ! »

غير أن أفاناسى ياجودكا « المحولجى » الآخر - وهو جندى سابق ، ذو وجه مستدير تطغى عليه لحية شيباء - كان على النقيض من زميله ، فما كان يصدق كلام « لوكا » ، وانما كان يقول فى سخرية : « أهل البيت ؟! .. لو قلت « زوجة » لكان هذا أقرب الى التصديق . ولـكن ، أية زوجة هى ؟ .. أهى أرملة ؟ .. أو تراها زوجة جندى ؟ » . فكان لوكا يجيبه فى ازدراء : « يالك من بريجادير طائر ! »

وكان يطلق على ياجودكا « البريجادير الطائر » لان الجندى السابق كان شغوفا بالطيور ، وكان منزله الصغير مليئا - فى الداخل والخارج - بأقفاص الطيور ، التى كانت أصواتها وشقشقتها تسمع من جوف البيت وحوله ، طيلة اليوم . فكان السمان الذى يأسره الجندى ، لا ينفك عن ارسال شقشقة رتيبة مسترسلة طوال اليوم ، أما الزرازر فكانت تدمدم بما يشبه الكلام الطويل العبارات .. بينما كانت العصافير الصغيرة - من جميع الالوان - تصفر وتشقشق وتغرد بلا انقطاع ، فتبعث فى حياة الجندى بهجة . وكان يخصها بكل أوقات فراغه .. كان يأنس لها ويؤثرها بعنايته ، فى حين انه لم يكن يحتفل - أتفه احتفال - برفاقه فى المحطة . بل كان يدعو لوكا ثعبانا ، وجوموزوف ثعلبا ، وكان يرميهما - فى وجهيهما - بأنهما يجريان وراء النساء ، وانهما لهذا يستحقان - فى رأيه - الضرب !

ولم يكن لوكا ليكترث لقوله ، ولكنه كان لا يلبث - اذا ما تمادى الجندى - أن يشرع فى الحملة عليه بعنف وغل ، قائلا : **« يالك من فأر قذر ! .. ما أشبهك بلفتة ممضوغة ! .. أى نفع يرتجى منك يا قارع الطبل لعنزة الكولونيل ؟ ان كل ما فعلته فى حياتك**

هو انك كنت تحشو المدافع بالضفادع ، وكنت تحرس قرنبيط الفرقة !.. من أنت حتى تطلق الالقاب على غيرك ؟.. الا عد الى سمانك وزرازيرك أيها البريجادير الطائر ! » ..

وكان ياجودكا ينصت الى هذه الشتائم فى هدوء ، ثم يذهب الى ناظر المحطة فيشكو اليه ، واذ ذاك ، كان الناظر يصيح فيه بأن لديه من الامور ماهو أهم من ذلك، ثم يطرده . فكان ياجودكا ينطلق باحثا عن لوكا ، حتى اذا وجده ، انهال عليه بلاذع القول وهو هادىء ، متمالك الاعصاب ، مستخدما أقذع ما فى اللغة من بذاءات ، حتى يضطر لوكا الى الفرار وهو يسد أذنيه اشفاقا مما يسمع !

أما اذا سخر الجندى من جوموزوف ، متهما اياه بالطيش والتفاهة ، فان الاخير كان يقنع بالتنهد ، ويبذل محاولات مضطربة للدفاع عن نفسه ، قائلا : « وما الذى يمكن عمله ؟.. يبدو أن لا حيلة فى الامر .. ربما كنت ذا عيوب حقا ، ولكن المثل يقول : لا تحكموا على الغير ، حتى لا تتعرضوا لان يحكم عليكم الغير ! .. ورد الجندى يوما على ذلك قائلا ، وهو يطلق ضحكة قصيرة : « انك لا تفتأ تكرر هذا العلاج لكل الشرور .. « لا تحكموا » .. « لا تحكموا » .. وكيف يكون ذلك ؟.. اذا لم يحكم الناس على زملائهم ، فلن يجدوا موضوعا يتحدثون فيه ! »

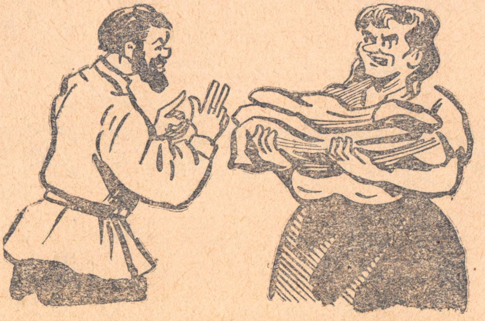
* * *

• **وكانت** فى المحطة امرأة أخرى غير زوجة الناظر . تلك هى : « أرينا » الطاهية .. وكانت تناهز الاربعين من العمر ، بشعة الى أقصى درجات الدمامة ، بدينة فى غير انتظام ، ذات نهدين طويلين متهدلين .. وكانت دائما قذرة ، سيئة الملبس ، قميئة المظهر ، تترنح اذا سارت ، ويشع الفزع باستمرار من عينيها الشبيهتين بشقين يلمعان فى وجه امتلأ بالبثور .. وكان

مظهر الجبن وذلة العبودية يتجليان فى قسماتها غير المتناسقة ، فكانت شفتاها الغليظتان مزمومتين على الدوام ، وكأنها كانت تهم بأن تطلب العفو من كل امرىء .. بل كأنها كانت تخشى أن تنفجر باكية وتود أن تخر راكعة أمام جميع الناس !.

ولقد أقام جوموزوف ثمانية أشـهر فى المحطة دون أن يعيرها أى انتباه يذكر ، اللهم الا أن يقول لها « أهلا ! » اذا مر بها ، فترد التحية . وقد يتبادلان بضع كلمات عابرة ، ثم يتابع كل منهما سيره فى طريقه . على أن جوموزوف مالبث أن ذهب يوما الى مطبخ ناظر المحطة ، فسأل أرينا أن تحيك له بعض الاقمصة .

وقبلت الطاهية ، فلما أتمت صنع الاقمصة ، حملتها اليه بنفسها ، فقال لها : « شكرا .. انها ثلاثة أقمصة ، يسـتحق كل منها عشرة كوبيكات، فكأن لك عندى ثلاثين كوبيكا .. اليس



كذلك ؟ » .. فقالت أرينا : « أظنها كذلك » .. فاستغرق جوموزوف فى التفكير هنيهة ، ثم قال للمرأة التى كان بصرها عالقا بلحيته طيلة الوقت : « من أية قرية أنت ؟ » .. فأجابت : « من ريازانسكايا »

ـ انها بعيدة عن هنا كل البعد ، فكيف وفدت على هذا المكان ؟

– لست أدرى ، فأنا وحيدة ، وليس لى فى الدنيا أحـد !

فتنهد جوموزوف قائلا : « هذا وحده سبب كاف لان يذهب المرء الى أبعد من هذا المكان »

وأخلد الاثنان الى الصمت ثانية ، ثم عاد جوموزوف يقول بعد قليل : « اننى مثلك .. فأنا من (نيجنى نوفجورود) .. من قرية (سيرجاش اويزرد) .. وأنا وحيد أيضا ، ليس لى من أهل على الاطلاق . على اننى كنت يوما ذا بيت وزوجـة وطفلين،ثم توفيت زوجتى ضحيةالكوليرا ،ولحق بها الطفلان بهذا المرض أو ذاك . أما أنا ، فقد أضنيت نفسى حزنا . وحاولت فيما بعد أن أبدأ الحياة من جديد ، ولكنى لم أفز بطائل ، اذ كانت أعمالى قد كسدت ولم يعد من سبيل الى انعاشها . ومن ثم رحلت .. الى أقصى ما استطعت . وها أنذا أعيش فيمـا أنا فيه منذ عامين ! »

فقالت أرينا فى لطف : « من أسوأ الامور أن لا تجد مكانا تستطيع أن تقول انه دارك ! »

– انه أسوأ الامور فعلا .. أ أنت أرملة ؟

– لا ، بل عذراء

ولم يحفل بأن يخفى تكذيبه لقولها ، بل صاح : « دعك من هذا القول ! » . ولكن أرينا قالت باصرار : « انما أقول صدقا »

– اذن ، فلماذا لم تتزوجى حتى الآن ؟

– ومن الذى يرضى بى ، ولست أملك شيئا ؟ .. انالرجل يطمع دائما فى شيء .. ثم ان وجهى جد دميم !

فتفرس جوموزوف فى وجهها بفضول ، وهو يتخلل لحيته بأصابعه ، وقال : « حقا ! » . ثم سألها عن أجرها ، فقالت : « روبلان ونصف روبل »

– آه ، صحيح .. اننى مدين لك بثلاثين كوبيكا ، أليس كذلك ؟ .. اسمعى ، تعالى لتتقاضيها الليلة .. حوالى الساعة

العاشرة . هل تأتين ؟ سأدفع لك المبلغ ، وستتناول معا كوبا من الشاى ، لدفع السأم عن نفسينا ! .. اننا وحيدان فى الحياة .. فتعالى !

فقالت فى بساطة : « لسوف أحضر » .. وانصرفت

* * *

. وذهبت اليه فى الساعة العاشرة تماما ، فلم تغادره الا فى الفجر !

ولم يدعها الى العودة مرة أخرى ، ولا هو أعطاها الكوبيكات الثلاثين . ولكنها عادت اليه من تلقاء نفسها .. عادت طائعة، منصاعة ، فوقفت أمامه صامتة ، ذليلة .. وراح يحملق فيها من مرقده على الحشية ، ثم قال بعد برهة وهو يوسع لها مكانا : « اجلسى ! » . حتى اذا جلست ، قال لها : « اسمعى .. احفظى هذا فى طى الكتمان ، ولا تدعى أى مخلوق يحدس شيئا عنه . اتسمعين ؟ .. لسوف أتعرض للمتاعب اذا أفشيت الامر ، وأنا لم أعد شابا .. ولا أنت كذلك ! .. أفهمت ؟ » .. فأطرقت برأسها علامة التأكيد !

وعندما ودعها ، أسلمها بعض ثيابه لترتقها له . وعاد يوصيها قائلا : « حذار من أن يحدس أحد شيئا ! »

وهكذا اخذا يعيشان معا ، وهما يخفيان علاقتهما عن الآخرين فى حرص . فكانت أرينا تتسلل الى غرفته فى الليل ، وهى تكاد تحبو - امعانا فى التخفى - فيستقبلها بترفع وكأنه من كبار الملاك أو السادة .. حتى انه لم يكن يتورع عن أن يقول لها فى بعض الاحيان : « أى وجه هذا الذى أوتيتيه » . فلا تجيب بغير ابتسامة خجلى ، تحمل معنى الاعتذار . حتى اذا تأهبت للانصراف ، حملت معها بعض ثيابه لتصلحها !

ولم يكونا يتقابلان كثيرا . ولكنه كان اذا لقيها أحيانا حول المحطة ، همس فى أذنها : « تعالى الليلة ! » . فتذهب اليه طائعة ، وعلى وجهها المشوه بالبثور ، مايوحى بأنها كانت تؤدى

واجبا جليلا ، تدرك قيمته كل الادراك . على انها فى عودتها الى الدار ، كانت تبدو فى منظر القلقة ، الشاعرة بالذنب ! .. وكانت تقبع أحيانا فى ركن ما ، أو وراء أحد الابواب ، وتسرح بصرها فى المراعى ، حيث يسيطر الليل ، فيملأ سكونه الرهيب فؤادها رعبا !

وفى ذات يوم ، جلس موظفو المحطة — عقب مرور قطار العصر — يتناولون الشاى ، فى ظل بعض أشجار الحور القائمة وراء نوافذ دار ناظر المحطة . وكانوا كثيرا مايتناولون الشاى فى ذلك المكان فى الايام الحارة ، اذ يجدون فى ذلك خروجا على رتابة حياتهم ..

وأخذوا فى ذلك اليوم بالذات ، يشربون الشاى وهم صامتون ، اذ أفرغوا كل ما كان يمكن أن يقال عن آخر قطار مر بهم . ومالبث ان قدم ناظر المحطة كوبه الفارغة،الى زوجته — باحدى يديه — بينما أخذ يمسح العرق عن جبينه باليد الاخرى ، وقال : « ان اليوم أكثر حرارة من أمس » . فقالت زوجته وهى تتناول الكوب منه : « انما يبدو لك أكثر حرارة لانك متضايق الى أقصى حد » . فهمهم قائلا : « ربما كنت على حق . لعل لعب الورق يساعد على دفع الضيق . ولكننا ثلاثة فقط » . فهز مساعده كتفيه ، وحملق بعينيه الى أعلى ، ثم قال : « ان ألعاب الورق تنم عن افلاس العقل ، كما يقول شوبنهاور » .. فغمغم ناظر المحطة : « هذا قول ينم عن ذكاء .. ماذا قلت ؟ .. افلاس العقل .. هـ — م — م ! .. ومن الذى قال هذا ؟ »

— شوبنهاور .. فيلسوف ألمانى

— فيلسوف ؟ .. هـ — م — م !

وتساءلت سونيا : « وهؤلاء الفلاسفة .. ماذا يفعلون ؟ .. أيشتغلون فى الجامعات ؟ »

— ترى كيف أشرح لك هذا ؟ .. ان الفلسفة ليست

منصبا ، بل يمكن وصفها بأنها هبة طبيعية .. فمن الممكن أن يكون أى امرىء فيلسوفا .. أى فرد يولد وعنده ميل الى التفكير والبحث عن السبب والغاية فى كل الاشياء . ومن المؤكد أن الفلاسفة يوجدون فى الجامعات أحيانا ، ولكنهم قد يوجدون أيضا فى أى مكان .. حتى بين مستخدمى السكك الحديدية !

ـ وهل يكسبون كثيرا من المال .. أقصد أولئك الذين يكونون فى الجامعات ؟

ـ هذا يتوقف على مالديهم من كفاءات

فتنهد ناظر المحطة وقال : « لو كان لدينا زميل رابع ، لنعمنا بساعتين بديعتين .. فى اللعب ! »

وعاد حبل الحديث الى الانقطاع

* * *

• واخذت الطيور تشدو عاليا فى كبد السماء الزرقاء ، بينما راحت العصافير تصفر وهى تتنقل بين أفنان شجر الحور . وانبعث من داخل الدار بكاء طفل ، فتساءل ناظر المحطة : « هل أرينا داخل البيت ؟ » . فأجابته زوجته : « طبعا »

ـ **هناك شىء غير عادى الى درجة ظاهرة ، فى هذه المرأة . فهل لاحظته يانيكولاى بتروفيتش ؟**

فقال نيكولاى بتروفيتش وهو بادى التفكير ، متخذا مظهر الحكيم المستغرق فى التأمل : «ان الشذوذ أب التفاهة!» . فهتف الناظر : « ما هذا الذى قلته ؟ » . واذ أعيدت العبارة بلهجة المدرس الذى يلقن تلميذا ، أغمض الناظر عينيه نصف اغماضة ، فى شىء من الانتشاء ، بينما قالت زوجته فى فتور : « من العجيب أنك تذكر ما تقرأه ، فى حين اننى انسى غدا ما اقراه اليوم ! .. ولست اذهب بعيدا ، فلقد قرات منذ

أيام شيئا ممتعا للغاية فى صحيفة « نيفا » ، ولكنى – لعمرى – لا أستطيع اليوم أن أذكر فيم كان هذا الذى قرأته ! » . فقال نيكولاى بتروفيتش فى ايجاز المطمئن الى سداد رأيه : « انها مسألة تعود » . فابتسم ناظر المحطة قائلا : « هذا خير من ذاك الذى قاله .. ما اسمه ؟ .. شوبنهاور ؟ .. أو بتعبير آخر : كل جديد لايلبث أن يصبح قديما ! »

فقال المساعد : « أو العكس . فلقد قال أحد الشعراء : « ان الحياة مقتصدة فى حكمتها ، فهى لاتفتأ تصوغ من القديم جديدا » . واذ ذاك صاح الناظر : « لعنة الله على كل هذا .. من أين لك بهذه الاقوال ؟ .. انها لتتدفق منك تدفق الماء من الصنبور » . واخذ الناظر يضحك طربا ، بينما ابتسمت زوجته ابتسامة عذبة ، فاخذ نيكولاى بتروفيتش يحاول – عبثا – أن يكتم ارتياحه

وعاد الناظر يقول : « من الذى قال تلك العبارة عن التفاهة ؟ »

– انه بارياتنسكى .. شاعر !

– والعبارة الاخرى ؟

– شاعر آخر ، يدعى فوفانوف !

فقال الناظر مطريا الشاعرين : « انهما من المبدعين ! » . وراح يردد قوليهما فى صوت منغوم ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة

وكان الضيق من حياتهم يلاحقهم بنوع من المداعبة . فهو يفلتهم من قبضته لحظة ، ليعود فيشد عليهم القبضة بأقوى من ذى قبل ، واذ ذاك يرتدون الى صمتهم من جديد ، وهم يتأففون من الحر الذى زاد الشاى من وطأته

ولم يكن يلوح لهم فى السهل غير الشمس ! .. وعاد ناظر المحطة يستأنف حديثه الاول ، قائلا : « ان أرينا – كما قلت – مخلوق غريب ، فلست أتمالك أن أعجب من أمرها . لكأنى بها قد أصيبت بلطمة ما ، فهى لاتضحك قط ، ولا تغنى أبدا ،

ولا تكاد تتكلم .. ما أشبهها بجذع شجرة ميتة ، فى الارض ! .. ولكنها فى عملها مجدة من الدرجة الاولى .. أما رعايتها لابنتنا ليليا ، فممتازة .. انها لاتستكثر عمل شىء من أجل الطفلة »

وكان يتكلم بصوت منخفض ، حتى لاتسمعه أرينا .. فقد كان ممن يرون أنه لايجدر بالمرء أن يجامل الخدم الاجراء على الاطلاق،لان المجاملة تفسدهم ! .. ولم تلبث سونيا أنعارضته قائلة وهى تقطب ، وفى عينيها معان خفية : **« كف عن مثل هذا الحديث ، فهناك أمور كثيرة لاتدرك أنت عنها شيئا ! »**

واذ ذاك ، شرع نيكولاى بتروفيتش يغنى بصوت خافت ، وهو يطرق المائدة بملعقته مع النغم :

« أنا عبد الحب .. ولكنى افتقر الى القوة ،
كى أفر معك .. ياشيطانى المحبوب ! »

فقاطعه الناظر صائحا : « ماذا ؟ .. ما هذا ؟ .. هى ؟ .. انكما ولابد تسخران منى ؟ » .. وانفجر مقهقها ، وفكاه يهتزان ، وقطرات العرق تتساقط من جبينه . فقالت سونيا : **« ليس فى الامر ما يضحك على الاطلاق ، بل يجب أن نوليه اهتماما جديا ، لانها — أولا — تعنى بالطفلة ، وثانيا .. انظر الى هذا الخبز ! .. انه محترق ، وكثير الملح .. فلماذا ؟ »**

— لاشك فى هذا ، فالخبز ليس كما ينبغى ، وعليك أن تؤنبيها لذلك . ولكنى والله لم أتوقع هذا قط .. اللعنة على كل شىء ! .. كيف يعقل هذا ، وهى ليست أكثر من عجينة شوهاء ! .. وهو .. من تراه يكون ؟ .. لوكا ؟ .. أفما يستحق أن أهزأ منه ، ذلك النذل ؟ .. أم تراه ياجودكا ،ذلك الهرم العديم الشارب ؟

فقال نيكولاى بتروفيتش فى اقتضاب : « جوموزوف »

— أحقا هو ؟ .. ذلك الرجل الهادىء الطباع ؟ .. دعك من هذا ، فلابد انك تهرأ !

***

• واغتبط الناظر أيما اغتباط بهذا الموقف ، فكان يضحك آنا حتى ينهمر الدمع من عينيه ، ثم ينقلب آنا آخر الى الجد فيقول ان العاشقين يجب أن يلقيا عقابا رادعا .. ولا يلبث أن يتمثل فى خياله كلمات الهوى التى يحتمل أن تتبادل بينهما ، فينطلق مرة أخرى فى الضحك ! .. وشرع فى النهاية يسأل عن التفصيلات ، واذ ذاك تجهم وجه نيكولاى بتروفيتش ، بينما أخذت سونيا تقاطعه . وقال ناظر المحطة المشاكس : « ياللقردين ! صبرا ، صبرا ، لسوف أجعلهما أضحوكة ! .. ياله من أمر عجيب ! »

وظهر لوكا فى تلك اللحظة قائلا : « ان المبرقة ـ آلة التلغراف ـ تدق »

ـ ها أنذا قادم .. اعط الاشارة لرقم ٤٢

وسرعان ما كان ييمم مع مساعده شطر المحطة ، حيث كان لوكا يدق الجرس اشارة للقطار . وأبرق نيكولاى بتروفيتش الى المحطة التالية يستأذنها قبل السماح للقطار رقم ٤٢ بالانطلاق اليها ، بينما راح الناظر يذرع أرض غرفة المكتب ، وهو يبتسم لنفسه قائلا لمساعده : « سندبر معا ـ أنت وأنا ـ حيلة لهما .. ألا ترى ذلك ؟ .. لمجرد دفع السأم ! .. لسوف نجد فرصة للضحك على الاقل ! » . فقال نيكولاى بتروفيتش وهو منهمك فى الاتصال البرقى : « لابأس ! » .. ولم يزد ، فقد كان من واجب الفلاسفة ـ على ماكان يعرف ـ أن يتوخوا الايجاز فى حديثهم

ولم يمض وقت طويل حتى سنحت لهما فرصة الضحك !

ففى ذات ليلة ، زار جوموزوف أرينا فى الحظيرة ، حيث كانت ـ بايعاز منه وقبول من سيدتها ـ قد أقامت لنفسها سريرا بين مختلف انواع الاخشاب .. وكان الجو فى الحظيرة باردا ، مشبعا بالرطوبة ، وقد تكدست المقاعد المكسورة ، والبراميل المهشمة ، والالواح وكافة المهملات ، فى أشكال كانت تبدو فى الظلام مخيفة ! .. ومن ثم فقد كانت أرينا فى وحدتها تشعر بالخوف ، الى درجة تقصى النوم عن عينيها ، فتظل مستلقية على القش وهى مفتحة العينين ، تتمتم فى سرها بالصلوات

وجاء جوموزوف ، فأخذ يعابثها بخشونة فترة طويلة ، دون أن ينبس بكلمة واحدة . حتى اذا تعب ، استلقى مستسلما للنوم . بيد أن أرينا بادرت الى ايقاظه قبل أن يستغرق فى نومه ، وهمست مذعورة : « تيموفى بتروفيتش ! .. تيموفى بتروفيتش ! » .. فأجابها والنعاس لايزال يغالبه : « ماذا هناك ؟ »

ـ لقد أغلقوا الباب دوننا بالقفل !

واذ ذاك قفز واقفا وهو يقول : « ماذا جرى ؟ »

ـ لقد جاءوا الى الباب فأغلقوه بالقفل

فهمس فى جزع وغضب ، وهو يزيحها عن طريقه : « انك معتوهة ! » .. ولكنها قالت فى ذلة : « تأكد من الامر بنفسك ! »

وسار متعثرا بين الاخشاب حتى بلغ الباب ، فدفعه ، ولكنه لم ينفتح . فأخلد الى الصمت لحظة ، ثم قال فى اكتئاب : « ان هـــذا من عمل ذلك الجندى ! »

وانبعثت من الجانب الآخر للباب عاصفة من الضحك ، فصاح جوموزوف : « دعنى أخرج ! » . فتناهى اليه صوت الجندى يقول : « ما هذا ؟ » .. فعاد يصيح : « أقول لك ، دعنى أخرج ! » .. ولكن الجندى قال وهو يبتعد : « فى الصباح » .. وهتف جوموزوف فى استعطاف وحنق : « ولكننى مضطر الى السهر فى نوبة الحراسة .. لعنة الله على كل شىء ! »

ـ سأسهر بدلا منك ، فابق حيث أنت !

وابتعد الجندى ، فدمدم « المحولجى » مهموما : « يالك من كلب قذر! » .. ثم أردف ضارعا : « اسمع ، ليس لك أن تحبسنى هكذا .. وهناك ناظر المحطة ، فماذا تراك قائلا له ؟ .. انه لن يلبث أن يسأل عن جوموزوف بالتأكيد ، فماذا تقول له اذ ذاك ؟ » .. وهنا تمتمت أرينا فى أسى : « أخشى أن يكون ناظر المحطة هو الذى أمره بأن يفعل هذا » .. فأخذ جوموزوف يردد فى ذعر : « ناظر المحطة ؟ .. ولماذا يقدم على شىء كهذا ؟ » .. وأخلد للتفكير لحظة ، ثم صرخ فيها : « انك تكذبين ! » . وكان ردها مجرد زفرة عميقة !

وقال « المحولجى » وهو يجلس على برميل بالقرب من الباب : « ياالله ! .. ترى ما الذى سيحدث الآن ؟ .. لقد جلبت العار على نفسى .. وكان كل هذا ذنبك أنت أيتها الوحش .. ياذات الوجه الخنزيرى ! » .. وهز قبضته فى الاتجاه الذى كانت تنبعث منه أنفاسها ، فلم تنبس أرينا ببنت شـفة !

وكانت الظلال المعتمة تلفهما .. ظلال تشيع فيها رائحة التراب المشبع بالرطوبة ، والكرنب المملح ، وبعض الروائح الاخرى النفاذة ، التى تثير الخياشيم وتهيجها . وتسللت خيوط من أشعة القمر خلال شقوق الباب .. وانبعث من الخارج عجيج قطار للبضاعة كان يغادر المحطة ..

وصاح جوموزوف فى غضب وسخط : « لم لاتقولين شيئا أيتها الحدأة ؟ .. ماذا أفعل الآن ؟ .. لقد أوقعتنى فى مأزق ، ثم لم تعودى تجدين ماتقولينه! فكرى فى وسيلة ما ، لعنة الله عليك ! .. كيف أعيش بعد هذه الفضيحة ؟ .. يا الهى ، ما الذى أغرانى على أن أعاشر مخلوقة كهذه ! » . فقالت أرينا بصوت خافت : « سأسألهم أن يصفحوا عنى » . فهتف : « ماذا ؟ » .. وقالت وكأنها تتم عبارتها السابقة : « عسى أن يصفحوا ! »

ـ وما قيمة ذلك لى ؟ .. جميل جدا ! لسوف يغفرون لك ، فما شأنى أنا ؟ .. ألم أترد فى العار ؟ .. لسوف يتخذوننى أضحوكة على أية حال !

ولم تنقض بضع دقائق حتى كان يلعنها ويكيل لها السباب . وراح الوقت يمر بطيئا بدرجة لاتطاق ! وأخيرا ، قالت المرأة بصوت متهدج : « اصفح عنى ياتيموفى بتروفيتش ! » . فقال محنقا : « سأصفح عنك ببلطة أهشم بها رأسك .. هذا ما أتمنى أن أفعله ! » .. وعاد الصمت يسيطر عليهما مرة أخرى ، وكان ثقيلا ، ممضا ، أشاع الشقاء فى نفسى الشخصين المحبوسين فى الظلام .

ومالبثت أرينا أن قالت : « يا الهى .. ليت النور ينبثق ! » . فصاح جوموزوف متوعدا : « اعقلى لسانك فى فمك ، والا أريتك كيف يكون النور !». وطفق يكيل لها الشتائم من جديد. ثم عاد الصمت يخيم عليهما ويعذبهما . وبدا كما لو أن الوقت كان يتعمد أن يزداد تباطؤا مع اقتــراب الفجر وكأن كل دقيقة كانت تتثاقل فى المرور عن قصد ، وهى تجد تسلية فى المهزلة الاليمة التى كان يعانيها الشخصان !

واستسلم جوموزوف – بعد برهة – لسنة من النوم ، ولكنه لم يلبث أن استيقظ على صوت ديك خارج الحظيرة ، فهمس : « أنت ياوجه الخنزير .. هل أنت نائمة ؟» . فتنهدت أرينا وقالت : « لا » . فسألها فى سخرية : « ولم لم تنامى ؟ .. هه ؟ » . فهتفت باكية : « لاتغضب منى ياتيموفى بتروفيتش .. ارحمنى .. ارحمنى بحق المسيح ، فأنا وحيدة ، وليس لى من نصير .. أنت الوحيد الذى لى فى الدنيا ! .. ونحن ، على أية حال ..». ولكنه قطع عليها استرسالها فى تلك الهمسات الهستيرية ، قائلا فى خشونة وغلظة : « كفى نباحا ، ولاتحمليننى على الضحك !.. امسكى لسانك ، ولينزل الله نقمته على رأسك ! »

وهكذا راحا يرقبان فى صمت انصرام كل دقيقة . ولكن مرور الدقائق متوالية لم يعد عليهما بجدوى . وما لبثت أن تسللت أشعة الشمس أخيرا من شقوق الباب ، مرسلة خلال الظلام خيوطا وهاجة .. وانبعث خارج الباب وقع خطوات ، ثم وقف شخص ما لدى الباب برهة . ولكنه عاد ينصرف .. فتمتم جوموزوف مغيظا : « ياللمردة الخبثاء ! » . وعاد الاثنان ينتظران فى صمت كان يضنى أعصابهما . ثم غمغمت أرينا : « رحماك يا الهى العزيز ! »

***

• وبدا لهما أنهما يسمعان صوت أقدام تسترق الخطى . ثم تحرك مفتاح فى القفل . وسمعا صوت ناظر المحطة يصيح فى لهجته الحازمة : « جوموزوف .. خذ بذراع أرينا وقدها الى الخارج .. أسرع .. حالا ! » . فغمغم جوموزوف : « تعالى يا هذه ! »

وتقدمت أرينا فوقفت بجانبه ورأسها منكس على صدرها . وفتح الباب على مصراعيه ، فبدا خلاله ناظر المحطة الذى قال : « أهنئكما بهذه الزيجة الجديدة ! » . وانحنى امام أرينا ، ثم صاح : « هيا .. لتعزف الموسيقى ! »

وهم جوموزوف بالخروج ، فاستوقفه ضجيج يصم الآذان . واذا لوكا وياجودكا ونيكولاى بتروفيتش يقفون أمام الباب . وكان لوكا يدق بقبضة يده قاع دلو معدنى ، ويطلق بصوته الصارخ – التى تتأذى منه الاسماع ، والذى كان ينبعث باعلى طاقته – ما يشبه النغم . بينما كان الجندى ينفخ فى بوق من الصفيح ، ونيكولاى بتروفيتش ينفخ خديه ، ويلوح بيده كقــادة الفرق الموسيقية ، وهو يطلق من بين شفتيه صوتا يشبه صوت الطبل : «بوم! بوم ! بوم – بوم – بوم ! »

وكان الدلو يبعث صوتا فظيعا ، والبوق يعوى ويعول .. وانحنى الناظر

لفرط الضحك . وكذلك الفجر مساعده ضاحكا حين رأى جوموزوف المشدوه وقد شحب وجهه ، وارتجفت شفتاه في اختلاج كان يرسم ابتسامة حائرة .. وخلفه وقفت أرينا ورأسها يمس صدرها ، وهى جامدة كالحجر ! .. واخذ لوكا يشكل وجهه بأشكال كريهة ، وهو يغنى :

« همست أرينا في أذنه .. بما يحب كل عاشق أن يسمع ! »

وتقدم الجندى ونفخ في بوقه المصوب نحو اذن جوموزوف . وصاح ناظر المحطة وهو يكاد يختنق من الضحك : « هيا .. هيا ، تابط ذراعها ! » .. فصرخت سونيا التى كانت تجلس عند مدخل الدار : « أواه ، أواه ! .. كفوا عن هذا ، فانى أكاد أموت ! » .. واخذ جسمها يهتز لفرط الضحك .. وقال نيكولاى بتروفيتش مغنيا :

« لن أحفل باى عذاب ، فى سبيل لحظة من السعادة ! »

وصاح ناظر المحطة : « مرحبا بالزوجين الجديدين » ، فردد الجميع الهتاف ، حين تقدم جوموزوف نحوهم : « مرحبا ! » .. وسارت أرينا فى أعقاب جوموزوف . وكانت قد رفعت رأسها ، وفغرت فاها ، وتركت ذراعيها تتدليان الى جانبيها فى استرخاء ، وراحت تحملق فيما كان أمامها ، وان بدا جليا انها لم تكن تبصر شيئا

وصاحت سونيا : « ألا دع كلا منهما يقبل الآخر يازوجى ... ها ، ها ، ها ! » . فارتفع صوت نيكولاى بتروفيتش قائلا : « ليقبل كل منكما الآخر أيها العروسان ! » .. ولم تعد ساقا ناظر المحطة تقويان على حمله ، لافراطه فى الضحك ، فارتمى متهالكا على جذع شجرة ، بينما ظل ضجيج الدلو ودوى البوق مسترسلين .. وأخذ لوكا يرقص وهو يغنى :

« ان حساء الكرنب الذى أعدته أرينا أكثر كثافة مما اعتادت أن تذيقنا ! »

وعاد نيكولاى بتروفيتش ينفخ شدقيه ويقلد صوت الطبل والبوق : « بوم ـ بوم ـ بوم ! .. توت ـ توت ـ ! .. بوم ـ بوم ! .. توت ـ توت ! »

* * *

واذ بلغ جوموزوف مبنى مساكن العمال ، توارى وراء الباب . وبقيت أرينا واقفة فى الفناء ، يحيط بها جمع صاخب ارتفع صياحه وتهليله وضحكه .. وقد أخذ أفراده يصفرون فى أذنيها ، ويتواثبون حولها ، فى نوبة من المرح المهتاج .. وظلت واقفة وسطهم ، بوجه جامد الاسارير ، قذر ، مشوه ، يبدو عليه الغباء ، وان أثار فى النفس الرثاء ! .. وصاح الناظر يقول لزوجته ـ وهو يشير نحو أرينا ـ وقد انحنت قامته لفرط الضحك : « لقد هرب الزوج وترك عروسه ! » . فالتفتت اليه أرينا ، ثم سارت متجاوزة المساكن ، وانطلقت نحو السهل ، تشيعها الصرخات ، والضحكات ، والصخب !

وصاحت سونيا : « كفى .. دعوها وحدها ! .. اتركوا لها الفرصة كى تعود ، فان الغداء يجب أن يطهى .. ولا ينبغى أن تنسوا هذا ! »

وانطلقت أرينا فى السهل ، حتى تجاوزت حدود حقل الحنطة .. وكانت

تسير فى بطء ، كشخص مستغرق فى التفكير . وصاح الناظر : « ما هذا ؟.. ما هذا ؟ » .. وكان يوجه تساؤله الى المشتركين فى هذه المهزلة ، الذين تحولوا يستعيدون دقائق سلوك العروسين ، وهم يضجون بالضحك والصياح. ولم ينس نيكولاى بتروفيتش فى هذه المناسبة أن يلقى باحدى جواهر الحكمة ، اذ قال : « ليس جرما أن تضحك مما هو مضحك ! »

وكان يوجه الخطاب الى سونيا ، ثم أردف مستدركا : « ولكن من الضرر أن تسرف فى الضحك ! »

وحظيت المحطة فى ذلك اليوم بنصيب كبير من الضحك ، ولكن الغداء الذى حظيت به كان سيئا ، لأن أرينا لم تعد لتطهو الأكل ، فتولت زوجة ناظر المحطة هذه المهمة . ومع ذلك ، فان سوء الغداء لم يستطع أن يطفى على مرح القوم . ولم يخرج جوموزوف من مساكن العمال ، الا عندما حانت نوبة الحراسة . فلما خرج ، دعى الى مكتب ناظر المحطة ، حيث قام نيكولاى بتروفيتش باجراء تحقيق معه عن السبل التى سلكها « ليفزو » قلب « فاتنته » ، وناظر المحطة ولوكا يستمعان فى طرب !

وقال نيكولاى بتروفيتش لناظر المحطة : « انها أغرب قصة سمعتها من رجل عن الغواية والسقوط ! » . فقال جوموزوف وقد تمالك جأشه وابتسم فى شىء من الاشمئزاز : « وما كان اشنعه من سقوط ! » .. فقد أدرك أنه اذا استطاع أن ينسج قصة تبدى أرينا فى مظهر مستهجن ، لتفادى الكثير من ضحك القوم منه . ولذلك لم يلبث ان قال : « لقد كانت تكتفى فى البداية بأن تغمز لى بطرف عينها ! » . فقال الناظر : « تغمز ؟ ها ، ها ، ها!.. تصور ذلك يا نيكولاى بتروفيتش .. تصورها وهى تغمز .. شىء يفتت الاكباد ! »

وتابع جوموزوف الحديث قائلا : « كانت تكتفى بالغمز ، هكذا . فكنت أقول لنفسى : « ما أراك الا تبغين شرا أيتها الفتاة ! » .. ثم قالت لى بعد ذلك : « اذا شئت فاننى على استعداد لان أحيك لك بعض الاقمصة ! »

فهتف نيكولاى بتروفيتش : « ولكن الابرة ليست ضرورية ! » .. وأردف قائلا لناظر المحطة ، على سبيل الايضاح : « هذه العبارة من احدى قصائد نيكراسوف ، كما تعلم . امض فى قصتك يا جوموزوفيا .

ومضى جوموزوف فى قصته . وكان فى البداية يلقى عناء فى الاسترسال ، ولكن الوحى لم يلبث ان تدفق عليه بالاكاذيب ، اذ رأى انها كانت تجد آذانا صاغية !

* * *

. وكانت تلك التى راح يتكلم عنها ، مستلقية — فى تلك الاثناء — وسط السهل . فقد خاضت الى مسافة بعيدة خلال ذلك البحر من الحنطة ، ثم تهالكت متثاقلة على الارض ، ورقدت منكفئة على وجهها دون حراك . حتى اذا لم يعد فى وسعها احتمال الشمس التى كانت تلهب ظهرها ، استلقت ووجهها الى السماء ، وقد غطته بيديها لتحجب وهج الشمس عن عينيها ..

وبدا حفيف سنابل الحنطة مهدئا لأسى تلك المرأة التى أثقلها العار .. وخيل اليها ان أزيز الجراد المسترسل كان يحمل الى نفسها سلوى وعزاء .. وكان الحر قاسيا ، وفكرت فى أن تصلى ، ولكنها لم تستطع أن تتذكر كلمة واحدة من الصلوات .. وأخذت تتراقص أمام عينيها صور الوجوه الساخرة ، بينما كانت تتردد فى اذنيها أصوات الضحك ، ودوى البوق ، وصراخ لوكا ..

وضاق صدرها بكل هذا ، ففكت أزرار قميصها ، وعرضت بدنها للشمس ، عسى أن يخفف هذا من ضيق نفسها ، فأخذت الشمس تلهب بشرتها ، وأحست بشىء يخز صدرها ، وتتابعت أنفاسها فى شهقات متهدجة ..

وراحت تهمس بين وقت وآخر : « الرحمة يا الهى ! » .. ولكنها لم تتلق جوابا ، سوى حفيف سنابل الحنطة ، وأزيز الجراد

ورفعت رأسها فوق أمواج الحنطة ، فرأت وهج السنابل الذهبية ، وشاهدت خزان المياه الاسود العالى ، يشرئب بقمته فى الفضاء وراء المحطة .. ولمحت قمم بنايات المحطة . ولم يكن هناك ـ عدا هذه ـ سوى السهل الاصفر الذى لا يأتى البصر على حدوده ، فخيل لأرينا انها وحيدة فى الدنيا بأسرها ، وانها ترقد فى وسط هذه الدنيا تماما ، وليس هناك من يخفف عنها وطأة الوحدة ووحشتها .. لا .. لا أحد .. اطلاقا !

وسمعت حوالى الغروب أصواتا تناديها : « أرينا ! أرينا !.. أيتها البقرة الغبية ! » .. وكان أحد هذه الاصوات صوت لوكا .. كما كان بينها صوت الجندى ! .. وكانت تطمع فى أن تسمع صوتا ثالثا ، ولكن هذا الصوت المنشود لم ينبعث بندائها .. ومن أجل هذا انبثق الدمع حارا من عينيها ، وجرى مسرعا على خديها المليئين بالبثور ، ثم انحدر على صدرها .. وفيما كانت تبكى ، راحت تحك صدرها العارى بالارض الجافة الدافئة ، تحاول أن توقف ذلك اللهب الذى كان يستعر فى صدرها ، ويزداد تعذيبا لها ، شيئا فشيئا !

وظلت تبكى ، ثم ما لبثت ان كفت عن البكاء ، وكتمت شهقاتها وكأنما كانت تخشى أن يسمعها أحد فيحرم عليها البكاء .. حتى اذا هبط الليل ، نهضت فسارت فى تؤدة ، عائدة نحو المحطة .. واذ بلغت البنايات وقفت مستندة الى جوار الحظيرة ، وظلت فترة طويلة تسرح بصرها فى السهل الشاسع . وأقبل قطار من قطارات البضاعة ، ثم رحل .. وسمعت الجندى يروى فضيحتها الى عمال القطار ، الذين ضجوا بالضحك ، فردد السهل ضحكهم ..

وتنهدت وهى تلصق جسدها بالجدار : « ارحمنى يا الهى ! » .. ولكن زفراتها لم تخفف من العبء الذى كان يجثم على صدرها !

* * *

وعندما اقترب الصباح ، تسلقت الى القبو الذى يقوم تحت سقف المحطة المحدودب ، فشنقت نفسها بحبل الغسيل !

وارشدت رائحة العفن أهل المحطة الى مكان أرينا بعد يومين . فذعروا

فى البداية ، ثم اخذوا يبحثون الامر ، ويتناقشون فيمن كان خليقا بان يحمل وزر ما جرى . فاثبت نيكولاى بتروفيتش - بما لا يدع مجالا للشك - ان جوموزوف هو المذنب . فصوب ناظر المحطة لكمة الى صدغ « المحولجى » ، وأوصاه بأن يكتم ما حدث !

ووفد موظفون رسميون فأجروا تحقيقا انتهوا فيه الى ان « أرينا » كانت تعانى لوثة . وصدر الامر الى بعض عمال السكك الحديدية بنقل الجثة الى السهل لدفنها . فلما تم ذلك ، عادت الطمأنينة تسيطر على المحطة .. وعاد أهلها يعيشون فى الحياة اربع دقائق كل يوم ، وهم يكتوون بالوحدة ، والسأم ، والقيظ ، والكسل .. ويشيعون القطارات التى كانت تندفع مبارحة المحطة - مخلفة اياهم وراءها - فى حسد وغيرة !

... وفى الشتاء ، عندما تهب الرياح الجليدية فى صراخ وعويل عبر السهل ، فتكتنف المحطة بالجليد والاصوات الرهيبة ، تغدو الحياة هناك أكثر عزلة ووحشة مما هى فى أى وقت آخر !

محتويات الكتاب

مكسيم جوركى يقول:

"لا يهم المرأة أن يكون عشيقها حوذيًا، أو "جنتلمانًا" أو ضابطًا .. فنحن جميعًا "ذكور" - وفى نظرها "خنازير"! - والمرأة حين تزل، لا تخشى شيئًا قدر خشيتها أن ينال الرجل وطره منها ثم يهجرها! إن فى المرأة احساسًا بالخزى والعار أكثر مما بنا نحن الرجال، فنحن حين تنفض يدنا من لهونا، نباهى بما فعلنا على رءوس الأشهاد، وفى الأسواق!.. أما المرأة فانها تتكتم، حتى ليعجز أذكى الناس عن أن يتصورها أهلا للخطيئة!"

اقرأ هذا التحليل الرائع وأمثاله فى كل سطر من سطور هذا الكتاب الممتع الذى ينقلك الى بقاع فاتنة تحلم بارتيادها: ينقلك الى ضفاف الفولجا، ومخيمات الغجر، والقوقاز، وسيبريا، والقرم، وأوكرانيا .. الخ

مطبوعات
كتابى
يصدرها: حلمى مراد



شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩